سلسلة الروح الجامعة :

الدين الحق

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا
وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »
(قرآن كريم)

تأليف

محمود علي قارعة

١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

لفضيلة الأستاذ العالم العامل المجتهد

الشيخ محمد أبي زهرة

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على الرسول الأمين ، المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فإن الأستاذ محمود على قراعة غصن من دوحة عظيمة ، أصلها ثابت ، وسلالة من أسرة طيبة طاهرة تقية ، انصرفت إلى علم الإسلام فى غير خيلاء ولا استعلاء ، ولكن فى عزة ومن غير استخذاء ، لا يتزاحمون على الأبواب ، ولا يجعلون العلم والفكر سلعا تباع وتشترى ، وليس لهم فى سوق النفاق ناقة ولا جمل ، ولقد عرفت شيوخها وشبابها ، فما وجدتهم يخرجون عن ذلك السمت النزه العفيف ، وهو منهاج العلم الدينى القويم ، وسبيل السلف الصالح ، والطريق الجدد ، من سار فى غيره عثر ، ومن تنكبه ضل وإن اشتهر .

فكاتب هذا الكتاب نبت فى ذلك المنبت الكريم ، والعرق دساس ، فكان على منهاج سلفه ، ومع أن تعلمه قانونى ، اتجه إلى الكتابة فى حقائق الإسلام يكشفها ، ويبينها ، فكتب عدة كتب ، منها هذا الكتاب « الدين الحق » .

وإن الكتاب ليس نثيرا من المعلومات غير مرتبط ولا متناسق ، بل هو وحدة تتماسك أجزاؤها ، ولا تتنافر عناصرها ، وله هدف يقصد إليه ، وغاية ينتهى إليها ، وعنوانه يكشف غرضه ، ويومىء إلى أجزائه المتحدة المنسجمة ، فهدفه بيان الدين الحق ، والدين الحق يتقاضى وجود عناصر ثلاثة : نفس مخلصة ، وفكر مستقيم ، واتجاه إلى الينبوع الدينى الصافى .

ولذلك نجد الكتاب فى فصوله وأبوابه ، واتجاهاته واستشهاداته ، يتجه إلى تحقيق هذه العناصر الثلاثة المتلاقية غير المتنافرة ، فهو يتجه إلى تخليص نفس المتدين من كل ما يرنق إخلاصها ، ويدعو قارئه إلى أن يبتعد عن النفاق الدينى : « والاتجاه إلى الباطل المقنع بقناع الحق » ، وإنه فى هذا السبيل يدعو المتدين إلى أن يتكشف أغوار نفسه ، ويتعرف أسرارها وبواعثها إلى الأعمال ، ومقدار خضوعها لسلطان القوى القاهر مالك السموات والأرض ، فإن كانت تحس بسلطان الله تعالى عند كل فعل ، وعند كل حركة فهى التى ترجو النجاة ، ويستشهد فى ذلك بقول الشيخ أبى الحسن الشاذلى : « أيست من نفع نفسى لنفسى ، فكيف لا أيأس من نفع غيرى لنفسى ، ورجوت الله لغيرى ، فكيف لا أرجوه لنفسى » .

ويسترسل الكاتب فى بيان إحساس النفس المؤمنة بمراقبة الله تعالى ، وبأنه القادر على كل شىء ، ولكنه يسير فى منهاجه على حذر خشية أن يؤدى كلامه إلى أن يظن القارىء أنه لا يدعو الله إلى الإيمان بالقضاء والقدر من غير عمل ، فيبين أن العمل لا ينافى القدر ، وأن العزيمة للعمل المنتج المثمر لا تتنافى مع التوكل ، وأن التوكل على الله حق توكله هو العمل الصالح من الإحساس بأن وراء العمل قدرة الله المتصرفة المسيطرة الحاكمة ، وأن التوكل من غير عمل هو التواكل ، وليس من الإسلام فى شىء .

وفى سبيل تصفية النفوس من أدرانها يوجه قارئه إلى ما فى العبادات الإسلامية من معان روحية ، من أخذ بها صفت نفسه ، وزكت روحه ، وسمت إلى الملكوت الأعلى ، وهى فى جسم الإنسان ابن الأرض الذى خلق من سلالة من طين .

ويبين فى هذا السبيل التصوف الحق ، والزهادة الحق : وينعى على المتصوفين الذين اتخذوه مظاهر وضجات من غير حقائق ومعان ، وأصواتاً تتعالى وتتصايح من غير قلوب تخشع لذكر الله ، وتقشعر لعظمته وجلاله سبحانه وتعالى .

ثم يبين فى هذا السبيل أيضا مقدار اتصال المؤمن بالمادة والمال فيبين أن المؤمن الصادق الإيمان يطلب المال من حله ، ولكن من غير طمع ولا جشع ،

ومن غير أن يكون طلب المال همه ، فيطلبه على أن يكون كحقيقته وسيلة لإشباع حاجات هذه الحياة ، لا أن يكون فى ذاته غاية ترتجى ومقصدا يقصد لذاته ، لا لغيره ، فهنا الخطر ، فإن المال إن قصد لذاته استعبد صاحبه ، وصار له سيدا مطاعا ، وبذلك تدنس نفسه ، ويكون الشح المطاع ، والهوى المتبع .

وإن بيان هذا العنصر النفسى منبث فى كل جزء من أجزاء الكتاب وبجواره العنصر الثانى ، وهو الفكر المستقيم ، ولذلك دعا فى الكتاب إلى أن يطهر المتدين عقله من الأوهام ، فلا تسيطر عليه الخرافات ، ويتجه إلى علم الكون وما فيه دارسا باحثا ، فى كل جزء منه آية تدل على الوحدانية ، وعلى القدرة الإلهية ، وعلى السلطان الكامل لمالك السموات والأرض .

ثم هو فى سبيل تقويم فكر المتدين يبين معنى التوحيد والتنزيه ، ويتكلم فى بعض المتشابه ، ويدعو إلى تأويله ، ليتفق مع حقيقة التنزيه ، وما يليق أن تتصف به الذات العلية المنزهة عن التركيب ، ومشابهة الحوادث : « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » ، وهكذا يسترسل فى بيان الحقائق العلمية الإسلامية التى تنقى فكر المؤمن من أن تسيطر عليه الخرافات ، وتمكنه من علم الكون وعلم الحقيقة معا ، وإن ذلك العنصر كصاحبيه منبث فى ثنايا الكتاب غير متميز بقسم فيه .

والعنصر الثالث من عناصر التدين الصحيح ، وهو الاتجاه إلى القرآن والسنة تطلب منهما حقائق هذا الدين ، ويكونان الحكم عند الاختلاف ، كما قال تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » ، فإنهما الحجة الواضحة ، وهما رسالة النبوة التى تركها النبى صلى الله عليه وسلم ، كما قال عليه السلام : « تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدى أبدا ، كتاب الله وسنة رسوله » .

وإنه ليبين بعد ذلك أثر التدين الصحيح ، وهو أن يكون المؤمن حسن الصحبة صادق الألفة ، حلو المعشر ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « المؤمن مألف ، فلا خير فيمن لا يألف ، ولا يؤلف » .

هذه صور من الكتاب ، ولقد وددت أن تكون العناصر الثلاثة التى تعد أركان الكتاب متميزة كل واحد منها فى باب ، ولا تكون مبثوثة فيه ، وأن تكون هى عناوين أبوابه ، وهذا أمر شكلى ، لا يغير من جوهر الموضوع ، وإنا نضرع إلى المولى أن يجعلنا من المتدينين حقا وصدقا « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب »

محمد أبو زهرة

المؤلف : أشكر لفضيلة الأخ الشيخ محمد أبى زهرة ثناءه ، وأبدى لولا أن الأمانة العلمية تقتضى إثبات كلامه كله لحذفت هذا الثناء ، لا تواضعا ولكن لأنا نريد أن تتحدث أعمالنا عنا لا حسبنا ، وكذلك أشكر له نقده وبيانه أن التدين الحق يقتضى وجود عناصر ثلاثة : نفس مخلصة ، وفكر مستقيم ، واتجاه إلى الينبوع الدينى الصافى ، ورغبته فى أن تكون عناوين الكتاب هى هذه العناصر المبثوثة فيه ، وأبدى أن الترتيب الذهنى شخصى يختلف باختلاف الأشخاص ، حتى أنه يختلف باختلاف الظروف الذهنية للشخص الواحد ، ولقد كنت أرغب فى أن يكون فصل معرفة الله أول فصل وأن يكون ثانى الفصول هو روحانية الإسلام فى العبادات ، ولكنى آثرت أن يكون أولها التفكير فى خلق الله وأن يكون فصل المعرفة آخرها ، لأنى راعيت أن المعرفة مبثوثة فى كل الفصول وكذا العبادة ، فرغبت فى أن يكون إيضاح المعرفة فى آخر الكتاب ، وهذا كما قال فضيلة الأستاذ ، عرضى غير جوهرى ، ما دمنا قد اتجهنا فى الكتاب للإخلاص النفسى ولاستقامة الفكر ولكتاب الله وسنة رسوله الكريم !

ولقد ذكر فضيلة الأستاذ الشباب ، وهو أدرى بحيرة شبابنا فى التدين ، وأذكر عام ١٩٣٤ وأنا فى ليسانس الحقوق ، أن رأيت أحد إخواننا الطلبة قد أطلق لحيته ولم يحل بينه وبين إطلاقها غضب والده وتهديده بطلاق أمه والإحجام عن الصرف عليه إذا لم يحلقها ولا نصح أستاذ الشريعة الإسلامية المرحوم الشيخ أحمد إبراهيم له ، وأنه إذا كان لابد فاعلا فليكتف بقدر القبضة ، وأن الدين فى القلب ، وأن الله لم يأمره بترك مذاكرته والسهر فى التهجد

وأن حب العلم ، وإرضاء الوالدين والسعى للرزق من العبادة . . . ثم فرقت بيننا وبينه الحياة ، ولا أدرى بعد ذلك ماذا كان من أمره فى التزمت ، وإن كنت أعرف أنه انصرف عن سنة الحياة الدينية الصحيحة إلى الحياة الدينية المزيفة التى تباعد بينه وبين التدين الحق !!

وقابلت منذ أعوام زميلا آخر — كان يعرف عنه بعض الانحلال الخلقى — وكانت بيده مسبحة أطول منه ، فلما حييته أشار بيده أن لا ، لأنه مع مسبحته عن الحياة وعن الناس فى شغل . . . ثم علمت أنه عاد لانحلاله القديم ، بأشد مما كان ، وانضمامه لأصدقاء السوء ، ولعله يعود بعد ذلك لتزمته فى غده ! وما هذا إلا لأن شبابنا يجهلون التدين على حقيقته !

وفى هذا التبلبل ، يقول الأخ الأستاذ يحيى نامق فى كتابه القيم « حبات المسبحة » ص ١٣ « إننا نلاحظ على الشباب فى هذه الأيام ، نوعا من الجحود والتمرد على كل ما له صفة « التدين » فما السبب ؟ هل لأن بعض المحافظين من رجال الدين يميلون إلى التعصب وعدم مسايرة كل جديد فى العلوم والفنون والآداب ؟ أم ترى أن كوارث الحروب من جهة واضطرابات الحياة الاقتصادية والاجتماعية من جهة أخرى ، ساعد على ذيوع الشك فى قدرة الدين على علاج المشاكل الحديثة ؟ أم أننا نفهم الدين والعبادة فهما خاطئا فنلقن أبناءنا أركان الدين قبل أن يفقهوا معنى الإيمان بالله ، الإيمان بالنور الشامل للسموات والأرض ... » !!

فالذى نريده من « التدين الحق » هو اطمئنان القلوب والثقة بالله سبحانه وتعالى وحب الخلق أجمعين ومداواة النفوس — وتجرع المداواة تدريجيا بالصبر والمعرفة — وتزكيتها والمحافظة على سلامتها وسلامة الأجسام والتطهير من مساوئ الحقد والبغض والحسد !

ولاريب فى أن أى مزعزع للاطمئنان ليس من الدين وكذلك أى مضعف للأجسام ليس منه كذلك ، كما أنه ليس منه إلا كل سمو ونبل وعظمة وتوقل إلى العلا ، ولا وصول إلى ذلك كله إلا بمعرفة الله ومراقبته وحبه وتوحيده سبحانه حق التوحيد وطرح كل شرك له سبحانه ظاهر أو خفى ، وطرح كل ما يدعو للانحلال والضعف فى الفكر أو الجسم أو الروح !

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

فهرس كتاب التدين الحق

« سبحانه الرحمن عز سناؤه وتباركت بين الورى أسماؤه
الله جل جلاله خلق الوجـو د ، فأرضه من خلقه وسماؤه
والنجم حين يسير وضاء : فمن رب الكواكب سيره وضياؤه
والزرع إن ينضج فرحته ، وإذ ينمـو فمنه زكاؤه ونماؤه
والنهر إذ يجرى فرانا سائغا فمن الذى ساق السحائب ماؤه
والطير إن غنى وطار : فقدرة عـلوية طيرانه وغنـاؤه
الله خالق كل شىء فى الحيا ة ، فكل ما يبدو بها أشياؤه
هو وحده متصرف فى ملكه والخير فيما شاءه ويشاؤه »

« الشيخ إبراهيم بديوى »

الموضـوع	الصفحة
الإهـــداء	٣
المقـدمة	٤
(١) الإسلام والتفكر فى خلق الله تعالى	٧
(٢) براءة الإســـلام من الوثنية والضعف والانحلال . . .	١٩
إدخال بعض الـكذابين فى الدين ، مبادىء وأحاديث كاذبة . . .	٢٠
عدم اهتمام الفقهاء ببحث حكمة بعض العبادات	٢١
أخذ الفأل من المصحف لا يجوز وكذا القسم على الله بشىء أو بإنسان لا يجوز	٢٥
استمرار بعض المسلمين فى جعل الخلاف فى الفروع من دواعى التفرق .	٢٦
استمرار بعض المسلمين فى استغفال البعض الآخر كقول بعضهم إذا نزل بك حادث فاستوحنى يكشف ما بك من الشدة	—
من جنس الشرك قول القائل إذا عثر ياجاه محمد ! يالست نفيسة ! أو ياسيدى الشيخ فلان أو نحو ذلك . .	٢٧

الموضـوع	الصفحة
خطأ ابن بشيش فى صلواته فى وصفه الذات المحمدية بأنها اللطيفة الأحدية مع أن الله تعالى يقول : « وما محمد إلا رسـول قد خلت من قبله الرسل »	٢٨
ومن الوثنيات القسم على الله بألفاظ غير مفهومة	—
حكم الأذكار الملحونة والمحرفة وضرب اللاوندى وما يفعله أرباب الطرق فى الموالد ورفة الرفاعى والبيومى ورفة الفار الخ	—
تزيين المتصوفة لأتباعهم ترك الاشتغال بأعمالهم	٣٤
جهل كثير من رؤساء الصوفية بأحكام الدين	٣٨
سيطرة المشايخ على مريديهم . .	٣٩
ذكر ما يعمد إليه رجال الصوفية من تعليم الشيخ مريديه شيئا من خواص أسماء الله الحسنى وتلاوتها مرات لأغراض غير العبادة	٤١

الموضوع	الصفحة
مايسميه بعض الصوفية من حمل بلايا الناس وتصريف من يموتهم أصحاب النوبة	٤٢
سوء فهم أغراض الدين أو فهم معانى الأحاديث ، ووجوب الأخذ بأمر النبى فى أمور الدين ، ولكن لايلزم الأخذ بشىء من آرائه الدنيوية كرأيه فى أمور المعالجة للأجسام . .	٤٥
النهى عن الرقى والتمائم وحمل الرقى على أنها خاصة بالرسول أو خاصة بالمقولة له	٤٨
غلط من انبسط فى دعوى المحبة .	٤٩
وقوع بعضهم فى بعض ما وقع فيه النصارى من دعوى المحبة لله مع مخالفة شريعته وإثباتهم للخاصة من المشاركة فى الله من جنس ما تثبته النصارى فى المسيح وأمه . .	٥١
كل محبة لا تكون لله فهى باطلة .	٥٤
إفساد الشهوات الخفية تحقيق محبة النفوس لله وعبوديتها واخلاص دينها .	٥٥
نقد مسالك رجال الصوفية فى صحبتهم الأحداث	٥٦
هل النظرة العابرة لجمال يرى، تعد عشقا أم تعد لهوا ؟	٥٩
حرمة النظر إلى وجه الأمرد لشهوة .	٦٠
حكم معاشرة المرد	٦١
مجادلة بعض الصوفية فى سخف هل فى الجنة إتيان الذكور أم لا ؟ . .	٦٢
الإسلام لا يكره الغنى . . .	٦٣
(٣) الإسلام والمعانى الجنسية .	٦٦
البول والغائط	—
الإختتان	٦٧
الغسل عند الجماع أو الاحتلام . .	—
حكم نقض الوضوء بلمس النساء .	٦٨
حكم كشف العورات . . .	٧٠
حكم الشرع فى النظر إلى الوجه والجسم .	٧٢
حكم الكلام مع الأجنبية . .	٧٣

الموضوع	الصفحة
حكم التفكير فيما لايحل . . .	٧٤
أسباب أزمة الزواج هو انحلال المعانى الأخلاقية فى النفوس . . .	٧٧
حكم الغناء	٧٨
(٤) المعاشرة والألفة والصحبة فى الإسلام	٨٠
حقوق الجار	٨٤
آفات وفوائد النكاح . . .	٨٥
رأينا فى معاملة غير المسلمين . .	٨٧
(٥) الإسلام وفعل الخير .	٩١
فضل الصدقة	٩٤
حسن معاملة الخدم والدواب . .	٩٨
الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .	١٠٠
قضاء حوائج المسلمين . . .	١٠١
نصر المسلمين	—
عدل الحاكم ونصحه من الدين . .	١٠٢
التمسك بالحق وأداء الواجب من الدين .	١٠٣
(٦) معرفة الله وتوحيده وحبه ومراقبته فى الإسلام . . .	١٠٨
معنى العبادة	—
معرفة الله تعالى	١١٢
توحيد الله والتوكل عليه . . .	١١٨
اطمئنان القلوب بالله ومع الله . .	١٢٣
(أ) معنى الظلم الذى حرمه الله — على نفسه	
(ب) الوسوسة	١٢٥
(ح) حد السؤال فى الأمور الدينية .	١٢٦
الأدب مع الله تعالى	١٢٧
معنى كون الله تعالى فى السماء . .	١٣٠
معنى نزول ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا .	—
معنى خلق الله آدم على صورته .	١٣٢
معنى السعيد من سعد فى بطن أمه .	١٣٤
كيف تزيد صلة الرحم فى الأجل المختوم	١٣٥
معنى أن الصدقة تدفع القضاء المبرم .	١٣٦

الموضوع	الصفحة
معنى لا يزنى الزانى وهو مؤمن	١٣٦
حب الله تعالى	١٣٧
مراقبة الله تعالى	١٤٠
النية ميل القلب إلى الخير وإرادته له	١٤١
الإخلاص لله	١٤٤
الصبر والشكر	١٤٦
يجب ألا يأكل الإنسان إلا حلالا طيبا	١٤٧
الرياء	١٤٨
التوبة	١٥٠
شروط صحة التوبة	١٥١
أروع مثل للتوبة فى الإسلام (توبة المخلفين)	١٥٢
(٧) روحانية الإسلام فى العبادات	١٦٢
روحانية الطهارة	—
روحانية الصلاة	١٦٣
روحانية الزكاة	—
روحانية الصوم	١٦٥
روحانية الحج	١٦٦
روحانية تلاوة القرآن الكريم	١٦٨
روحانية الذكر	١٦٩
أى العبادات أفضل ؟	١٧٢
الاقتصاد فى الأعمال	١٧٥
وبعد !	١٧٧
الأزياء قشور	١٧٨
أهم مراجع الكتاب	١٨٠

الإهداء

إلى أولادى

قال عليه الصلاة والسلام : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم » !

هذا كتاب ستجدونه فى مكتبتى بعد أن تكبروا ، يفهمكم أن والدكم كان يعيش بالحب وللحب ، وأنه كان يرى مخ كل الصلات الروحية حتى أسماها — وهى صلة العبد بربه — هو الحب ، وستكبرون إن شاء الله وستجدون فى الحياة مناقضات للحب ، من حسد وبغضاء وحقد ! فاعلموا أن والدكم كان يتغلب على هذه الصغائر ، وأنه كان يحب شانئيه ويحسن إلى مسيئيه ، وأنه كان ينتصر عليهم بالحب ، وأنه وإن كان يحب الجمال فى المعانى والصور . . ويتعشق اللغات الأجنبية ، ويلبس القبعة ، ويتردد على المسارح والسينما ، إلا أنه كان يقدم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف ، مؤمنا بحشر كل إنسان على صورته المعنوية ، لأن الصور فى هذا العالم كما يقول الغزالى غالبة على المعانى ، والمعانى باطنة فيها ، وفى الآخرة تتبع الصور المعانى !

وأرجو الله أن تحشروا يا أولادى ويحشر أبوكم معكم على خير الصور المعنوية التى تظهرها طهارة القلب وصفاء الروح !

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

منشية البكرى فى ٢٠ فبراير سنة ١٩٥٦

محمود على قراعة

المقـــدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله إقرارا بنعمته ، ولا إله إلا الله إخلاصا بوحدانيته ، وصلى الله على سيدنا محمد عبده ونبيه ورسوله وخير بريته ، وبعد :

فقد روى أن حاتما الأصم كان تلميذ الشقيق البلخى رحمهما الله ، فقال له يوما : يا حاتم ، منذ كم صحبتنى ؟ قال حاتم : منذ ثلاث وثلاثين سنة ! قال : فما تعلمت فى هذه المدة ؟ قال : ثمان مسائل ! قال شقيق : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ذهب عمرى معك ولم تتعلم إلا ثمان مسائل ، فما هى ؟ قال :

(الأولى) نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد يحب شيئا ، فلا يزال محبوبه معه فإذا ذهب إلى قبره ، فارقه ، فجعلت الحسنات محبوبى ، فإذا دخلت قبرى ، دخل محبوبى معى ! قال : أحسنت !

(الثانية) قال : نظرت فى قول الله عز وجل : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هى المأوى » فعلمت أنه قوله تعالى فأجهدت نفسى فى رفع الهوى حتى استقوت على طاعة الله تعالى !

(الثالثة) أنى نظرت إلى هذا الخلق ، فرأيت كل من معه شىء له قيمة وله عنده مقدار يحفظه ، ثم نظرت فى قول الله عز وجل : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » ، فكل ما وقع لى شىء له قيمة ومقدار ، وجهته إلى الله تعالى ليبقى لى عنده !

(الرابعة) نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يرجع إلى المال والحسب والشرف والنسب ، فنظرت فإذا هى لا شىء ، ثم نظرت إلى قوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، فعملت على التقوى حتى أكون عند الله كريما !

(الخامسة) نظرت إلى هذا الخلق ، فوجدت بعضهم يطعن فى بعض ، ويلعن بعضهم بعضا ، فعلمت أن أصل ذلك الحسد ، فنظرت إلى قوله تعالى : « نحن قد قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا » ، فتركت الحسد وعداوة الخلق وعلمت أن الذى قسم لى كائن ثم لا بد منه !

(السادسة) نظرت إلى هذا الخلق ، يبغى بعضهم على بعض ، ويعادى بعضهم بعضا ، فنظرت إلى عدوى فى الحقيقة فإذا هو الشيطان ، إذ قد قال الله تعالى : « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا » ، فعاديته ، وأحببت الناس أجمعين !

(السابعة) نظرت إلى الخلق ، فوجدتهم يطلبون هذه الكثرة ، ويذلون أنفسهم بسببها ، ثم نظرت إلى قوله تعالى : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » ، فعلمت أنى من جملة المرزوقين ، فاشتغلت بالله عز وجل وتركت ما سواه !

(الثامنة) نظرت إلى هذا الخلق ، فرأيتهم يتوكل بعضهم على بعض ، ويتكل هذا على تجارته ، وهذا على صنعته ، وهذا على صحة بدنه ، وكل مخلوق يتكل على مخلوق ، فرجعت إلى قوله عز وجل : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » فتوكلت على الله عز وجل !

قال شقيق : وفقك الله يا حاتم ... فلقد جمعت الأمور كلها !

وهذا كتاب يتحدث عن التدين الحق ، كما يفهمه مؤلفه ، وكما يعتقده ، وكما يؤمن به ، وهو لا يؤمن إلا بالحق ، لأنه موحد ولأنه مؤمن ، والإيمان لا يعرف الشرك الخفى ولا الشرك الظاهر ، وهذا كتاب يبغض فيه صاحبه النفاق الدينى والزيغ والزيف ، والميل للباطل المقنع بقناع الحق ، ويتهم فيه المنافقين الدينيين بالخروج على الدين الصحيح ، ويدعو إلى أن تكون حسناتك معك إذا دخلت إلى قبرك ، لأنها هى التى ستدخل معك ، لا مالك ولا جاهك ولا أهلك ، وإلى دفع الهوى ، وإلى توجيه كل ذى قيمة لله ليبقى عنده ،

وإلى أن تكون كريما عند الله بالتقوى ، وإلى حب الناس جميعا وحب هدايتهم ، وإلى الاشتغال بالله ، وإلى التوكل عليه سبحانه وحده ، وإلى التخلق بأخلاق القرآن ، بالتأدب بآدابه ، والتخلق بمحاسنه ، والالتزام بأوامره وزواجره ، إذ قال تعالى مكرما نبيه : « وإنك لعلى خلق عظيم » ، إذ المسلم الحق حسن الخلق لا يصدر منه مايسيء ، ويحب وطنه ،ويكون نظيفا فى جسمه وفكره ، وهو كما قال عليه الصلاة والسلام : « من سلم المسلمون من لسانه ويده[1] » ، والإسلام — كما قال عليه الصلاة والسلام أيضا — « أن تسلم قلبك لله ، ويسلم المسلمون من لسانك ويدك » .

وفقنا الله جميعا للخير ، وهدانا جميعا للإسلام الصحيح .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟ محمود على قراعة

(١) وقال أيضا : « أفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده ، قالوا : من المؤمن ؟ قال : من أمنه المؤمنون على أنفسهم ، قالوا : من المهاجر ؟ قال : من هجر السوء واجتنبه » .

الفصل الأول

الإسلام والتفكر فى خلق الله تعالى

« أيست من نفع نفسى لنفسى ، فكيف لا أيأس
من نفع غيرى لنفسى ، ورجوت الله لغيرى ،
فكيف لا أرجوه لنفسى » !

الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه

عنى فيلسوف الشرق أستاذنا المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى فى كتبه بتعريف الناس بالكون وبهجته ، حتى قال فى كتابه النظام والإسلام: « لقد حدا بى شدة ولوعى وشوقى لمعرفة الكون أن جعلت أوقات الرياضة لصرف عنان الفكر للتأمل فى مصنوعات الله جل وعلا ، مؤثرا تلك اللذة على ما سواها بالطبع والغريزة ، فكنت إذا هبت النسمات فى الخلوات أو بين أغصان الأشجار أو غردت الأطيار ، وسمعت خرير ماء الأنهار ، تمثل لى من تلك الأصوات وتجلى من مباهج تلك الأكوان بهجة العالم وحكمة المبدع بأظهر مجلى وأبدع معنى »[1] .

ويقول : « الله أكبر ، قهر عظيم لنفوس هذا النوع الإنسانى ، وإلهام كأنه ألقى فى روع كل نسمة أن العالم هو الحياة فادعاه كل وإن جهله ، ويا للعجب أعلى الأبصار غشاوة ، أم فى الأسماع وقر ، أم القلوب غلف ، أم أزيل الغطاء عنها ؟ ولكن جعل من بين أيديهم سد الشهوات ومن خلفهم سد سوء العادات ، أم هى ظلمات بعضها فوق بعض ، أم هو موج الأهواء من فوقه موج الأهوال ، من فوقه سحب الظلم ، ظلمات بعضها فوق بعض أحاطت بهذا النوع من كل جانب حتى إذا التفت إلى فطرته التفاتة لم يكد يراها ، ولكن الأنبياء

---

(١) راجع النظام والإسلام ص ٥ للشيخ طنطاوى جوهرى .

والمرسلين والحكماء المخلصين نور من الله ليكشفوا الظلمات ويرفعوا سد العادات ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور »[1] .

وحاصل حقيقة التفكر كما يقول الغزالى يرجع إلى إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة ثالثة ، وأما ثمرة الفكر فهى العلوم والأحوال والأعمال ، ولكن ثمرته الخاصة العلم لا غير ، فإذا حصل العلم فى القلب تغير ، وإذا تغير حال القلب ، تغيرت أعمال الجوارح ، وذكر القلب خير من أعمال الجوارح ، ولذا قيل تفكر ساعة خير من عبادة سنة .

والفكر هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها ، وقد يجرى فى أمر يتعلق بالدين أى فى المعاملة بين العبد وبين الرب ، وقد يجرى فيما يتعلق بغير الدين ، وجميع أفكار العبد الدينية إما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله ، وإما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله ، ومحب الله تعالى ينبغى أن لا يعدو نظره وتفكيره محبوبه ، وتفكره محصور فى أقسام :

١ — تفكر فى صفات نفسه ليميز المحبوب منها (من المحبوب) عن المكروه ، وكل ما هو مكروه عند الله أو محبوب ينقسم إلى ظاهر كالطاعات والمعاصى التى تتعلق بالبدن وأعضائه ، وإلى باطن كالصفات المنجيات والمهلكات التى محلها القلب ، ويجب فى كل واحد من المكاره التفكر فى ثلاثة أمور : التفكر فى أنه هل هو مكروه عند الله أم لا ، فإن كان مكروها فما هو طريق الاحتراز عنه ، وهل هو متصف بهذا المكروه فى الحال أو هو متعرض له فى الاستقبال فيحترز عنه ، أو قارفه فيما مضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه ، وبعكس ذلك يكون التفكر فى المحبوبات ليعمر القلب بالأخلاق المحمودة وينزه الباطن والظاهر .

٢ — التفكر فى جلال الله ، وفيه مقامان : التفكر فى ذاته وصفاته ومعانى أسمائه ، وهذا ممنوع منه حيث قيل تفكروا فى خلق الله تعالى ولا تتفكروا فى ذات الله ، لأن العقول تتحير فيه ، فلا يطيق مد البصر إليه إلا الصديقون

(١) راجع النظام والإسلام ص ١٦ للشيخ طنطاوى جوهرى .

ثم لا يطيقون دوام النظر ، أما النظر الثانى فهو النظر فى أفعاله وبدائع أمره فى خلقه ، وكل ما فى الوجود سماسوى الله فهو فعله ، وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف فيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمته وجلاله وعظمته ، إذ فى مشاهدة آيات الله فى أرضه فوائد للمستبصر ، وما من ذرة فى السموات والأرض إلا ولها أنواع شاهدات لله تعالى بالوحدانية هى توحيدها ، وأنواع شاهدات لصانعها بالتقدس هى تسبيحها ، ولكن لا يفقهون تسبيحها لأنهم لم يسافروا من مضيق سمع الظاهر إلى فضاء سمع الباطن ، ومن ركاكة لسان المقال إلى فصاحة لسان الحال ، ومن يسافر ليستقرىء هذه الشهادات من الأسطر المكتوبة بالخطوط الإلهية على صفحات الجمادات ، لم يطل سفره بالبدن ، بل يستقر فى موضع ويفرغ قلبه للتمتع بسماع نغمات التسبيحات من آحاد الذرات ، ! ومن آيات الله التى ذكرها الغزالى :

١ — خلق الإنسان من نطفة ، فقد قال تعالى : «وفى أنفسكم أفلا تبصرون» وقال : « قتل الإنسان ما أكفره ! من أى شىء خلقه ؟! من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره » . والإنسان مأمور بالتدبر فى نفسه وفى إنعام الله عليه « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » وأنه معه « وهو معكم أينما كنتم » فإن التفكر فى ذلك يحمله على الحياء من الله « والله بما تعملون بصير » .

٢ — ومن آياته أن خلق الأرض فراشا ومهادا وسلك فيها سبلا فجاجا وجعلها ذلولا لتمشوا فى مناكبها وأرسى فيها الجبال أوتادا لها تمنعها من أن تميد وإذا أنزل عليها المـــاء اهتزت وربت واخضرت وأنبتت عجائب النبات وخرجت منها أصناف الحيوانات ، وأودع المياه تحتها ففجر العيون وأسال الأنهار تجرى على وجهها ، وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقا عذبا صافيا زلالا ، وجعل به كل شىء حى فأخرج به فنون الأشجار والنبات مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات والأرايح والطبائع والتعهد والمنافع .

٣ — ومن آياته الجواهر المودعة تحت الجبال والمعادن الحاصلة من الأرض .

٤ — ومن آياته أصناف الحيوانات وانقسامها إلى ما يطير وإلى ما يمشى وانقسام ما يمشى إلى ما يمشى على رجلين وإلى ما يمشى على أربع وعلى عشر وعلى مائة كما يشاهد فى بعض الحشرات ، ثم انقسامها فى المنافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع .

٥ — ومن آياته البحار العميقة المكتنفة الأقطار وسعتها وعجائب ما فيها من الحيوانات والجواهر .

٦ — ومن آياته الهواء اللطيف المحبوس بين مقعر السماء ومحدب الأرض ولايدرك بحس اللمس عند هبوب الرياح جسمه ولايرى بالعين شخصه وجملته .

٧ — ومن آياته ملكوت السماء وما فيها من الكواكب إذ قال تعالى : « أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها » وقال تعالى : « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء » أى أولم ينظروا إلى ما خلق الله فيهما من شيء ليستدلوا على وحدانيته[1] .

هذا ولقد ضرب أستاذنا المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى أمثلة للعلم والإسلام والنظام ، نلخصها ونبسطها فيما يلى :

١ — انظر إلى النبات المسمى بلغة العامة النخل الافرنجى وهو من الفصيلة الزنبقية فتجد أزهاره مرتفعة قليلا على سوق جميلة لها ست أوراق كأنها تاج على رأس ملك ، بيضاوية الشكل مستطيلة جدا ، ناصعة البياض كأنها استعارت لونها من القمر ، بينها فرج متساوية المقادير داخلها ست أنابيب دقيقة ظريفة بيض أسافلها حمر أعاليها ، كل أنبوبة أمام ورقة كأنها لباسها . وتذكر قوله تعالى « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » ، وقوله : « الذى أحسن كل شيء خلقه » ، وقوله : « وكل شيء عنده بمقدار » .

(١) راجع ص ١٣٩ — ١٤٧ من الثقافة الروحية من كتاب أحياء علوم الدين للغزالى لمحمود على قراءة .

٢ — وإذا تأملت فى وسط أعضاء الذكور فى هذه الزهرة ، فإنك ترى أنبوبة فى وسط تلك الدائرة وهى عضو التأنيث وسط أعضاء التذكير تستقبل بها الطلع وهى مادة اللقاح التى خلقت فى تلك الأعضاء الستة المحيطة بها ، فتأخذه وتنزله إلى أسفل فى جوفها مع الدقة الغريبة والحكمة العجيبة ، ثم كيف وضع محل الإناث فى وسط الدائرة وكيف جعلت فيها منافذ كثيرة لاترى إلا بالمنظار المعظم لتقبل مادة الطلع ويخلق فيها الحب ، وكيف جعل الذكور خلف الإناث يحافظون عليهن لأنهن يحافظن على مابه بقاء النوع « صنع الله الذى أتقن كل شىء » .

٣ — كم من قارىء فنون العلوم وهو عنها غافل « كم من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » فما أحسن صنع الله وما أجل اتقانه « أمن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء ، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، أإله مع الله ، بل هم قوم يعدلون » « وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ، يقلب الله الليل والنهار ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » ، وقال تعالى فى الذكور والإناث فى النبات « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » وأشار إلى الريح ملقحة بقوله : « وأرسلنا الرياح لواقح » ، وقال فى الأزواج : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » ، وقال « أنبتنا فيها من كل شىء موزون » فالنبات رتبت أوراقه وأزهاره وأشكاله وظلاله ، حتى أنك ترى ظل الشجر يتحرك تبع الشمس وهى تجرى بنظام وحساب متقن عجيب ، فهكذا ترى الظل تابعا لها حتى جعل للظل عناية واهتمام فى الفلك ، وناهيك بالمزاول الأفقية والمنحرفة والرأسية ، وكيف تعرف بها الساعات والدقائق والثوانى بنظام عجيب ، فهذا كله وزن معنوى سرى فى كل شىء « وكل شىء عنده بمقدار » « والسماء رفعها ووضع الميزان » « فتبارك الله أحسن الخالقين » « وفى الأرض آيات للموقنين » .

٤ — أما نظام الفلك وأن الشمس والقمر والكواكب بحساب كما فى النبات ومقاديره ، فذكرت مرات كثيرة فى القرآن الكريم لقوله تعالى « والشمس والقمر بحسبان » « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم » فذكر التقدير وهو معلوم فى الفلك « والقمر قدرناه منازل » « فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم » وأشار إلى ما هو أدق فقال « وما يعزب عن ربك مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » « إن الله سريع الحساب » « وهو أسرع الحاسبين » وقوله « وكل شىء عنده بمقدار » يدخل فيها علم الكيمياء والطبيعة والفلك ، فهذه كلها محـــدودة كمقادير الأوكسيجين والايدروجين فى الماء .

٥ — لا يحتج بالقضاء والقدر إلا الخاملون الضعفاء من كل أمة انحط مجدها ودك شامخ سعدها ، والقرآن الكريم أول رادع لهؤلاء وموبخ لهم « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء » فيرد عليهم بقوله « وكذلك فعل الذين من قبلهم فهل على على الرسل إلا البلاغ المبين » تهديد لهم وابداء أن الحجج ظاهرة على ألسنة الرسل « وسيقول الذين أشركوا ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء » وكذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ، قل فلله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين » وفيما ذكره التنزيل « وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله ، قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ، إن أنتم إلا فى ضلال مبين » فأجابهم بالتهديد بالصيحة التى تأخذهم وهم يختصمون ، ويتجادلون بالباطل فيما لا يفيد « وما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون » وهذا كما روى أنه صلى الله عليه وسلم دخل مرة على على وفاطمة رضى الله عنهما ، فقال هل أنتما تقومان الليل ؟ فقال سيدنا على إن أرواحنا بيد الله إن شاء أيقظها وإن شاء أمسكها ! فضرب صلى الله عليه وسلم بيده على فخذه

وقال : « وكان الإنسان أكثر شيء جدلا » يشير إلى أن هذا الجدال لافائدة فيه واحتجاج ضعيف « وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » ومالهم بذلك من علم « لأن نظرهم سطحي وقياسهم مدخول فيه « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا» فقد ظهر الفساد من عامتنا وخاصتنا حتى صدقوا الكذابين وضعفاء العقول والدجالين وعلماء الفنون في غير ما يعرفون .

والمسلم الحق يجب إن يعتقد بعقيدة القدر ويعمل في آن واحد ، فقد قال تعالى : « فإذا عزمت فتوكل » وفي الحديث « اعقلها وتوكل » فالتوكل ندب بعد العزم والأخذ بالأسباب المقتضية له[1] ، فأنا كمسلم أحاول أن أكون مسلما صحيح الإسلام مؤمنا صادق الإيمان ، لا تهمني المناقشة البيزنطية في نصرة رأي عن رأي ، وإنما يهمني أن آخذ بالأسباب وأن أجعل توكلي بعد أخذي بالأسباب على الله الذي وفقني للأخذ بها ، فالطالب مطالب بالاستذكار للامتحان وأخذه بالأسباب أن يستذكر دروسه ، والصانع يأخذ بالأسباب بأن يعمل في صناعته ، والعامل يأخذ بالأسباب بأن يجد في عمله ، وأما نجاحه وتوفيقه فليس له بل لله الذي إن شاء وفقه وإن شاء لم يوفقه ، لحكمة تخفى على العبد ، وليس له أن يطلب تفسير الأمر فوق إدراكه .

٦ — قرن القرآن الكريم القيامة بجعل الإناث والثمر في الأكمام ، « إليه يرد علم الساعة ، وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه » استدل بالترقي في الوجود والنشأة على نمو الأرواح بعد الموت ، وتشابه النشأتين « يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث ، فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم » إلى أن قال : « وإن الساعة آتية لا ريب فيها » فجعل عالم الأرواح كعالم الأجساد ، وأنه يصور

---

(١) ذهبت فرقة من المسلمين إلى أن الإنسان له اختيار ، وذهبت أخرى إلى أنه مجبر ، وذهبت ثالثة إلى أنه مختار جزءاً ، ولكل أدلة أخذ بظاهرها .

الروح كيفما يريد بعد هذا العالم . أثبت أن لكل شيء خلاصة وثمرة وإلا كان وجوده عبثا ، أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ، أفرأيتم ما تحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون ، إنا لمغرمون بل نحن محرومون ، أفرأيتم الماء الذى تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ، أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ، ، فالزرع والماء والنار لم تكن إلا لغاية فهكذا فليكن الإنسان له غاية وهى نفسه الباقية فى النشأة الأخرى ، وأكد هذا بقوله ، نحن خلقناكم فلولا تصدقون ، كل هذا فى سورة الواقعة ، وأصرح من هذا قوله فى سورة يس ، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم توقدون ، وفى هذا رمز غريب جدا ، إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا ، ، ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، .

٧ — جسم الإنسان خلاصة الأغذية والأمزجة المحيطة به ، فهكذا عقله خلاصة الآراء والأفكار والعلوم والمحدقين به من الأصدقاء والخلان ، وهو ينمو كما ينمو النبات والحيوان ويترقى بحسب ما يتغذى به وتختلف نهايته باختلاف ما نشأ عليه كثمار النباتات وبهذا يكون موزونا كما اتزن عالم النبات والحيوان ، ويكون جزاؤه موزونا بميزان كما عليه كل نبات وحيوان فى أن نهايته على حسب بدايته ، والوزن يومئذ الحق ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون ، ، ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ، ، ، الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ، ، ، ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ، .

وشأن الإيمان إذا كان على علم أن يثبت كما ثبت إيمان سحرة فرعون بموسى إذ كانوا علماء بالسحر وجاء بما هو أعلى منه ولم تحط به علومهم ، وشأن المقلد أن يتزلزل يقينه كما فى بنى إسرائيل آمنوا تقليدا فلما جاوزوا البحر « قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون ، إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ، قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين » .

٨ — قال تعالى: « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ، ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا » ، « وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا » ، « وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا » ، « لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا » ، « ولقد صرفناه بينها ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا » .

فانظر كيف أبان فى الجملتين الأوليين فوائد ضوء الشمس والأخريين فوائد الحرارة بأوجز عبارة وأحسن ترتيب ، أما قوله: « وأنزلنا من السماء ماء طهورا » فيفيد أنه كما به تكون حياة الجسم تكون طهارة البدن لتتجه الروح إلى مدبر الكون وتعرفه ، وهذا من الكنايات اللطيفة والرموز العجيبة المندمجة أثناء ذكر هذه النعم ، فكأنها ذكرت لتحمل على الطهارة فالعبادة فالمعرفة وهى المقصودة من الحياة ، ثم إن أكثر الناس لا يعلمون لماذا خلقوا وما رباط الجسم بالروح ، فنسوا تصريف الماء بين ملح أجاج تارة وعذب فرات أخرى وتطوره وتشكله بأشكال مختلفة فى باطن الأرض وظاهرها من أنواع المياه المعدنية والأنهار والبحار واختلاف الطعوم اختلافا كثيرا وما يتبع ذلك من المنافع وهكذا تفننه فى الثلج والسيولة والتبخر « ولقد صرفناه بينهم ، فأبى أكثر الناس إلا كفورا » .

فالقرآن جمع بين مطالب الروح والجسد أو الدين والدنيا أو العلم والعمل أو الأدبيات والماديات ، فانظر كيف ترى توصيفه لمحاسن الطبيعة وما فى الكون

من علوم لتتحلى النفوس بكمالها وتسعى لمطالبات الحيـاة وتسعد سعادتى الدنيا والدين .

٩ — قست القلوب فأصبحنا لا نعرف من الصلاة إلا مجرد الرسم والإسم ولا من الذكر إلا اللفظ ولا من العلم إلا القول ولم ننظر لماذا وضعت وما غايتها حتى أصبحت الصلاة لا تنهى عن الفحشاء والمنكر لعدم ممازجتها النفوس وهكذا قراءة علوم الآلات والمقاصد وهكذا القرآن يقرأ ولا تفكر فيه ولا تدبر ، وكم ندد الله على بنى إسرائيل فى ذلك كقوله تعالى : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون » .

١٠ — ليس الإنسان ما نراه من شكل ظاهر وما نعلمه من أعضاء باطنة إذ كثيراً ما يعبر الإنسان عن نفسه بأنا وهو غافل عن شخصه الجسمانى ، فمرجع الضمير والأنانية إنما هو أمر مغاير للجسمية مفارق للمـادة ، ألا وهو تلك اللطيفة الهابطة من عالم مسيطر فوق عالمنا المادى مهيمن عليه تتصرف فى الجسم بحسب ما يبدو لها من صلاح أو فساد ، لها اتصال بمبدعها تحس فى كل آن بأن هناك سلطانا قاهرا فوقها قادراً على أن يوليها سعادة أو شقاء ، إحساساً فطريا لا يغادرها ، وتلك اللطيفة هى الروح ، وما أدراك ما الروح ، سر من عالم الإبداع تنزل من عرش عظمته إلى حضيض العناصر المتركبة ، ومهما انتقش فى لوحها من عقائد وعبارات وأخلاق منسوبة إلى ذلك القـاهر ، أذعنت له ، ودوام ذلك الانتقاش من مبدأ الطفولية إلى الأجل المحدود ، ولذا كانت رابطة الدين أقوى مؤثر فى النفوس لأنهـا أحرزت الشرفين وهما اتصال سندها بمبدع الكائنات ودوامها إلى آخر العمر .

١١ — اطلع الغربيون على سر الكون وحوادثه فاستفادوا منه ما جهلناه من توالى الحوادث علينا وجهلنا ، فاستنتجوا هذه القواعد :

(١) الجديد يبيد القديم . (٢) الطبيعة تستبق الأحسن .

(٣) الانتخاب سنة فى الكون .

(٤) الفروع ترث الأصول .

فهذا اعتبار الغربيين لعلم الطبيعة ، فانظر كيف أثر على عقولهم حتى امتزجت هذه العقيدة بدمائهم فصارت طبيعة لازمة لهم حتى صارت أعمالهم تضارع سنة الكون فسارعوا إلى الأخذ بالأحسن فى كل شىء ، هذا هو الذى هدى إليه القرآن تارة صريحا وأخرى تلويحا وآونة اعتبارا فقال فى الأولى : « فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » ، والقول فى الآية يشمل أمور الدين والدنيا جميعا ، فانظر كيف بشرهم أولا وجعلهم من أولى الألباب آخرا ، وقال فى الثانية : « وقل سيروا فى الأرض فانظروا » ، « أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا » ، « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » ، وقال فى الثالثة : « وكم من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » ، « وأنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون » ، « وسكنتم مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال » ، « ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون » ، « ولقد تركنا فيها آية بينة لقوم يعقلون » .

١٢ — علم الموسيقى يأتى بعد جميع العلوم من الإلهيات والطبيعيات والرياضيات إذ هو المعبر عن نهاية جمال الطبيعة وحكم الخالق عز وجل ، وكأن الكرة الأرضية وهى تزف حول الشمس — والأصوات الموسيقيات تزفها صباح مساء — عروس تجلت فى حلالها ، ولما عجزت عن النطق والإفصاح عما تستعد له من التحليل والتركيب والتصوير والبدائع على دوام الدهور والعصور الذى لا نهاية له ولا غاية لمداه ، أرادت أن تفهمك ذلك بتلك الأصوات ، وأن فيها من العجائب ما لا يقدر على حصره اللسان ، وإذاً يصدق عليها قول بعض الحكماء : « إن النغم فضل بقى من النطق عجزت النفس عن استخراجه بالكلام فأبرزته بالصوت » ، فهكذا الكرة الأرضية أجمعها استعدت لما لا يتناهى من الصور والأشكال فأبرزته فى قالب حفيف الأشجار وخرير الأنهار ونغم الموسيقار .

إذا فهمت ما تلوناه عليك وأصغيت بقلبك إليه ، وأن بين عالم الأصوات ونغماته والعناصر وتركيبها تناسباً هندسيا واحدا لولاه ما تناسبت الصور ولا النغمات ، عرفت قول حكيم اليونان: « العالم موسيقى » ، وهذا القول لا يفهمه إلا دارسو العلوم « قل بفضل الله وبرحمته ، فبذلك فليفرحوا ، وهو خير مما يجمعون »[1] .

ولقد نقل ابن الجوزى فى روضة المشتاق عن بعض السادة أنه قال : ثمان خلال من لم يحرم فعلها ، لم يحرم حق المجازاة عليها ، من وفق للتوبة لم يحرم القبول « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده » ، ومن وفق للمجاهدة لم يحرم الهداية « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » ، ومن وفق للصبر لم يحرم الجزاء « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » ، ومن وفق للتوكل لم يحرم الكفاية « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » ، ومن وفق للاسترجاع لم يحرم الرحمة « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة » ، ومن وفق للتقوى لم يحرم المخرج من الشدائد « ومن يتق الله يجعل له مخرجا » ، ومن وفق للدعاء لم يحرم الاجابة « ادعونى أستجب لكم » ، ومن وفق للشكر لم يحرم المزيد « لئن شكرتم لأزيدنكم » .

فنرجو الله قبولنا بالتفكر فى خلقه ، ورحمتنا بهدايتنا لشكره وتقواه والتوكل عليه ومجاهدة النفس والصبر لها وعليها !

(١) راجع ٢٤ و ٢٥ و ٢٦ — ٢٨ و ٢٩ — ٣٢ و ٣٦ و ٤٣ — ٤٦ و ٥٤ — ٥٨ و ٦٠ — ٦٤ و ٨٣ و ٨٩ و ١٠٤ — ١٠٦ و ١٩٧ من كتاب النظام والإسلام لأستاذنا المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى .

الفصل الثانى

براءة الإسلام من الوثنية والضعف والانحلال

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها
فباعوا النفوس ولم يربحوا ولم تغل فى البيع أثمانها
لقد رتع القوم فى جيفة يبين لذى العقل أنتانها
ابن المبارك

من الكلمات المأثورة عن السيد جمال الدين الأفغانى أن القرآن وحده كاف لرفع البشر إلى أرقى مقام من العلم والعرفان والفضائل والحضارة ، لو أن شعبا وحده على صخرة فى جزيرة بالبحر ولم ير غيره ، ليس معنى هذا أن فيه مسائل جميع العلوم والفنون التى يرقى بها البشر ، إنما معناه أنه يصلح العقول والأنفس ويدفعها بهدايته إلى طلب هذا الكمال !

وكتب إلى المرحوم السيد رشيد رضا صاحب المنار صديقه المرحوم الشيخ عبد القادر المغربى من الاستانة أيام كان السيد جمال الدين فيها ، أنه زاره فكان مما سمعه منه أنه ليس بين أوربا وبين القرآن من حجاب يمنعهم من الاهتداء به إلا نحن معاشر المسلمين ، وقال إنه رفع كفيه ووضعهما أمام وجهه وفرج بين أصابعه وقال : ينظرون إلينا من خلال القرآن هكذا فيرون وراءه شعوبا قد فشا فيها الجهل والفقر والكسل و . . . و . . . فيقولون لولا أن تعاليمه باطلة لما كان أتباعه بهذه الدركة من الانحطاط ، فإذا أردنا أن نهديهم إلى الإسلام فلنقنعهم أولا أننا لسنا مسلمين[1] .

وتوجد أشياء تنسب إلى الإسلام زورا تدعو للضعف والانحلال ، والإسلام منها برىء ، منها :

(١) راجع كلمة المرحوم السيد رشيد رضا فى أهرام ٢١ مارس سنة ١٩٢٣ .

١ — إدخال بعض الكذابين فى الدين جملة مبادىء وأحاديث تثبط الهمم عن السعى سواء فى المنفعة الشخصية أو العمومية مثل قوله « المؤمن مصاب » والفقير فى الدنيا غنى فى الآخرة وأكثر سكان الجنة البله والرزق كالظل إن سعيت وراءه يهرب منك وإن تركته تبعك ونحو ذلك ، وهذا كما يرى أصحاب الإرشاد كله خطأ عظيم ، والحق هو ما ورد فى القرآن الكريم من أنه ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ، وأما ماجاء فى القرآن الكريم من آيات التوكل مثل قوله تعالى « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » أو قوله تعالى « إن الله يحب المتوكلين » فلا ينافى ذلك ، ومعناه أن الإنسان مهما سعى أو ترك السعى أو تحرك أو سكن ، فأمره فى النجاح والخيبة موكول إلى الله تعالى ، فهو يسعى موجها وجهه إلى الله متوكلا عليه مسلما أمره إليه طالبا منه التوفيق والنجاح ، وهو مما يزيده إقداما فى سعيه ، ولهذا جاء « فإن عزمت فتوكل على الله » فالتوكل بعد العزم .

ومن علامات الأحاديث الموضوعة : المجازفات التى لا يقولها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم والأشياء التى تنكرها بداهة العقل ، ومنها سماجة الكلام وأنه فيما يسخر منه كأحاديث الأرز والباذنجان ونحوهما التى لا تليق إلا بفقهاء الريف ، ومنها مخالفته لفحوى القرآن كحديث مقدار الدنيا ، ومنها ركة الألفاظ وركة المعنى كمن صلى كذا فله كذا فى الجنة سبعون دارا فى كل دار سبعون ألف بيت !

وشر الكذب الكذب على الله ورسوله ، ومن الكتب المشحونة بالموضوعات والخرافات — كما ذكرها أصحاب الإرشاد — كتاب نزهة المجالس وكتاب تنبيه الغافلين وكتاب الجامع الصغير للسيوطى وكتاب الحيوان للدميرى وكتاب قصص الأنبياء للثعالبى وكتاب المستطرف وكتاب نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار وكتاب أخبار الأنبياء وكتاب خريدة العجائب وكتاب الروض الفائق فى المواعظ وكتاب فتوح الشام للواقدى ، والأحاديث الواردة فى الملاحم موضوعة ، وما ينسب لكثير من الصوفية فى تفسير القرآن

والحديث وتأويل معانيه — لا بظاهر ألفاظه بل بما يدعون من معانيه — هو خلط وتحريف وتخريف ، وأغلب ما ينقله القصاص المسمون بالوعاظ هو موضوع وكذب ، ولذا ألف السيوطى كتابا سماه تحذير الخواص من أكاذيب القصاص .

٢ — عدم اهتمام الفقهاء ببحث حكمة بعض العبادات وكيفية إيصالها إلى التقوى المقصودة للشارع منها ، فهم لا يحفلون بها بل لا يكادون يذكرونها ، فمثلا فى الصيام يملأون الصحائف بالدقائق النادرة التى لا علاقة لها بحكمة مشروعية الصيام ويبحثون فى الغبار الذى يدخل الأنف فى الطريق وفى وضع الخلال فى الأذن ، ويكثرون من الكلام عن الاستنجاء ، بل منهم من يذهب إلى عملية طويلة تقتضى القعود للاستنجاء موضعا آخر وذكر أدعية قبل كشف العورة مرة ثانية وبعدها ، مع أن الضرورات العملية تقتضى سرعة الانتهاء منها ، وأنه لا يجوز ذكر اسم الله تعالى فى هذه الأماكن تنزيها له سبحانه وتقديسا[1] .

والقليل من الفقهاء من يعنى ببحث ما قد يعرض للمتعبدين من خواطر ، فمثلا لماذا يذكر ابراهيم فى التشهد فى الصلاة ؟ اختار ابن تيمية فى سبب ذكر ابراهيم أن يقال محمد هو من آل ابراهيم كما روى على بن طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى : « إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين » ، أن محمدا من آل ابراهيم ، وهذا بين فإنه إذا دخل غيره من الأنبياء فى آل ابراهيم فهو أحق بالدخول فيهم فيكون قولنا كما صليت على آل ابراهيم متناولا للصلاة عليه وعلى سائر النبيين من ذرية آل ابراهيم ، وقد قال تعالى : « وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب » ثم أمرنا أن نصلى على محمد وعلى آل محمد خصوصا بقدر ما صلينا عليه مع سائر آل ابراهيم عموما ، ثم لأهل بيته من

(١) راجع ص ٥٦ و ٢٦٣ و ٦٣٧ من كتاب الارشاد لبعض العلماء وص ٢٤٢ و ٢٤٣ من وحى الأحاديث المحمدية الجزء الثانى لمحمود على قراعة . هذا وقد ذكرنا فى الجزء الأول ص ١١٢ أن النبى الكريم كان يقول إذا خرج من الخلاء : غفرانك ! استغفاراً من اغفال الذكر فى هذه الأماكن ، ويقول الحمد لله الذى أبعد عنى الأذى وعافانى !

ذلك ما يليق بهم والباقى له ، فيطلب له من هذا الأمر العظيم . ومعلوم أن هذا أمر عظيم يحصل له به أعظم مما لابراهيم وغيره ، فإنه إذا كان المطلوب بالدعاء إنما هو مثل المشبه به وله نصيب وافر من المشبه وله أكثر المطلوب ، صار له من المشبه وحده أكثر مما لابراهيم وغيره ، وإن كان جملة المطلوب مثل المشبه إنضاف إلى ذلك ماله من المشبه به فظهر بهذا من فضله على كل من النبيين ما هو اللائق به صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا[١] .

وتظهر مثلا حكمة الطواف فى الحديث المروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : قدم النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكة وقد وهنتهم[٢] حمى يثرب فقال المشركون إنه يقدم عليكم غدا قوم قد وهنتهم الحمى ولقوا منها شدة ، فجلسوا مما يلى الحجر وأمرهم النبى صلى الله عليه وسلم أن يرملوا ثلاثة أشواط[٣] ويمشوا بين الركنين ليرى المشركين جلدهم ، فقال المشركون هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم وهؤلاء أجلد من كذا وكذا ، قال ابن عباس : ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا بقاء عليهم[٤] ، وعن ابن عمر

(١) راجع ص ١٦٥ من فتاوى ابن تيمية م١ وص ٥٢٦ — ٥٢٨ وحى الأحاديث المحمدية لمحمود على قراءة الجزء الثانى .

(٢) أضعفتهم .

(٣) الرمل بفتح الراء والميم : سرعة المشى والهرولة . وإنى لأذكر هنا حذلقة أحد المتفرنجين من أساتذتى الذين سافروا إلى أوربا وقوله لنا نحن الطلبة — وقد كنا فى المدارس الثانوية إذ ذاك — أن الهرولة (لحسة) لخز فى نفسى قوله وحفظتها له وشاء السميع العليم أن يصاب هذا الأستاذ بحب أحد زملائنا الجامعيين فكان يطوف بالجامعة وبالجمعية الجغرافية وبكل الأماكن التى يتردد عليها ليحظى بلقائه !

والأشواط جمع شوط والمراد به المرة من الطواف بالبيت .

(٤) أخرجه الخمسة زاد البخارى فى رواية أرملوا ليرى المشركين قوتهم وفى أخرى إنما سعى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبيت وبين الصفا والمروة ليرى المشركين قوته ، وفى أخرى لأبى داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اضطبع فاستلم وكبر ثم رمل ثلاثة أطواف ، فكانوا إذا بلغوا الركن اليمانى وتغيبوا عن قريش مشوا ثم يطلعون عليهم يرملون فتقول قريش كأنهم الغزلان قال ابن عباس فكانت سنة . راجع ص ٢٦٠ تيسير الوصول الجزء الأول للشيبانى ويقول الشيبانى إن الاضطباع فى الطواف أن يدخل الرجل الرداء من تحت ابطه الأيمن ويجمع طرفيه على عاتقه الأيسر ومنكبه الأيمن ويتغطى الأيسر ، سمى بذلك لابداء الضبعين وهما من تحت الأبط .

رضى الله عنهما ، قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استلم الركن الأسود أول ما يطوف يخب[١] ثلاثة أطواف من السبع .

ولماذا يقبل الحجر الأسود ويستلم ؟ عن عابس بن ربيعة ، قال : رأيت عمر رضى الله عنه يقبل الحجر ويقول إنى لأعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك ، وأنكر بعضهم أن يكون الحجر الأسود من الجنة وأنه كان أشد بياضا من الثلج حتى سودته خطايا أهل الشرك ، كما جاء فى حديث حماد بن سلمة ، فرد عليهم ابن قتيبة بما خلاصته : وأما قولهم هل فى الجنة حجارة فما الذى أنكروه من أن يكون فى الجنة حجارة وفيها الياقوت وهو حجر والزمرد حجر والذهب والفضة من الحجارة ، وما الذى أنكروه من تفضيل الله تعالى حجرا حتى لثم واستلم ؟ والله تعالى يستعبد عباده بما شاء من العمل والقول ويفضل بعض ما خلق على بعض ، وأما قولهم إن كانت الخطايا سودته فقد يجب أن يبيض لما أسلم الناس ، فمن أوجب أن يبيض باسلام الناس ، ولو شاء الله تعالى لفعل ذلك من غير أن يجب ! واعترضوا على حديث ابن عباس أن الحجر الأسود يمين الله تعالى فى الأرض يصافح بها من شاء من خلقه ، فرد عليهم ابن قتيبة أن هذا تمثيل وتشبيه ، وأصله أن الملك كان إذا صافح رجلا قبل الرجل يده ، فكان الحجر لله تعالى بمنزلة اليمين للملك تستلم وتلثم ، وأن عائشة رضى الله عنها قالت : إن الله تبارك وتعالى حين أخذ الميثاق من بنى آدم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم : قالوا : بلى ، جعل ذلك فى الحجر الأسود ، وقال أما سمعتم إذا استلموه[٢] يقولون إيماناً بك ووفاء بعهدك — أى قد وفينا لعهدك أنت ربنا ، وذلك أن الجاهلية قد استلموه وكانوا مشركين ، لم يستلموه بحقه لأنهم كانوا كفارا ، والمقصود به الطاعة لا التشبيه ، تعالى الله عنه[٣] .

---

(١) الخبب ضرب من السير سريع .

(٢) وفى نسختين : إذا لمسوه .

(٣) راجع ٢٧١ و ٢٧٢ و ٣٦٦ — ٣٦٩ من تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة و ٨٥٦ — ٨٦٠ من وحى الأحاديث المحمدية لمحمود على قراعة (الجزء الثانى) .

وهناك أمور كنت أستنكر بعضها وأنا صغير وأسأل السر عن بعضها الآخر فلا مجيب لسؤالى عنها ، فقد كنت أستنكر قول عجائزنا بوجوب تقبيل اللقمة التى توجد فى الأرض وأكلها لأنها نعمة والنعمة لا يجوز أن تداس وكنت أوفق بين رأيى ورأى العجائز ، فكنت أضعها جانبا بحيث لا تداس ولكنى كنت أستقبح تقبيلها وأستنكر أكلها ، فلما كبرت وفى كتب البحث والحياة درست ، عرفت أن تقبيلها نكر وأن أكلها لا يجوز لأن نعمة الصحة من الله ولا يجوز لعبد أن يجلب لنفسه المرض من أكل لقمة لا يعرف من أكل منها قبله ولا لماذا ألقى بها ، هذا على ما أصابها من تلويث من داسها وما تعرضت له من الجراثيم والقاذورات ، فنعمة الصحة أولى بالرعاية من بقايا طعام رعايته فى المحافظة عليه وفى وضعه فى موضعه لا فى أن تحترم بقاياه الملوثة أو الغير معروفة التاريخ ، وأيقنت أن الدين لا يأمر بهذا ولكن الجهل هو الذى يأمر به !

وكنت بالفطرة السليمة أحب غسل يدى قبل مباشرة أى عمل حتى قبل قضاء الحاجة وبعدها ، وعرفت بعد ذلك أن الدين يأمر بهذا لأن قواعد الصحة تعضده .

وكنت أسأل لماذا يكون الغسل ثلاثا والتسبيح ثلاثا الخ . . . فكان الجواب (كده) فلما كبرت عرفت أن أقل العدد المجموع ثلاثة[1] ، وكنت أسأل هل يقول سيدنا محمد فى تشهده « اللهم صل على سيدنا محمد . . . وبارك على سيدنا محمد » أى هل يقول عن نفسه أنه سيد نفسه ، فلما وعيت الأمور عرفت أن السنة أن يقال « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد . . . وبارك على محمد وعلى آل محمد » وأن لفظ سيدنا إنما لفظ تحبيب نقوله نحن حبا فيه وتكريما له .

(١) هذا وقد قال الشعرانى إنه سمع عليا الخواص يقول إنما ثنى السجود دون الركوع لأن السجدة الأولى امتثال للأمر عكس ما وقع لا بليس ، والثانية شكر لله تعالى على حصول امتثال الأمر راجع ص ١٦٠ من المنن الكبرى للشعرانى .

٢ — أخذ الفأل من المصحف لا يجوز ، خشية الوقوع فيما وقع فيه الوليد بن يزيد[١] وكتابة المصاحف بالحروف المصغرة بدعة منكرة واتخاذها حرزا بهذه الكيفية أشد نكرا لأنها لا تقرأ بالعين المجردة بل قد يصل الأمر فيها إلى أن المنظار المقرب أو المكبر يدل على أنها مجرد خطوط أفقية ورأسية[٢] .

والأدعية التى جاءت بها السنة فيها سؤال الله بأسمائه وصفاته والاستعاذة بكلامه ، وأما الأدعية التى يدعو بها بعض العامة ويكتبها باعة الحروز من الطرقية التى فيها أسألك باحتياط قاف والطور والعرش والكرسى وزمزم والمقام والبلد الحرام ومثل هذه الأدعية ، فيقول ابن تيمية إنه لم يؤثر فيها شىء لاعن النبي صلى الله عليه وسلم ولاعن أصحابه ولاعن أئمة المسلمين ، وليس لأحد أن يقسم بهذه بحال ، بل قد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت ا وقال من حلف بغير الله فقد أشرك فليس لأحد أن يقسم بالمخلوقات البتة ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » كما قال البراء بن مالك : أقسمت عليك أى رب إلا فعلت كذا وكذا ، والعبد يسأل ربه بالأسباب التى تقتضى مطلوبه وهى الأعمال الصالحة التى وعد الثواب عليها ودعاء عباده المؤمنين الذين وعد إجابتهم ، كما كان الصحابة يتوسلون إلى الله تعالى بنبيه ثم بعمه العباس وغير عمه من صالحهم ، ويتوسلون بدعائه وشفاعته ، وأما قول القائل أسألك وأقسم عليك بحق ملائكتك أو أنبيائك أو نبيك فلان أو رسولك فلان أو بالبيت الحرام ونحو ذلك ، فلم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) ومما يحكى عنه أنه استفتح فألاقى المصحف فخرج « استفحوا وخاب كل جبار عنيد » فألقاه ورماه بالسهام ، فلم يلبث بعد هذا إلا يسيرا حتى قتل . راجع ص ١١٩ و ١٢٠ من الفخرى لابن الطقطق .

(٢) راجع ص ٦٧٨ و ٧٣١ من وحى الأحاديث المحمدية الجزء الثانى لمحمود على قراعة وص ١٧٣ و ٢٩٤ من فتاوى ابن تيمية المجلد الأول و ص ٣٠٣ — ٣١١ حـ ٤ وص ٢٦ من حكم ترجمة القرآن الكريم للأستاذ الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوى .

ولا أصحابه ولا التابعين لهم بإحسان ، بل قد نص غير واحد من العلماء على انه لايجوز ، لأنه أقسم على الله بمخلوق ولا يصح القسم بغير الله وإن سأله به على أنه سبب ووسيلة إلى قضاء حاجته ، وأما التوسل بالإيمان بالنبي وبيته وطاعته والصلاة والسلام عليه وبدعائه والشفاعة ومحبة الصالحين ونحو ذلك فهومشروع باتفاق المسلمين ، ولكن لم يقل أحد إن الدعاء مستجاب عند قبور الأنبياء والصالحين .

٤ — استمرار بعض المسلمين فى جعل الخلاف فى الفروع من دواعى التفرق والاختلال والانحلال ، مع أن الحنفى والشافعى والمالكى والحنبلى والزيدى والسنى والشيعى كلهم دين واحد وأصول عقائدهم واحدة ، والخلاف فيها لايضر بالأصول وإنما يكون فى بعض الأشخاص أوالفروع أو الصفات . وهذا كله ناتج من جهلنا بما حولنا وعدم فهمنا عمليا قوله تعالى « ولقد أهلكنا ماحولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون » ، وكأن الله لما أذهب الأندلس وكثيرا من بلاد الإسلام من أيدينا ، يريد أن ينبه شعور الباقين ، ولعمرى أن هذا لا يكون إلا إذا عرف هذه الأحوال العلماء فى العرب والترك والعجم ومصر وجعلوا مبدأ التعليم واحدا مع التحاب والتواد ، وكيف تعرف الأحوال إلا بالسياحات فى الشرق والغرب[1] .

٥ — استمرار بعض المسلمين فى استغفال البعض الآخر ، ولذا يستنكر الإمام ابن تيمية ماحكى عن بعض المشايخ من قوله إذا نزل بك حادث أوأمر تخافه فاستوحنى فيكشف ما بك من الشدة حيا كنت أو ميتا ، ويقول إن هذا الكلام ونحوه إما أن يكون كذبا من الناقل أو خطأ من القائل لأن الله لم يأمر بمثل هذا ولا رسله أمروا بذلك بل قال الله تعالى : « فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب » ولم يقل ارغب إلى الأنبياء والملائكة ، وقال تعالى :

---

(١) راجع ص ٧٩ من كتاب النظام والإسلام لأستاذنا المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى .

« قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محذورا » . قالت طائفة من السلف كان أقوام يدعون العزير والمسيح والملائكة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقل لأحد من أصحابه إذا نزل بك حادث فاستوحنى ، بل قال لابن عمه عبد الله بن عباس وهو يوصيه : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك — أو قال أمامك — تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة إذا سألت فاسأل الله تعالى ، وإذا استعنت فاستعن بالله تعالى ، فإن العباد لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله تعالى لك ، لم يقدروا على ذلك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا على ذلك ، جفت الأقلام وطويت الصحف » !

ويقول ابن تيمية فى قول القائل إذا عثر ياجاه محمد ! ياللست نفيسة ! أو ياسيدى الشيخ فلان أو نحو ذلك لما فيه استغاثته وسؤاله ، أنه من المحرمات وهو من جنس الشرك ، فإن الميت سواء كان نبيا أو غير نبى لايدعى ولا يسأل ولا يستغاث به لاعند قبره ولا على البعد من قبره ، ولذلك يقول بإشراك من يقول بقضاء حاجة من يقرأ آية الكرسى واستقبال جهة الشيخ عبد القادر الجيلانى والتسليم عليه وخطو سبع خطوات مع كل تسليمة خطوة إلى قبره ، وأنه كذلك النذر للقبور أو لأحد من أهل القبور بزيت أو شمع أو شمعدان فضة أو ذهب أو ستر أو غير ذلك ، كالنذر لإبراهيم الخليل أو للشيخ فلان أو لبعض أهل البيت أو لغيرهم نذر معصية لايجب الوفاء به باتفاق أئمة الدين ، بل ولا يجوز الوفاء به ، وإن تصدق بما نذره على من يستحق ذلك من الفقراء الصالحين ، كان خيرا له عند الله وأنفع له ، فإن هذا عمل صالح يثيبه الله عليه فإنه يجزى المتصدقين ولا يضيع أجر المحسنين ، والمتصدق يتصدق لوجه الله ولا يطلب أجره من المخلوقين ، بل من الله تعالى[1]

(١) راجع ص ٣٠٨ — ٣١٨ من فتاوى ابن تيمية جـ ٤ و ٧٩٠ من وحى الأحاديث المحمدية جـ ٢ لمحمود على قراعة .

وابن بشيش يصف الذات المحمدية فى صلواته بقوله بأنها : « اللطيفة الأحدية شمس سماء الأسرار » وأنه « السبب فى كل موجود » ويقول : « أغرقنا فى عين بحر الوحدة السارية فى جميع الموجودات » ، وأين هذا من قول رب العزة الخالق المنزه عن الشريك « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » وأين تلك الأوصاف ممن يقول له الله « وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » ، ومن وثنياتهم القسم على الله بألفاظ غير مفهومة مثل قولهم : « بحق بطد زهج واح ياحى » وقولهم « بحق طهور بدعق سقناطيس سقاضين احون قاف آدم حم هاء آمين اللهم أقسم عليك بحق هذه الأسماء العظام وملوك عبيدك الكرام » وقوله « كدكد كردد كردد كرده دده الله رب العزة » وقوله : « اتينبوخ ملوخ باى وامن آى وامن مهياش الذى له ملك السموات والأرض[1] » .

ولقد سئل أستاذنا المرحوم الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوى بصفته وكيلا للأزهر ومديرا للمعاهد الدينية عن حكم الأذكار الملحونة والمحرفة والطبل والزمر والتصفيق بالأيدى وما يحصل من الرطانة المعروفة عندهم بضرب اللاوندى وفيما يقع من أرباب الطرق حال ذهابهم إلى بعض الأضرحة من الفوانح المتعددة كلما وصلوا لجهة فيها بعض إخوانهم وحمل واحد يسير أمامهم بفانوس يسمونه (الزى) وفيما يفعلونه فى الموالد أثناء ذهابهم إلى مركز مشيخة الطرق من الاصطفاف ميمنة وميسرة يحمل لهم الشموع الموقدة والمجامر الأرجة غلمان يحملون بالملابس الفاخرة والمناطق المطرزة الناعمة

(١) راجع التعريف للجرجانى و س ١٢ — ١٥ للأستاذ عبد الرحمن الوكيل فى مجلة الهدى النبوى العدد الخامس جمادى الأولى ١٣٦٦ ودلائل الخيرات . ويقول الدكتور ادرين . ا . كالفرلى فى مجلة الهلال ص ٩٦ وما بعدها عدد فبراير سنة ١٩٥٦ : قد زخرت الشائعات التى روجت عن الإسلام بأخطاء كثيرة ومن بين هذه الأخطاء أن المسلمين (ويسمونهم المحمديين) يعبدون محمدا ، وليس عسيرا أن يتقبل الغربى هذه الفكرة ، فكما أن بعض المسيحيين يعبدون المسيح مؤسس المسيحية فكذلك يظن بعض الغربيين أن المسلمين يعبدون محمدا مؤسس دينهم وأدعى من هذا إلى الأسف أن بعض المعاهد فى أمريكا تلقن طلبتها هذه الفكرة ويرى أساتذتها أن محاولة المسلم أن يطيع محمدا ويحاكيه فى كل أفعاله ليس الا عبادة فى حين يقرر المسلم بأنه لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله وفى حين أن طاعة المسلمين محمدا ليست إلا طاعة الواحدالأحد الذى دعاهم إلى عبادته ، وبعبده هو أيضا .

وفيما يسمى بزفة الرفاعى والبيومى وزفة الفار وفى التصدى لمشيخة الطريق وأخذ العهود وإرشاد الخلق ممن ليس أهلا للإرشاد ؟ فهد رحمه الله لإجابته بما خلاصته أن غالب هذه الأمور التى اشتمل عليها السؤال المذكور من البدع السيئة التى يجب على كل قادر من المسلمين إزالتها ، وأولى الناس بالمسارعة إلى ذلك سواس الأمة وعلماؤها الذين لهم الزعامة فى الدين ، فإذا تغاضوا عنها أو تواكلوا فى إزالتها أو بدا منهم ما يشعر باستحسانها والرضا عنها ، كانت التبعة عليهم مضاعفة واندرجوا فى وعيد قوله عليه الصلاة والسلام « إذا ظهرت البدع وسكت العالم فعليه لعنة الله » وليس المراد بالعالم من تزيا بالزى الخاص ، بل كل من يعلم الحكم الشرعى فى الحادثة ، وقوله : « من نظر إلى صاحب بدعة ليوقره فقد أعانه على هدم الإسلام » ، وقوله : « من نظر إلى صاحب بدعة بغضا له فى الله ، ملأ قلبه أمنا وإيمانا ، ومن استحقر صاحب بدعة ، رفعه الله فى الجنة مائة درجة ، ومن لقيه بالبشر أو بما يسره ، فقد استخف بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم » ، وكثيرا ما كان يتمثل الإمام أبو حنيفة النعمان رضى الله عنه بهذين البيتين :

من الدين كشف العيب عن كل كاذب وعن كل بدعى أتى بالمصائب

ولولا رجال مسلمون لهدمت صوامع دين الله من كل جانب

وأول من أحدث هذه البدع فى الطرق الصوفية — كما فى الخطط المقريزية — جماعة من مرتزقة الأعاجم فى أواخر القرن الرابع استمروا مرعى الخوانك[1] التى أحدثها بمصر أهل الخير ليأوى إليها الزهاد والعباد ، فتدثروا بشعائر الصوفية لينسبوا إليهم وتعطف القلوب عليهم ، وانتهجوا مناهج أهل الإباحة فأتوا من المنكرات ما يبرأ منه الدين وأهل التصوف ، إذ الصوفى — كما قال شهاب الدين السهروردى — يضع الأشياء فى مواضعها ويدبر الأوقات والأحوال كلها بالعلم ، يقيم الحق مقامه ويقيم أمر الحق مقامه ويستر ما ينبغى

(١) كلمة فارسية جمع خانكاه ومعناها بيت وقد جعلت لتخلى الصوفية فيها للعبادة .

أن يستر ويظهر ما ينبغى أن يظهر ويأتى الأمور من مواضعها بحضور عقل وصحة توحيد وكمال معرفة ورعاية صدق وإخلاص ، إلا أن هذه المنكرات كانت خفية جدا إلى أن تقادم العهد وأهمل فى الأمر أولياؤه وفقدت الغيرة الدينية وأسندت الأمور إلى غير أهلها ، فكثرت هذه البدع والمنكرات واتسع نطاقها !

ثم تصدى الشيخ مخلوف العدوى بعد ذلك إلى بيان حكم ما سئل عنه فأجاب بما خلاصته : أجمع المسلمون على حرمة الإلحاد فى أسمائه تعالى والتحريف فى آياته وحرمة ذكره على وجه ينافى الإجلال ، قال تعالى « وذر الذين يلحدون فى أسمائه ، سيجزون ما كانوا يعملون » ، وقال تعالى « سبح اسم ربك الأعلى » ولاريب فى أن اللحن فى الكلمة المشرفة إلحاد وتحريف فى الإسم الشريف وذكر له تعالى على وجه لا تسبيح فيه ولا تقديس ، ولم يسمع عن أحد من أئمة الدين وأهل الطريق أنه ذكر الله تعالى أو قال بجواز الذكر على غير الوجه المشروع الوارد كتابا أو سنة ، وقد نصوا على أن أسماء الله تعالى توقيفية لا تثبت وضعا وكيفية إلا بكتاب أو سنة صحيحة وأن الكلمة المشرفة من القرآن والزيادة فيه كالنقص حرام ، وكما لا يجوز اللحن فى أسمائه تعالى ، لا يجوز قصر لفظ الجلالة وهو نقصه عن المد الطبيعى الذى لا وجود للحرف إلا به لأنه من جملة اللحن ، وقد نص الفقهاء على أن الإتيان به مقصورا لا يعد ذكرا ولا ينعقد به يمين وتفسد به الصلاة فى تكبيرة الإحرام ، ولا يختلف حكم الاستماع والفعل فى هذه الأذكار المحرفة لأن للسماع حكم المسموع كما أن للنظر حكم المنظور ، قال الله تعالى « ولاتركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار » فيحرم استماع هذه الأذكار المحرفة ، ويجب على السامع إنكارها والنهى عنها وبذل المجهود فى نصح الذاكرين بها وإرشادهم إلى تصحيحها جهد المستطاع ، وذكر الله تعالى على الطريقة الشرعية من أفضل الأعمال التى حث عليها الشرع لما له من جميل الأثر فى تهذيب النفوس واطمئنان القلوب وقمع الشهوات سواء كان سرا أو جهرا ، قياما أو قعودا ، وسواء كان الذاكر منفردا أو فى جماعة لعموم قوله تعالى

« ألا بذكر الله تطمئن القلوب » وقوله سبحانه « فاذكرونى أذكركم » وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال فى تفسير قوله تعالى « فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم » لم يعذر الله أحدا فى ترك ذكره إلا المغلوب على عقله ، وقد أكد الصوفية أمر الذكر جهرا ومع الجماعة نظرا إلى أن النفوس لما كانت كثيرة الخواطر والخطرات شديدة التقاعد عن العبادات تعتريها الغفلة وتستميلها رؤية الأغيار ، كانت محتاجة فى سيرها إلى هذا المقصد الأسمى إلى استنهاض همتها بالجهر والرفقة الصالحة فى هذا السبيل ، والذكر إن لم يكن باسم من أسمائه تعالى الواردة فى القرآن فهو من باب الدعاء كما قال تعالى «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » ولا وجه للقول بكراهة الجهر بالذكر إذا خلا عن الموانع الشرعية ولم يكن فيه إخلال بشىء من آدابه المعروفة ، فالهزة والتمايل أثناء الذكر إن كانا بحالة لا تنافى الآداب وجلال المشهد ووقار الذكر فلا بأس بهما ، وإن كانا بحالة تنافى الآداب وتخرج بالذكر عن الوقار الواجب كما يفعله الجهلة الآن من التولى بالوجوه إلى الظهور والنزول بالرؤس إلى الأقدام والتثنى والتكسر والرقص والاضطراب ، فلاشك فى حرمتهما على غير مغلوب الحال حقيقة لا تصنعا .

وروى الفضيل أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا إذا ذكروا الله تعالى ، تمايلوا يمينا وشمالا كما تتمايل الشجرة فى الريح العاصف إلى قدام ثم ترجع إلى وراء ، وأما الإنشاد فى الذكر لتنشيط النفوس بكلام لا يشوبه هذر ولا هراء ، بل المواعظ الحسنة والحكم البالغة ، فلا بأس به لأنه ذريعة إلى الجد والاهتمام فى التقرب إليه تعالى ما لم يتله به الذاكرون عن حضور القلب ويجعلوه مقصدا وغاية ومالم ينشأ عنه طرب واضطراب ينافى الخشوع والخضوع المعبر عنهما فى لسان الصوفية بالرقة والتواجد ، فإنه حينئذ لا يسوغ ، أما استعمال الخرقة والحزام وعلم الراية ، فالأصل فيه عند الصوفية ما ورد من تعميم النبى صلى الله عليه وسلم لبعض أصحابه فى الجهاد وعقد اللواء ووضع شعار فى القوم ليجتمع بعضهم ببعض ، ولاشك فى أن الجهاد الأكبر هو مجاهدة

النفس والهوى ، فيصح التأسى فيه بما فى الجهاد الأصغر ، تيمنا بفعله عليه الصلاة والسلام ، فإذا لوحظ فى استعمالها حكمتها الأصلية ، ساغ استعمالها وإلا فلا ، أما الذكر بمثل (أنا أنت وأنت أنا) فأقل مراتب هذه المقالة الشنيعة الحرمة لأنه إن أريد بها أن ذات القديم عين ذات الحادث ، فذلك نوع من الاتحاد والحلول الذى ذهب إليه النصارى وبعض غلاة الشيعة ، وإن أريد غير هذا مما يصح فلا يسوغ ذكره شرعا ، أما التكلم بين العامة بعبارات الصوفية الغامضة ومخاطبة الناس بما لا تتسع له عقولهم ، فقد حذرتها الشريعة لاسيما إذا قصد بهذه الألغاز والمعميات التلبيس والتدليس وإيهام العامة أن صاحبها من الخاصة لاستمالة قلوبهم واستنداء أكفهم ، فإن الخطر أشد والجرم أعظم ، وحسب امرئ من الشر أن يبيع آخرته بدنياه ، وأما الطبل والزمر فلا يسوغ اتخاذهما فى الذكر الذى هو أفضل الأعمال التى يتقرب بها إلى الله تعالى ، لأن الذاكر جليس الحق يناجيه بأسمائه الحسنى وصفاته المقدسة ، فينبغى أن يكون على غاية من الكمال والأدب والتذلل والخضوع وأن يكون مجلسه أبعد المجالس عما ينافى آداب هذه الحظيرة المقدسة ، وأما التصفيق بالأيدى كما يفعل هؤلاء الجهلة فى الذكر فهو من البدع المنكرة ، وكذلك يحرم ذكر الألفاظ الساذجة حال الذكر سرا وجهرا ، أما هذه الرطانة المعروفة فى مصر (بضرب اللاوندى) التى يتصنعها من لا خلاق لهم فى حلقات الأذكار لإيهام أنهم مغلوبون على أمرهم مأخوذون عن حواسهم ، فليس لها أصل فى الدين مع إخلالها بآداب الذكر وجلال أسمائه تعالى ، فيجب الإنكار عليها وزجر متصنعيها لاسيما إذا أدت إلى محرم أو مكفر ، قال تعالى إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، وقال تعالى « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ، ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق » وقال سبحانه « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » ، وأما سير أرباب الطرق ليلا وذكرهم فى الطرق جهرا ، فلا يسوغ شرعا لامتهانها ومنافاتها لجلال أسمائه تعالى إذا كان مع التحريف ، وكذلك حكم قراءة الصلوات والفواتح على الوجه الذى يفعلونه ، وأما الذهاب

إلى بعض الأمكنة لأجل الاجتماع على ذكر الله تعالى واستصحاب الفانوس للاستضاءة به ، فلا بأس به ما لم يشتمل على محرم أو مكروه فيمنع ، والحكمة فى إحياء ليلة ميلاده عليه الصلاة والسلام وميلاد الأولياء والصالحين ، هى تذكير الناس بسيرته عليه الصلاة والسلام وسير هؤلاء الأجلة وما كان لهم من الأعمال الصالحة ليتأسوا بهم ، فينبغى أن يكون إحياؤها بأنواع العبادة والشكر على هذه النعمة الجزيلة نعمة وجود القدوة الصالحة ، إلا أن الناس حسبوا هذه الحفلات فى عداد الملاهى ، فأصبحت لذلك محرمة ، ومن هذه البدع ذهاب أرباب الطرق إلى مركز مشيختهم بالهيئة المعروفة حيث يجتمع بهم الشبان والنساء والأوغاد ويأتون من المنكرات ما عمت مفاسده ، وأما ما يسمى بزفة الفار فلا شك فى حرمتها لأنها لا تشتمل إلا على السخرية ، وكذلك ما يقوم به أرباب الطرق كزفة البيومى والرفاعى لما اشتملت عليه من ألفاظ الذكر المحرمة والعبارات السمجة وحمل الألوية والرقص بها والضرب بالصنج المسمى عندهم بالباز وحمل المجامر وزر ماء الورد فى الوجوه وامتطاء شيخ السجادة صهوة جواده متكئا على نفر من أتباعه معتما بعمامة أحد أصحاب المزارات الشهيرة متظاهرا بالغيبة والسكر والتواجد إلى غير ذلك من العادات الذميمة والبدع السيئة ، وأما مشيخة الطرق فتربية خاصة ، فهى من أهم الوظائف الدينية ، فلابد لمن يتصدى للقيام بأعبائها أن يكون عالما بأحكام الشريعة على أكمل وجه، سائسا خبيرا بأحكام وقته ، حكيما عارفا بخواطر النفوس وحركاتها والأسباب التى تثيرها والعلل التى تصيبها والأدوية التى تزيلها والعوائق التى تضادها ، ليتمكن من هداية الخلق إلى طريق الحق بحاله ومقاله هداية خاصة وعامة ، ويندر الآن وجود من تتوفر فيه هذه الصفات ، وقد كان جديرا بمشيخة الطرق الكبرى أن تعنى بهذه المسألة الدينية الخطيرة ولا تدع أرباب الطرق المتشعبة فى أنحاء القطر فوضى لا سراة لهم[1] .

(١) راجع ص ١ — ٢٧ من القول الوثيق فى الرد على أدعياء الطريق للمرحوم الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوى ، طبع الأستاذ صالح مراد الهلالى .

(٦) ومن الظواهر الاجتماعية الخطيرة ومن الأدواء المتأصلة فى مصر تزيين المتصوفة لأتباعهم ترك الاشتغال بأعمالهم ، وقد استنكر هذه الظاهرة الأستاذ الإمام عبد الوهاب الشعرانى فحدثنا عنها وعن أسبابها ونتائجها فى كتابه لطائف المنن والأخلاق فى بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق ، وسأجعل حديثى هنا قاصرا على الحديث عن هذه الظاهرة مستشهدا بالشعرانى وهو من أجلة العلماء العاملين وقد اتصل بالكثير من المجاذيب ومدعى المشيخة وعرف أسرارهم ونواياهم وخبيئات نفوسهم ، فحديثه عنهم حديث خبير ، وقد كان رضى الله عنه يحث كل من يجتمع به من الإخوان على الاشتغال بالحرف والصنايع وعلى دوام إقامتهم فيها إن كانوا من أهل الحرف قبل اجتماعهم به ويقول « وهذا الخلق قليل من يتنبه له من متصوفة الزمان ، بل يزينون لمن يجتمع بهم ترك الاشتغال بالحرفة والاشتغال بأحزابهم وأورادهم ، وهم بعد ذلك على قسمين : إما أن الشيخ يطعمهم من الصدقات فيتلف بواطنهم ، وإما أن يسألوا الناس ، وبعضهم يأمر المريد أن يخلى دكانه ويعرض عن الدنيا فينفقه ثم يطلب دكانا بخلوة فلا يجده ، فبعد أن كان يطعم الناس صار الناس يطعمونه ، وبعد أن كان يعطى السائلين ، صار هو يسأل الناس » ويزيد الطين بلة هجوم المتمشيخين على الظانين فيهم خيرا من العمال وصغار المحترفين والموظفين ومطالبتهم بما يسمى النبحة أو النفحة يقدمونها لهم ولأتباعهم من العاطلين المدعين للانجذاب والمتظاهرين بالتقوى والصلاح ، هدية إجبارية أو ضريبة اختيارية سنوية أو شهرية أو أسبوعية أو يومية حسب قوة الإيحاء والانخداع !

وقد كان إبراهيم المتبولى رضى الله عنه يقول إن المؤمن المحترف أكمل عندى من المجاذيب ومن مشايخ الزوايا الذين يأكلون بدينهم وليس بيدهم حرفة دنيوية تعفهم عن صدقات الناس وأوساخهم ، وعد الإمام عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه من نعمه تبارك وتعالى عليه شهوده لمحاسن العامة من المحترفين وتفضيلهم كشفا ويقينا ، وكان يكره الأكل من شىء أعطيه على اسم كونه من الصوفية أو اسم كونه من الصالحين ، وكذا التطلع لما فى أيدى الخلائق من المناصب والمطاعم والملابس والنقود وغير ذلك ،

وكان يشكر الله تبارك وتعالى لحمايته من الأكل من طعام المتهورين ومكاسبهم سواء دعوه إليه فى بيوتهم أو أرسلوه الى بيته ، وكان يقول « ومما من الله تبارك وتعالى به على : عدم أكلى من طعام من يعتقد فى الصلاح ، لأنه لايخلو حالى من أمرين : إما أن أكون صالحا فى نفس الأمر من حيث لا أشعر ، أو غير صالح ، فإن كنت صالحا فقد أكلت بدينى طعاما ، وإن كنت غير صالح فقد أكلت حراما فى الشرع لأنه لو اطلع على ما أقع فيه من المخالفات ليلا ونهارا لم يعتقد فى أبدا » ، « ومما من الله تبارك وتعالى به على : عدم أكلى من طعام من أكل بدينه من فقراء هذا الزمان ويجرد الناس ويسلقهم إذا لم يبروه ، لاسيما إذا عمل مولدا كبيرا فإنه يحلل الحرام ويعتدى به ولا يحرم الحرام ويجتنبه » ، « ومما من الله تبارك وتعالى به على : حمايتى من الأكل من طعام النذور والأعراس والعزاء والجمع ، لأن طعام النذور لايعمله صاحبه إلا بإلزامه نفسه ، وكان سيدى على الخواص رضى الله تعالى عنه يقول : طعام المتكلفين يورث الظلمات فى القلب لأنه كطعام البخيل على حد سواء لكونه يطعم الضيف وعنده ثقل من ذلك ، ولما دار بعض إخواننا بالشرقية والغربية ومعه جماعة بكثرة ، عاب عليه ذلك وأرسل يحط عليه ، وقال إن جميع أعمالك كل يوم لاتنى بثمن الطعام الذى تأكله بالمحاباة يوم القيامة ، وقد كان سيدى محمد بن عنان وسيدى على المرصفى وسيدى محمد السرورى رضى الله تعالى عنهم إذا ذهبوا إلى طعام أحد يذهبون بجماعة قليلة بشرط إعلام أصحاب الطعام بهم قبل الذهاب وانشراح صدره بذلك » ، « ومعلوم أن طعام البخيل داء كما صحت به الأحاديث لاسيما إن عملته امرأة من كسبها ، فإن الأكل منه ينافى شهامة الرجل لاسيما سيدى الشيخ الحاضر بجماعته ليأكل ويلحس الصحون حتى لايخلى فيها لمن بعده شيئا ، وأما أطعمة العرس الواسعة فإن الغالب على صاحبه التكلف فيه ، وقد نهانا الشارع صلى الله عليه وسلم عن الأكل من طعام المتكلفين والمتباهين والمتفاخرين ، وأما طعام العزاء والجمع وتمام الشهر فربما دخلته المفاخرة كذلك ، وربما عملوا ما عملوا من الفطير والعجمية والحلو والأرز متكلفين له خوفا من عتب الناس ، وربما كان ذلك من مال الأيتام » !

« ومما من الله تبارك وتعالى به على : حمايتى من الأكل من طعام الصنايعى الذى يعمل بالقوت لاسيما إن كان قد طعن فى السن إلا إن كافأته على ذلك بإعطائه ثمنه أو بتوجيهى إلى الله تبارك وتعالى أن ينزل له البركة الخفية فى رزقه بقية عمره وأرى أثر الإجابة فى دعائى ، وسبب التورع عن مثل ذلك كون الصنايعى يقاسى شدة فى كسبه طول يومه ، فلا ينبغى لمن له مروءة أن يأكل من مثل ذلك لاسيما إن كلفته امرأة لعمل أسبوع أومولد أونحو ذلك ، « ومما من الله تبارك وتعالى به على حمايتى من الأكل من طعام من علمت أن عليه دينا حالا وهو يماطل صاحبه مع القدرة على وفائه ، والعلة فى ذلك كون الواجب عليه أن يصرف ثمن ذلك الطعام فى الدين ، ففى أكلنا منه شبهة لكون الحق فيه لغيرنا ، ولذلك لانأكل من طعام شخص عليه دين وهو عاجز عن وفائه بل هو أشد من أكل طعام القادر لما فيه من الاجحاف به ، ولو دعانا بطيب نفس فلا نجيبه لأنه جاهل » ، « ومما من الله تبارك وتعالى به على : حمايتى من الأكل من هدية علمت بالقرائن أن لها عند صاحبها قدرا عظيما كأن أرسلها مع غلامه وقال له لاتسلمها إلا إلى عبد الوهاب فى يده أوجعل على وعائها قفلا أو خيطه أو علمت أنه فى كل قليل يتذكرها ولو فى نفسه ، وذلك علامة أن نفسه تتبعها بعد أن أرسلها ، ففيها ضرب من التكليف ، وكأن ينص على أنى آكل ولا أعطيها لغيرى » ، « ومما من الله تبارك وتعالى به على : تنفيرى للاخوان أن يرسلوا إلى طعاما من بيوتهم أو هدية من غير استدعاء منى وأعلمهم أن فى إرسالهم شيئا إذا أرادوا استقبالى لما يرسلون وأطعتهم أو خالفتهم — مفاسد كثيرة ، منها أن قلبى يخرب بأكل طعامهم فلا يصح لى بعد ذلك توجه إلى الله تعالى فى قضاء حوائجهم لأن مقامهم فى الكسب لايخلو من غش أو محاباة أو بيع على أحد من الظلمة وأعدائهم ونحو ذلك ، فإذا أكلت من طعامهم صرت فى التوجه إلى الله تعالى كأحدهم فى غلظ الحجاب فضرونى وضروا أنفسهم ، ومنها أنه ربما يترتب على مخالفتى لما أراده بعضهم نفرة خاطره منى فلا ينقاد لنصحى له بعد ذلك ، ومنها أنى إذا قبلت من أحدهم إحسانا من طعام أوكسوة يصير عنده دلال على فلا يخاف من مخالفتى بعد

ذلك فيما أنصحه وأشير به عليه ، فيقل نفع الصحبة بيني وبينه ، ومنها أن من أكل من قصعة رجل وهو غير معصوم ذل له ، وإذا ذل له فقد فتح باب عدم المبالغة في نصحه وكثرة مسامحته في فعل يراه يضره في دينه » ، « ومما من الله تبارك وتعالى به علي : حمايتي من الأكل من طعام شفعت فيه شفاعة وقبلت عند أحد الولاة أو قبول هدية على ذلك » ، « ومما من الله تبارك وتعالى به علي : كراهتي لقبول شيء من هدايا الولاة والعمال لي أو لإخواني » ، « ومما من الله تبارك وتعالى به علي حمايتي من الأكل من صدقات الناس وزكواتهم مادمت أجد عندي ما يسد الرمق ، إلا أن تكون الصدقات عامة كالأوقاف مثلا فلي الأكل منها إذا كنت بصفة المستحقين لذلك الوقف » ، « ومما من من الله تبارك وتعالى به علي : صحة توجهي إلى الله تبارك وتعالى في دفع الدنيا عني كما إذا بلغني مثلا أن شخصا أوصى لي بمال ، فأتوجه إلى الله تبارك وتعالى في دفعه عني فيدفعه عني ويلهم صاحب الوصية أن يمحو إسمي ويكتب اسم غيري أو تشح الورثة على بتلك الوصية وينكرونها بعد أن أكون قد أسقطت حقي فيها » ، « ومما أنعم الله تبارك وتعالى به علي : عدم إعلامي المعارف بما أريد أن أصنعه من وليمة عرس أو ختان أو سلامة من مرض ونحو ذلك خوفا أن أحدا منهم يتكلف ويساعدني في ذلك الطعام من غير نية صالحة » ، « ومما أنعم الله تبارك وتعالى به علي : تقديم زاوية غيري على زاويتي إذا شاورني أحد في وقف شيء على الفقراء ، لأن كل إنسان مأمور بالنصح للأمة ، فليس له أن يقدم نفسه بصدقة إلا إن كان أحوج إليها ، ومن قدم نفسه من غير أن يكون أحوج فقد غش وخرج عن الشريعة » ، « ومما من الله تبارك وتعالى به علي : نفرتي من كثرة اعتقاد أحد من الأمراء والولاة وغيرهم في أو إن وقع أن أحدا مدحني عند أمير أو وال حتى رفعني فوق جميع أقراني ، توجهت إلى الله تبارك وتعالى أن يحرك لي أحدا من الأعداء فينقصني عنده وسألت الله تبارك وتعالى أن يحول باطنه عن الاعتقاد في حتى لا يصير يلتفت إلى بوجه من الوجوه ، وذلك فتحا لباب الراحة لنفسي » ، « ومما من الله تبارك وتعالى به علي : عدم قبول هدية — أو ثناء — على دعاء دعوت به لمريض فشفاه الله تعالى بعد ذلك

ولو كان من عادته أن يهدى إلى قبل ذلك تركت قبولها بعد ذلك ، لأنى لست على يقين من قبول دعائى حتى آخذ عليه أجرة ، وإن وقع الشفاء فليس هو بدعائى حتما وإنما ذلك لانتهاء مدة المرض ، ثم بتقدير أن الحق تعالى أجاب دعائى فلا آخذ على ذلك أجرا فى الدنيا » ، « ومما من الله تبارك وتعالى به على : نفرتى بالطبع ممن يقبل يدى لاسيما فى المحافل أو يمشى معى إلى الباب إلا لغرض شرعى » ، « ومما من الله تبارك وتعالى به على : فرحى بكل شيخ أو واعظ برز فى حارتى وصار يلتقط أصحابى الذين كانوا حولى واحدا بعد واحد حتى لم يبق لى منهم حولى واحد ، وهذا الخلق أكمل أخلاق الرجال ولا يصح ذلك إلا لمن فنيت رعونات نفسه أو لمن حصلت له جذبات إلهية أدخلته حضرة العبودية الخالصة فشهد أن الحق تبارك وتعالى هو الذى أبرز هذا الشيخ[1] » .

(٧) هذا ولا يستطيع الباحث ولا يستطيع المصلح أن يشكر لرؤساء الصوفية ظاهرتين خطرتين : الظاهرة الأولى أن الكثير منهم جاهل كل الجهل بأحكام الدين ومع ذلك يعمد إلى تفسير القرآن برأيه وإلى الفتاوى الضالة المضلة حتى عمد الكثير منهم إلى اتباع أمور خارجة كل الخروج على الدين بل ذهب بعيداً إلى حد الكفر الصريح ، وإن فى تحديد بعضهم الصلة بين الشيخ والمريد وبين المريد وإخوانه ، للتحديد المخزى الآثم ! يعمد بعضهم إلى ما يسمونه ذكرا فيخلطون فيه بين الرجال والنساء والغلمان وفى غرف مظلمة وما معهم من طبول ومزامير للشيطان منكرة ، وما فى حناجرهم من أصوات وعبارات للوجد والحب يحملها كل من الجالسين محمله ! فيتواجدون وما عرفوا الوجد ، ويتعابثون وهم فى دعاوى الشطح مع الجلافة وتغلب الشهوات تصدر منهم آهات مستهجنة ويتراقصون ويتمايلون ويزعمون أن هذا لله وما هو لله ولا بالذكر الشرعى !

فى هذه الظاهرة الخطرة خلط بين عمل صالح وعمل سيء وفيه مافيه من إدخال الشهوات فى العبادة ، وهذا لا يجوز ، لأن العبادة ذل وخضوع ومحبة لله ،

(١) راجع ص ٨٢ — ٣٤٧ من المنن الكبرى للشعرانى .

وهنا لا مظهر للذل ولا للخضوع له ، وعملهم ليس محبة لله إلا فى الظاهر ، وخطر هـذه الظاهرة التلبيس على الناس وخداع فئة كبيرة بسيطة ساذجة فى دينها وإيذاء لها فى عقيدتها وقدح للعقيدة فى نفسها إذ تدفع الغير مسلمين إلى الظن بأن هذا هو الإسلام وهذا هو ذكره ومظهره الروحانى !

ولا تقل الظاهرة الثانية عن الظاهرة الأولى بل فيها معانى الشرك الظاهر والخفى وهى أن المشايخ يسيطرون على مريديهم ويفهمونهم بأنفسهم وبدعاياتهم أنهم يستطيعون بالحال أن يجدوا لهم عملا إذا تعطلوا أو يشفوهم إذا مرضوا ، وهم بهذا يوهمونهم أن القرب من الشيخ قرب من الله والبعد عنه بعد من الله ، ونتيجة هذا استغلالهم ماديا حتى أن بعضهم يقدم (المعلوم) لشيخه وأولاده يتضاوون جوعا وحتى افتقر الكثير من أتباعهم فظنوا أن الصلاح مهواة ومفقرة ، وما هكذا الدين وما هكذا العقيدة السليمة والعبـادة الخالصة لوجه الله !

هذا على أن الكثير من هؤلاء المشايخ يعطى المثل الأدنى فى الصغر الخلق ، على ادعاء الولاية والتبجح بهذا الادعاء حتى أنه ليطلب منك أن تقبل يده طلباً صريحا أو ضمنا بمد يده إلى شفتيك ، ولو درى المسكين أنه بهذا يصغر نفسه ويكشف جهله وادعاءه ما فعله ، ولو عرف مريدوه حقيقة نفسه ما تبعوه ، ولكن الغرور خيم عليه ، والجهل أسدل عليهم سدوله ، فظن وظنوا أنهم مخلصون فى العبادة لله ، وشاب وشابوا عبادتهم الرياء وحب الجاه والمال من شيخهم ، ومنهم من ظن أن شيخهم يقربهم إلى الله زلفى !

روى كعب بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما ذئبان جائعان أرسلا فى زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على الشرف لدينه » وبذا بين النبى الكريم أن الحرص على المال والشرف فى فساد الدين لا ينقص عن فساد الذئبين الجائعين لزريبة الغنم ، فالدين السليم لا يكون فيه هـــذا الحرص ، فأمثال هذا الشيخ ضعيف الدين ، وطاعة مثل هذا الشيخ ومحبته والاعتقاد فيه إضعاف للدين ، وإنما المحبة لله والعبودية لله والطاعة لله وحده

لا شريك له ، ولا محبة لشيء أو لإنسان جائزة ، إلا إن كانت لله وفى سبيل الله ولوجهه الكريم[١] .

هذا وقد كان الإمام على الخواص رحمه الله تعالى يقول « لا تفرحوا بما تعطونه من الأحوال والكرامات والعلوم والمعارف حتى ينكشف لكم الغطاء عن هذه الأمور ، هل هى بطريق الاستحقاق لكم أو بطريق الوعد وحسن الظن فقط[٢] » ، مع أن الشعرانى تحدث عن أن الله سبحانه وتعالى من عليه بالطواف فى كل ليلة فى جميع أقطار الأرض بأن يشير بأصبعه إلى أزقة جميع المدائن والقرى والبرارى والبحار وهو يقول الله . . الله . . ثم يقول : «سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين»، وقال: « وما أرجع إلى دارى بمصر إلا وأنا ألهث من شدة التعب كأنما كنت حاملا حملا عظيما » وقال: « وكان ابتداء حصول هذا المقام لى أن رأيت نفسى فى محفة طائرة فطارت بى سائر أقطار الأرض »[٣] ، إلا أنه كان يقول « من يعلم صحة شرعه ، فكرامته الاستقامة على الشريعة »[٤] وكان يعد ركون العبد إلى غير الله تبارك وتعالى من مقام أو حال إشراكا[٥] ويقول « الأكابر من الأنبياء والأولياء وكل المؤمنين لا يرجعون فى أمورهم إلا لله وحده »[٦] ، « ومما من الله تبارك وتعالى به على : تعولى فى الشدائد كلها على الله تبارك وتعالى فإن بيده تبارك وتعالى ملكوت كل شيء » ويرى أن القريب من حضرة الله تبارك وتعالى لا يحتاج إلى أحد من الخلق ، وأن الذى يلجأ فى قضاء حاجته إلى بعض الأحياء والأموات وبطرق توابيت المشايخ إنما هو الذى يحس بنفسه أنه بعيد من الله تبارك وتعالى[٧] وكان يقول « مما أنعم الله تبارك وتعالى به

(١) راجع ص ١٤٤ — ١٤٨ من وحى الأحاديث المحمدية الجزء الثانى لمحمود على قراعة .
(٢) راجع ص ٣٤٣ من المنن الكبرى للشعرانى .
(٣) راجع ص ١٤٤ من المنن الكبرى للشعرانى .
(٤) راجع ص ٩٠ من المنن الكبرى للشعراني .
(٥) راجع ص ٩٣ من المنن الكبرى للشعراني .
(٦) راجع ص ١٨١ من المنن الكبرى للشعرانى .
(٧) راجع ص ١٨٥ من المنن الكبرى للشعراني .

على عدم طلبي أحدا يساعدني على من آذاني من أرباب الأحوال بل أصبر وأحتسب ولا أقابل من آذاني بسوء ، وكان ينصح بالتوجه إلى الله تعالى في كل أمر يصيبه وعدم اللجوء لأحد غيره »[1] وكان يقول: «مما من الله تبارك وتعالى به علي : قضائي الحوائج عند الحكام من غير وقوع نقص في ديني بسبب ذلك ، وذلك إذا كان لي حاجة عند الباشا فمن دونه ، أتوجه إلى الله عز وجل وأسأله أن يسخر لي ذلك الأمير في قضاء تلك الحاجة ، فيصبح متهيئاً لذلك فأول ما يقرأ القصة أو يسمع كلام القاصد يقضي الحاجة لوقتها »[2] ، ويقول نقل عن الجنيد رضي الله تعالى عنه قوله : العارفون لا يموتون وإنما ينقلون من دار إلى دار ، ومراد الجنيد أن العارفين لما جاهدوا نفوسهم في حال سلوكهم حتى ماتت عن جميع تصرفاتها وشهدت التصريف لله وحده ، فكأنها ماتت في حال حياتها لا يحكمها إذ ذاك حكم الأموات في عدم إضافتها الفعل إلى نفسها »[3] .

هذا ويعمد رجال الصوفية الآن إلى أن يعلم الشيخ مريديه شيئا من خواص أسماء الله الحسنى ويأمره بأن يتلو الاسم الكريم كذا مرة ليحصل له الكشف ولتخدمه الروحانية وليحصل على كذا وكذا من خيرات الدنيا أو ليدفع عن نفسه كذا وكذا من شرورها ، ونرى أن الأغراض التي يبغون تحقيقها من تلاوتهم، إما أن تكون مادية أو معنوية أو خليطا منهما ، والمعنوية منها إما أن تكون دنيوية كالرغبة في الرفعة بين الناس أو دينية كطلب الغفران أو علو الدرجة في الآخرة ، وهي في كل هذه الصور لا تخرج عن أن تكون دعاء وللدعاء آدابه ومن آدابه عدم الخروج عن الأخذ بالأسباب التي أمر الله سبحانه وتعالى بها ، فالأمراض مثلا قد بين الله سبحانه وتعالى طريق مداواتها إذا شاء باللجوء إلى الأدوية من الأعشاب وغيرها التي جعل الله تبارك وتعالى فيها خاصية الشفاء والتي ألهم سبحانه الأطباء منذ العصور الأولى إلى هذه الخاصية ، والتي كلما مرت

(١) راجع ص ٣٥٧ من المنن الكبرى للشعراني .
(٢) راجع ص ١٥٣ من المنن الكبرى للشعراني .
(٣) راجع ص ١٦٤ من المنن الكبرى للشعراني .

الأيام زادهم علما بها وبنسبها وبالمفاضلة بين مختلف خواصها بمختلف التجارب ، وكذلك قدر الله أنه لا نصر على الأعداء مالم تستعد لهم ولا نجاح فى امتحان مالم تذاكر ولا سعة فى الرزق مالم تعمل وتكد وتكدح ولا وصول إلى الله مالم نأتمر بأوامره ونجتنب نواهيه !

ولذا أرى أنه يتنافى مع الأدب مع خالق الأسباب والمسببات ، أن نخرج على القوانين التى وضعها الله لخلقه ، وإلى أن نتلو من أسمائه الكريمة بعدد حدده الشيخ من عنده لم يأت به كتاب ولا سنة ولا رأى لصوفى كبير كالغزالى مثلا لغرض غير التلاوة مجردة عن أى غرض آخر ، لأن تلاوة أسماء الله الحسنى يجب أن تكون لقصد العبادة واللذة والمناجاة ، لا لغرض آخر قد يتحقق وقد لا يريد الله له الوقوع ، إما لعدم إحسان التوجه أو لعدم الأخذ بالأسباب التى أمر الله سبحانه بها[1] .

(٨) بقى أمر فهم الناس فهما معكوسا وهو ما يسميه بعض الصوفية حمل بلايا الناس وأن من يصل لدرجة معينة من الصلاح يؤت قوة التصريف فى الكون مع منافاة هذا الفهم للتوحيد الصحيح ، ومع ما يحمله كلامهم من نقض لهذه العقيدة الغريبة عقيدة أن للإنسان تصرفا فى الكون ، من ذلك قول الشعرانى : « لا يؤخذ الفقير من أصحاب النوبة ويسلب العالم إلا عند رؤية أحدهما نفسه على إخوانه أو غفلته عن الله تعالى[2] »، وقوله : « قد أعطاهم الله تبارك وتعالى معرفة الخواطر التى تمر على قلوب أهل إدراكهم فضلا عن معرفة أعمالهم ومعاصيهم فى قعر بيوتهم ، ولهم التأديب على كل زلة وقعت فى إدراكهم لأن قوسهم موتور على الفساق وعلى الفقراء الغافلين عن الأدب مع الله تبارك وتعالى[3] »، وقوله: « وقد أخبرنى سيدى على الخواص رضى الله تعالى عنه أن شخصا تبع فقيرا من بلاد الشام إلى مصر يريد أن يقتله بالحال .

(١) راجع ص ٤٥ — ٥٨ من الثقافة الروحية فى كتاب إحياء علوم الدين للغزالى بقلم محمود على قراعة .

(٢) راجع ص ١٤٨ من المنن الكبرى للشعرانى .

(٣) راجع ص ١٤٦ من المنن الكبرى للشعراني .

فلم يجده غافلا عن الله تبارك وتعالى فى وقت ، فاجتمع هو وإياه مع الفقراء فى جامع عمرو آخر جمعة من رمضان فوجده غافلا فطعنه فمات ، وقوله ، وحكى لى سيدى محمد الشناوى رضى الله تعالى عنه عن سيدى محمد بن هرون أنه مر على صبى قراد وهو ماد رجله فقال الشيخ فى نفسه إن هذا الصبى قليل الأدب يمر عليه مثلى ولم يضم رجله ، فسلب لوقته حتى صار لا يعرف الفاتحة ، وإن كان يكنى الغرابة فى قوله ما ذكره بعد إذ قال : « إياك يا أخى ورؤية نفسك على أحد من المسلمين إلا بطريق شرعى خال من الكبر ، فإن كل من رأى نفسه على أحد فقد تعرض للسلب »[1] !

والأغرب من ذلك قول الشعرانى : « مما من الله تبارك وتعالى به على أن أعانى على الاحتماء من الذنوب وتناول الشهوات أيام تحملى البلاء عن الإخوان » ثم قوله « وللتحمل والاحتماء شروط :

(أولها) أن يتحمل بوصف الذل والانكسار والفاقة فلا يرى له شغوف نفس على أحد من المسلمين ولا يكون معتمدا على أحد غير الله تبارك وتعالى حتى انه لا يدبر قط حيلة فى قضاء تلك الحاجة !

(ثانيها) كثرة الملازمة والوقوف فى المواكب الإلهية ليلا ونهارا ، وذلك بين الأذان والإقامة وحين يدخل نصف الليل الثانى !

(ثالثها) صدق التجاء صاحب الحاجة إلى الفقير !

(رابعها) أن يأمر المتحمل صاحب تلك المصيبة مثلا بكثرة الاستغفار حتى تخف العقوبة !

(خامسها) أن يرى ذلك المعزول مثلا أن الله تبارك وتعالى قد جعل بيد ذلك الفقير الولاية والعزل ، ليتوجه قلبه إلى ذلك الفقير جزما من غير تردد !

(سادسها) أن لا يقبل الفقير الحامل من المحمول عنه هدية ولا يأكل له طعاما ليكون قلبه متوجها إلى الله تبارك وتعالى فى حقه خالصا ، ومتى قبل منه شيئا بطل توجهه وخرب باطنه وتوقف قضاء حاجته !

(١) راجع ص ١٤٨ من المنن الكبرى للشعرانى .

(سابعها) كف جوارحه الظاهرة والباطنة عن كل محرم ومكروه خلاف الأولى أو خطور ذلك على باله !

(ثامنها) عدم تناول شيء من شهوات النفس المباحة فضلا عن المكروهة فضلا عن المحرمة ، لأن تناول هذه الشهوات يعمى البصيرة ويمنع من دخول حضرة الله تبارك وتعالى !

(تاسعها) أن لا يفطر أيام التحمل ، بل يكون صائما ليستنير قلبه !

(عاشرها) أن لا يكون الفقير الذى يتحمل قد خرق بصره إلى الدار الآخرة فإن من خرق ببصره كذلك تصيره همته فاترة ، فإذا اطلع على ما فى ذلك البلاء من الأجر والثواب فتصير كل شعرة منه تطلب دوام ذلك البلاء على ذلك السائل ، وأن يعمل الفقير على الوصول إلى مقام التخلق بالرحمة[1] ، وقوله : « كان سيدى على الخواص رضى الله تبارك وتعالى عنه يقول كم من كامل لا تصريف له وكم من ناقص بالنسبة إليه يتصرف فى الوجود ليلا ونهارا » ، وقوله: « كان الشيخ محيى الدين بن العربى رضى الله تبارك وتعالى عنه يقول إن الشيخ أبا السعود بن الشبل أعلى مقاما من شيخه الشيخ عبدالقادر الجيلانى رضى الله تعالى عنهم لأنه عرض عليه مقام التصرف فأبى وقال قد تركنا الحق تبارك وتعالى يتصرف لنا ، والشيخ عبد القادر عرض عليه مقام التصريف فتصرف وكان الأولى له أن يتركه حتى يؤمر بالتصريف فهناك يتصرف بأمر » ، وقوله : « سمعت سيدى عليا الخواص رضى الله تعالى عنه يقول إياكم أن تسألوا فى حوائجكم الأولياء الذين ماتوا فإن غالبهم لا تصريف له فى القبر ، وأما غير الغالب كالإمام الشافعى والإمام الليثى وسيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنهم فربما جعل الله تبارك وتعالى لهم التصريف فى قبورهم بحسب صدق من توجه إليهم » ، وقوله : « قد استدارت أبواب جميع الأولياء رضى الله تعالى عنهم إلى الغلق وما بقى مفتوحا إلا باب سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وزاده فضلا وشرفا لديه ، فمن كان له حاجة فليصل على

(١) راجع ص ١٤٨ — ١٥١ من المنن الكبرى للشعرانى .

النبي صلى الله عليه وسلم ألف مرة بتوجه تام ثم يسأله فى قضاء حاجته ، فإنها تقضى إن شاء الله تعالى ! وقوله : « وما أنعم الله تبارك وتعالى به على : إلهامى لأن آتى إلى قضاء الحوائج من أبوابها التى جعل الله تبارك وتعالى لها ، فإذا قضيت من الأدنى لا أسأل الأعلى أدباً معه ، وذلك لأنى أسأل فيها أصحاب النوبة ، أصحاب النوبة أولا فإن لم تقض على يدهم ، توجهت إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فإن لم تقض توجهت إلى الله عز وجل ! فإن لم تقض أكثرت من الاستغفار وعلمت أن المحل ما هو قابل أو أن من سألنى لا يستحق قضاء الحاجة » ، وقوله : « اعلم يا أخى أن أصحاب النوبة الآن فى مصر وذلك سنة ستين وتسعمائة — سبعون رجلا وهم معروفون فى بيوت الحكام ، فلا يوجد حاكم إلا وعنده واحد منهم أو أكثر ، فإذا دخلت يا أخى إلى حاكم فى حاجة فتوجه بقلبك إلى صاحب النوبة فى داره واسأله أن يعطف قلب ذلك الحاكم عليك فإنه يفعل إن شاء الله تعالى ، ومن لم يتوجه إليه فربما عارضه فى حاجته عند ذلك الحاكم وقسى قلبه عليه لسوء أدبه[1] !

وأقول إن هذا كله لا يجوز ، والذى أفهمه كمسلم أن يتوجه العبد لقضاء حاجته لربه وأن يفرغ قلبه من الشهوات الدنيا ليكون مقبولا عنده ثم يدعو بما يشاء ويختم دعاءه بالصلاة والسلام على رسوله الكريم كأى دعاء آخر ، أما القول بأن فلاناً فى حياته أو بعد موته يتصرف فإشراك لا يقبله عقل المسلم الحق ولا قلبه ، وكذلك القول بأن للتصرف نوبات وأهلا إذ لا يتصرف فى الكون إلا الله !

(٩) سوء فهم أغراض الدين أو فهم معانى الأحاديث ، فقد كان نبينا الكريم يأمر الناس أن يأخذوا بما يأمر به فى دينهم لأنه موحى له به من ربه ، أما ما يشير عليهم به كرأى من آرائه فلهم أن يأخذوا به كرأى بشر ، فعن رافع بن خديج رضى الله عنه ، قال : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يأبرون النخل[2] ، فقال ما تصنعون ؟ قالوا شيئا كنا نصنعه ! فقال لعلكم

(١) راجع ص ١٥٢ من المنن الكبرى للشعرانى .
(٢) تأبير النخل : تلقيحه واصلاحه .

لو لم تصنعوه لكان خيرا ، فتركوه فنفضت[1] فذكر له ذلك ، فقال إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من أمر دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر ، فمن ذلك ما وصفه عليه الصلاة والسلام من الأدوية لأدواء الأجسام وهو أمر دنيوى له أطباؤه ، فإنه صلى الله عليه وسلم وقد بعث لطب الأرواح ولمداواة النفوس إنما تعرض له من ناحيته الدينية وليبين للناس أن لكل داء دواء ، فعن أبي الدرداء رضى الله عنه، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى أنزل الداء والدواء وجعل لكل داء دواء فتداووا ولا تتداوا بحرام ، على أن نبينا الكريم إنما تحدث عن الأمور الطبية بصفة عامة كأمره بعدم إكراه المرضى على الشرب والأكل والتلطف فى ذلك معهم، لما فى إكراههم عليه من مشقة نفسية عليهم قد تزيد فى مرضهم ، وكأمره باتباع المبادىء الصحية العامة كاتباع المريض والناقه الحمية وكحديثه عما يراه فى بعض الأدوية كالحبة السوداء والعجوة والعسل الأسود وعسل النحل فى التقوية العامة والحناء فى القرحة والتبريد بالماء فى الحمى وكتسهيل البطن بالشبرم والسنا وكالحجامة فى بعض الأمراض ، وهى أمور عامة من حمية وإشارة ببعض وصفات عامة جربها النبي الكريم تخفف وطأة المرض أو تحول دون استفحاله ، وهى لا تعدو أن تكون رأياً فى أمور دنيوية لا إثم على المسلم إذا لم يتداو بها — كأن تداوى فى القرحات بالمراهم لا بالحناء — فله أن يأخذ بها أو لا يأخذ لأن الأخذ بها أو عدم الأخذ بها ليس من أموره الدينية ! على أنه لا يمكن الأخذ بها إطلاقا ، لأن المعروف أن كل وصفة خاصة بالدواء ، إنما تخص الداء الخاص مرتبطة بحالة المريض العامة وحالة نزول المرض من شدة أو ضعف ، مع مراعاة تطور مضاعفات المرض أو ما يعترى المريض من تغيرات مختلفة فى سرعة النبض أو بطئه وشدة التنفس ودرجة هـــذه الشدة وما يعترى القلب من هبوط أو ضعف ، وهذه أمور تختلف باختلاف الحالات وتتغير الوصفات فيها بتغير العوارض ، وهذه تعوزها المشاهدة والملاحظة وتقدير كل حالة على حدتها ،

(١) نفضت الشجرة حملها إذا ألقته من آفة بها .

ولذلك أرى أن رجال الحديث الشريف عندما أوردوا أحاديث وصفات الأدوية التى وصفها نبينا الكريم ، إنما ذكروها كرواية لحالات خاصة وصف النبى لها دواءها ، ويجب أن يراعى فيها أنها كوصفات ناجحة ، قاصرة على حالات المرض الخاصة التى وصفها لها النبى الكريم ، فمن ذلك حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه إذ قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال إن أخى استطلق بطنه ! فقال اسقه عسلا ! فسقاه ثم جاءه فقال : إنى سقيته عسلا فلم يزده إلا استطلاقا ! ثلاث مرات ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدق الله وكذب بطن أخيك ، فسقاه فبرأ ، فأنا أعتقد أن النبى الكريم إن كان يشير لعسل النحل فإنما يشير إلى الآية الكريمة « ثم كلى من كل الثمرات ، فاسلكى سبل ربك ذللا ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس » وإن كان يشير إلى عسل القصب ، ففوائد عسل القصب لا تحصى ، ولكننا نتوقف إذ لم يذكر رجال الحديث نوع الاستطلاق ولا حالة المريض من شدة أو خفة ولا الكمية التى أشار النبى الكريم إليها ولا الحالة التى يشفى العسل بها هل بحالته الكثيفة أم مخففا بالماء ! كذلك الحديث المروى عن ابن عمر رضى الله عنهما حيث قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « علمنى جبريل دواء يشفى من كل داء وقال نسخته من اللوح المحفوظ ! تأخذ من ماء المطر الذى لم يجر على سقف فى إناء نظيف فتقرأ عليه فاتحة الكتاب سبعين مرة وآية الكرسى مثله وسورة الإخلاص مثله وقل أعوذ برب الفلق مثله وقل أعوذ برب الناس مثله ولا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، ثم تصوم سبعة أيام وتفطر كل يوم بذلك الماء » فإن هذا الحديث يفيد اللجوء إلى المداواة الروحية ، وهذه المداواة لا تتوفر إلا لمن توفرت فيه المعانى الروحية من اللجوء الصادق لله والاستقامة والخروج عن النزوات الدنيوية ، وأخشى أن يلجأ جاهل ممتلىء قلبه بماديات الحياة وهو خلو من الروحانية ، إلى مثل هذه المداواة ، فيخفق فيها ، لخفوقة فى معرفة توفر شروطها ، فيؤدى ذلك إلى فتنته فى دينه أو إلى فتنة أمثاله ! . . . وكذلك يقال فى حديث الحمى فى رواية للترمذى

عن ثوبان رضى الله عنه « إذا أصاب أحدكم الحمى ، فإن الحمى قطعة من النار ، فليطفئها عنه بالماء ، فليستنقع فى ماء جار وليستقبل جريته فيقول بسم الله ، اللهم اشف عبدك وصدق رسولك ، وذلك بعد صلاة الصبح قبل طلوع الشمس ولينغمس فيه ثلاث غمسات ثلاثة أيام ، فإن لم يبرأ فى ثلاث فخمس فسبع فتسع ، فإنها لا تجاوز ذلك بإذن الله تعالى » ، فإنه لكى يتداوى من الحمى بهذا الشكل يجب معرفة نوع الحمى الذى يتداوى به ومقدار الماء الذى يغمس فيه وقدر الوقت الذى يحصل فيه الانغماس ، وكل هذا لم يبينه راوى الحديث ، على وجوب توفر صدق التوجه إلى الله لأن فى الدواء دعاء وصدق التوجه لا يتوفر لكل مريض ، فلذلك أرى أن يحمل هو والحديث الثانى على أنه كان خاصا بالذى قيل له ، لثقة الرسول باستقامته وقدر روحانيته !

والمعروف أن النبى الكريم كان ينهى عن الرقى والتمائم ، فعن ابن مسعود رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن فى الرقى والتمائم والتولة[1] شركا ، وعن عيسى بن حمزة قال : دخلت على عبد الله بن عكيم رضى الله عنه ، وبه حمرة فقلت : ألا تعلق تميمة فقال : نعوذ بالله من ذلك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من تعلق شيئا وكل إليه ! ولكن ما القول فيما ورد عن إجازة النبى الكريم لبعض الرقى ؟ نجد أن النبى الكريم إنما سمح بالرقى التى ليس فيها إشراك باعتبار أنها دعاء ، ثم أذن برقية اللدغة لاسيما وفيها يمص الراقى موضع اللدغة لإخراج السم منها بفيه ويربط الجزء القريب منها ، وفى هذا حصر للسم وإخراج له واتباع للمبادئ العامة المتبعة فى اللدغة ، وكذلك سمح بالرقى من عين الإنسان لإخراج السم الروحى الذى سلطته العين الحاسدة على المحسود بالتعوذ منها ، وكذلك التعوذ من الجان ومن إضرارهم ، وفى هذا كله يتعوذ الراقى بها من شرور الحشرات والجنة !

لكن ما القول فيما ورد عن لجوء النبى الكريم من للرقى فى الأمراض الحقيقية المادية التى تصيب الجسم ؟ من ذلك أن أبا الدرداء رضى الله تعالى عنه

(١) التولة بكسر التاء وفتح الواو : ما يحبب المرأة الى زوجها من أنواع السحر .

قال : إنه اشتكى إليه رجل احتباس البول فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من اشتكى منكم شيئا فليقل : ربنا الله الذى فى السماء تقدس اسمك ! أمرك فى السماء والأرض . . كما رحمتك فى السماء فاجعل رحمتك فى الأرض ! واغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين ، فانزل شفاء من شفائك ورحمة من رحمتك على هذا الوجع فيبرأ ، وأمره أن يرقيه به فرقاه فبرأ » !

تجد من ذلك أن الرقى الواردة إنما لخاصية فى نفس الراقى وعلى هذا تحمل إما على أنها خاصة بالرسول أو خاصة بالمقولة له ، وهى على كل حال ليست غير دعاء الله سبحانه وتعالى أن يشفى المريض وأن يذهب عنه ما ألم به ، والله عز وجل يجيب الداعى إذا شاء فيشفى المريض ، كما أنه يشفيه إذا أخذ بأسباب الدواء المادى إن قدر له الشفاء ، ولكن لما كان الله سبحانه وتعالى قد أودع فى الدواء النباتى أو الحيوانى خاصية الشفاء وأظهر لنا هذه الخاصية بتجارب الناس وبايقاف الأطباء عليها ، ولم يودع فى كل النفوس خاصية القبول وأخفى عنا معرفة من وهبه هذه الخاصية من الخلق العاديين ، فلا علينا إذا أخذنا بالأسباب التى أظهرها الله سبحانه وتعالى لنا ، بل ان ذلك أسلم لديننا ومبعدا لنا عن الفتنة فيما إذا دعونا بدعوات الشفاء ، ولم يرد الله الشفاء لنا[1] .

(١٠) غلط من انبسط فى دعوى المحبة : يقول ابن تيمية إن المحبة لله تحقيق عبوديته ، وإنما يغلط من يغلط فى هذه من حيث يتوهمون العبودية مجرد ذل وخضوع فقط لا محبة ، أو أن المحبة انبساط فى الأهواء أو إدلال لا تحتمله الربوبية ، كما غلط من انبسط فى دعوى المحبة حتى أخرجه ذلك إلى نوع من الرعونة التى تنافى العبودية وتدخل العبد فى نوع من الربوبية التى لا تصلح إلا لله ، وهو شبيه بقول اليهود والنصارى « نحن أبناء الله وأحباؤه » قال الله تعالى : « فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » فإن تعذيبه لهم بذنوبهم ، يقتضى أنهم غير محبوبين ولا منسوبين إليه نسبة البنوة ، بل يقتضى أنهم مربوبون مخلوقون ، فمن كان الله يحبه استعمله فيما يحبه ، ومحبوبه لا يفعل

(١) راجع ص ٩٦ — ١١٣ من وحى الأحاديث المحمدية الجزء الثانى لمحمود على قراعة .

ما يبغضه الحق ويسخطه من الكفر والفسوق والعصيان ، ومن فعل الكبائر وأصر عليها ولم يتب منها ، فإن الله يبغض منه ذلك كما يحب منه ما يفعله من الخير . إذ حبه للعبد بحسب إيمانه وتقواه ، ومن ظن أن الذنوب لا تضره لكون الله يحبه مع إصراره عليها ، كان بمنزلة من زعم أن تناول السم لا يضره مع مداومته عليه وعدم تداويه منه بصحة مزاجه ، ولو تدبر الأحمق ما قص الله فى كتابه من قصص أنبيائه وما جرى لهم من التوبة والاستغفار وما أصيبوا به من أنواع البلاء الذى فيه تمحيص لهم وتطهير بحسب أحوالهم ، علم بعض ضرر الذنوب بأصحابها ولو كان أرفع الناس مقاما ، فإن الحب للمخلوق إذا لم يكن عارفا بمصلحته ولا مريداً لها بل يعمل بمقتضى الحب وإن كان جهلا وظلما ، كان ذلك سببا لبغض المحبوب له ونفوره عنه ، بل لعقوبته ، ولهذا أنزل الله المحبة محنة يمتحن بها المحب فقال : « قل إن كنتم تحبون الله ، فاتبعونى يحببكم الله » فلا يكون محبا إلا من يتبع رسوله ، وطاعة الرسول ومتابعته تحقيق العبودية ، وجعل الله محبته تعالى ومحبة رسوله الجهاد فى سبيله . والجهاد يتضمن كمال محبة ما أمر الله به وكمال بغض ما نهى الله عنه ، ولهذا قال فى صفة من يحبهم ويحبونه : « أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله » ، ولهذا كانت محبة هذه الأمة أكمل من محبة من قبلها وعبوديتهم أكمل من عبودية من قبلهم !

ولقد ذكر ابن تيمية رضى الله عنه أن كثيرا من السالكين سلكوا فى حب الله أنواعا من أمور الجهل بالدين إما من تعدى حدود الله وإما من تضييع حقوق الله وإما من ادعاء الدعاوى الباطلة ، كقول بعضهم : أى مريد لى ترك فى النار أحداً فأنا منه برىء ، فقال الآخر : أى مريد لى ترك أحدا من المؤمنين يدخل النار فأنا منه برىء ، فقال ثالث : إذا كان يوم القيامة نصبت خيمتى على جهنم حتى لا يدخلها أحد ، وهى أقوال إما كذب عليهم وإما غلط منهم ، ومثل هذا يصدر فى حال سكر ، ولهذا كان بين هؤلاء من إذا صحا استغفر من ذلك الكلام[1]

---

(١) راجع ص ٣٣٢ من فتاوى ابن تيمية المجلد الثانى .

ويقول بعض المشايخ : المحبة نار تحرق فى القلب ما سوى مراد المحبوب ، وأرادوا أن الكون كله قد أراد الله وجوده فظنوا أن كمال المحبة أن يحب العبد كل شيء حتى الكفر والفسوق والعصيان ، فرد عليهم ابن تيمية بأنه لايمكن أحدا أن يحب كل موجود ، بل يحب مايلائمه وينفعه ويبغض ماينافيه ويضره ، وأصل ضلالهم أن هذا القائل الذى قال إن المحبة نار تحرق ماسوى المحبوب ، قصد بمراد الله تعالى الإرادة الشرعية الدينية التى هى بمعنى محبته ورضاه ، فكأنه قال : تحرق من القلب ما سوى المحبوب لله وهذا معنى صحيح ، فإن من تمام الحب أن لايحب إلا مايحبه الله ، فإذا أحببت ما لايحب ، كانت المحبة ناقصة ، وأما قضاؤه وقدره فهو يبغضه ويكرهه ويسخطه وينهى عنه ، فإن لم أوافقه فى بغضه وكراهته وسخطه ، لم أكن محبا له بل محبا لما يبغضه ، فدين الحق هو تحقيق العبودية لله بكل وجه وهو تحقيق محبة الله بكل درجة ، وبقدر تكميل العبودية تكمل محبة العبد لربه ، وبقدر نقص هذا يكون نقص هذا ، وكلما كان فى القلب حب لغير الله ، كانت فيه عبودية لغير الله بحسب ذلك ، وكلما كان فيه عبودية لغير الله ، كان فيه حب لغير الله بحسب ذلك !

ويقول ابن تيمية إن هؤلاء استفادوا بهذا الضلال اتباع أهوائهم ، فهم يحبون ما يهوونه كالصور والرئاسة وفضول المال والبدع المضلة زاعمين أن هذا محبة لله ، وأن الكثير من المخطئين الذين اتبعوا أشياء فى الزهد والعبادة ، وقعوا فى بعض ماوقع فيه النصارى من دعوى المحبة لله مع مخالفة شريعته ، فيجعلون متبوعيهم شارعين لهم دينا كما جعل النصارى قسيسيهم ورهبانهم شارعين لهم دينا ، ثم انهم ينقصون العبودية ويدعون أن الخاصة يتعدونها كما يدعى النصارى فى المسيح ، ويثبتون للخاصة من المشاركة فى الله من جنس ما تثبته النصارى فى المسيح وأمه ، مع أن القرآن الكريم ينص على أن عقيدة المسيح هى التوحيد الكامل « وإذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ، قال سبحانك مايكون لى أن

(١) راجع ص ٣٣٣ من فتاوى ابن تيمية المجلد الثانى .
(٢) راجع ص ٣٣٤ من فتاوى ابن تيمية المجلد الثانى .

أقول ماليس لى بحق : إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم ، فلما توفيتنى[1] كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد » .

ولقد نزل على السيد المسيح عليه السلام كتاب هو الإنجيل مصدق للتوراة ومحى لشريعتها شريعة العبودية لله وحده ومبشر برسول من بعده اسمه أحمد الذى نزل عليه القرآن كتاب التوحيد الكامل أيضا ، قال الله تعالى : « وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » ولقد ذكر القرآن الكريم مريم أم عيسى عليهما السلام ، فقص خبر الحمل بها وولادتها وتربيتها فى سورة آل عمران ، فيقول الله تعالى : « إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم ، فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وإنى سميتها مريم ، وإنى أعيذها وذريتها من الشيطان الرجيم ، فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا ، وكفلها زكريا ، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال يامريم أنى لك هذا ، قالت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » .

وخاطبتها الملائكة وهى الأرواح الطاهرة باجتباء الله لها « إذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ، يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين » ، ولقد كان ذلك الاصطفاء هو اختيار الله لها لأن تكون أما لمن يولد من غير نطفة آدمية ، فأرسل الله لها ملكا تمثل لها بشرا سويا ، قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ، قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا ، قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا ، فحملته فانتبذت به مكانا قصيا ، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ، قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » .

(١) والمسيح عليه السلام لم يصلب ولكن شبه على القوم لقوله تعالى : « وماقتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » ، وقوله تعالى : « ما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله إليه » .

ولما ولدته وخرجت به على القوم ، كانت المفاجأة داعية الإتهام ، وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما ، فأشارت إليه ، قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ، قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرآ بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » .

فكان إيجاده بروح من الله كما قال تعالى « والتى أحصنت فرجها ، فنفخنا فيه من روحنا ، وجعلناها وابنها آية للعالمين » ، وقد أكرم الله المسيح عليه السلام بمعجزات ذكرها القرآن الكريم تتلخص فى خمسة أمور ، جاء ذكر أربعة منها فى سورة المائدة فى قوله تعالى : « إذ قال الله ياعيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك ، إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا ، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى ، وتبرئ الأكمه والأبرص بإذنى ، وإذ تخرج الموتى بإذنى » ، إلى قوله تعالى : « إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ، قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين ، قال عيسى بن مريم : اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين ، قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين » .

والمعجزة الخامسة ذكرت فى سورة آل عمران وقد ذكرها الله تعالى حاكيا عنه « وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ، إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » .

« ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ، ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه ، إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون » .

وبذا ترى أن العبودية لله كاملة ولا يتعداها الخاصة إذ قال تعالى « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك

به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله »[1] ولذا كان الإنحناء الشديد من بعضنا لبعض فى التحية لايجوز[2] ، وقد روى عن القاضى الباقلانى السفير بين المسلمين والروم الشرقيين (٤٠٣ هـ) ، لما عرف الامبراطور خبره ومحله من العلم وموضعه واعتقد أن القاضى لن يكفر له كما جرى رسم الرعية أن تقبل الأرض بين يديه ، احتالوا لذلك بأن جعلوا الاستقبال فى حجرة لها باب لطيف لايمكن أحد أن يدخل فيه إلا راكعا ، وجعلوا السرير وراء هذا الباب ليدخل القاضى راكعا فيكون ذلك عوضا عن تكفيره ، فلما ذهب القاضى — وكان سياسيا سريع الخاطر لبقا — سار حتى وصل إلى المكان فلما رآه فطن إلى القصة فأدار ظهره وحنى رأسه راكعا ودخل من الباب وهو يمشى إلى الخلف وقد استقبل الملك بظهره حتى صار بين يديه فرفع رأسه ونصب ظهره وأدار وجهه ، ولذا كان سريع الخاطر دينيا وعمليا[3] .

هذا وكل محبة لاتكون لله فهى باطلة ، وكل عمل لايراد به وجه الله فهو باطل ، فالدنيا ملعونة ملعون مافيها إلا ما كان لله ، ولايكون لله إلا ما أحبه الله ورسوله وهو المشروع ، فكل عمل أريد به غير الله لم يكن لله ، وكل عمل

---

(١) راجع ص ١ — ٢٢ من محاضرات فى النصرانية للأخ الأستاذ الشيخ محمد أبى زهرة .

(٢) فى الحديث « رأس العقل بعد الدين التودد الى الناس واصطناع المعروف عند كل بر وفاجر » ولكن يجب معرفة أن الانحناء عند السلام منهى عنه لقول أنس رضى الله عنه ، قلنا يارسول الله أينحنى بعضنا لبعض ؟ قال لا ، قال فيقبل بعضنا بعضا ؟ قال لا ، قال فيصافح بعضنا بعضا؟ قال نعم !

(٣) ابن عساكر تبيين كذب المفترى ٢١٨ — ٢١٩ طبعة دمشق وراجع هامش ٢٥ صلة الاسلام باصلاح المسيحية لأستاذنا الشيخ أمين الخولى . وقد ذكر فى الهامش المذكور أن أبا بكر محمد بن الطيب الباقلانى دخل قصر ملك الروم يوما فرأى عند الامبراطور بعض مطارنته ورهبانه فقال له مستهزئا به كيف أنت وكيف الأهل والأولاد ؟ فتعجب منه الامبراطور وقال له : ذكر من أرسلك فى كتاب الرسالة أنك لسان الأمة ومتقدم على علماء الملة : أما علمت أننا ننزه هؤلاء عن الأهل والأولاد ؟ ! فقال القاضى أبو بكر أنتم لا تنزهون الله سبحانه وتعالى عن الأهل والأولاد وتنزهونهم ، فكان هؤلاء عندكم أقدس وأجل وأعلى من الله سبحانه وتعالى ! وقصد الامبراطور يوما توبيخه فقال له أخبرنى عن قصة عائشة زوج نبيكم وما قيل فيها ؟ فقال له القاضى أبو بكر: هما اثنتان قيل فيهما ما قيل زوج نبينا ومريم بنت عمران فأما زوج نبينا فلم تلد وأما مريم فجاءت بولد تحمله على كتفها ، وكل برأها الله مما رميت به .

لا يوافق شرع الله لم يكن لله ، بل لا يكون لله إلا ما جمع الوصفين أن يكون لله وأن يكون موافقا لمحبة الله ورسوله وهو الواجب والمستحب ، كما قال : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » فلا بد من العمل الصالح وهو الواجب والمستحب ولا بد أن يكون خالصا لوجه الله تعالى كما قال تعالى « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ، فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

ويقول ابن تيمية : كثيرا ما يخالط النفوس من الشهوات الخفية ما يفسد عليها تحقيق محبتها لله وعبوديتها له وإخلاص دينها — كالرياء وحرص المرء على المال والشرف فى فساد الدين — والقلب إذا ذاق حلاوة عبوديته لله ومحبته له ، لم يكن شيء أحب إليه من ذلك حتى يقدم عليه ، وبذلك يصرف عن أهل الإخلاص لله السوء والفحشاء كما قال تعالى : « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين » ، فإن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته ما يمنعه من عبوديته لغيره ، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه من محبة غيره ، إذ ليس عند القلب لا أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا ألين ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله ومحبته له وإخلاصه الدين ، وذلك يقتضى انجذاب القلب إلى الله فيصير القلب منيبا إلى الله خائفاً منه راغبا راهبا كما قال تعالى « من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب » إذ المحب يخاف من زوال مطلوبه وحصول مرغوبه ، فلا يكون عبد الله ومحبه إلا بين خوف ورجاء ، قال تعالى « أولئك الذين يدعون ، يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً » ، وإذا كان العبد مخلصا له ، اجتباه ربه فيحيي قلبه واجتذبه إليه فيصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء ويخاف من حصول ضد ذلك ، بخلاف القلب الذى لم يخلص لله فإنه فى طلب وإرادة وحب مطلق فيهوى ما يسنح له ويتشبث بما يهواه ، كالغصن أى نسيم مر بعطفه أماله فتارة تجتذبه الصور المحرمة وغير المحرمة فيبقى أسيرا عبدا لمن لو اتخذه هو عبد اله لكان ذلك عيباً ونقصا وذما ، وتارة يجتذبه الشرف

والرئاسة فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة ويستعبده من يثنى عليه ولو بالباطل ويعادى من يذمه ولو بالحق ، أو تارة يستعبد الدرهم والدينار وأمثال ذلك من الأمور التى تستعبد القلوب والقلوب تهواها فيتخذ إلهه هواه ويتبع هواه بغير هدى من الله ، ومن لم يكن خالصا لله عبدا له قد صار قلبه معبداً لربه وحده لا شريك له بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه ويكون ذليلا له خاضعا ، وإلا استعبدته الكائنات واستولت على قلبه الشياطين وكان من الغاوين إخوان الشياطين وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلا الله ، وهذا أمر ضرورى لا حيلة فيه ، فالقلب إن لم يكن حنيفاً مقبلا على الله معرضا عمن سواه وإلا كان مشركا ، وقد جعل الله سبحانه إبراهيم وآل إبراهيم أئمة لهؤلاء الحنفاء المخلصين أهل محبة الله وعبادته وإخلاص الدين له ، كما جعل فرعون وآل فرعون أئمة المشركين المتبعين أهواءهم ، قال تعالى فى إبراهيم : « ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » وقال فى فرعون وقومه : « وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ، وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين » وقد خرج ابن تيمية من هذا إلى القول بأن العبد كلما ازداد تحقيقا ، ازدادت محبته لله وطاعته له وإعراضه عن عبادة غيره ومحبة غيره وطاعة غيره[1]

(١١) والتلبيس هو إظهار الباطل فى صورة الحق أما الغرور فنوع جهل يوجب اعتقاد الفاسد صحيحا والردىء جيدا ! فمن المتشبهين بالصوفية من يقولون بالحلول زاعمين — ضلالا منهم وكفرا — أن الحق تعالى اصطفى أجساما حل فيها بمعانى الربوبية ، ومنهم من قال هو حال فى المستحسنات ، ومنهم قوم يتشبهون بالصوفية فى ملبسهم ويقصدون الفسق ! وقد حدثنى أكثر من واحد عن وجود بعض فئات تدعى أنها صوفية فى بعض بلاد المنيا وأسيوط ، يبيح

(١) راجع ص ٣٣٠ — ٣٣٧ من فتاوى ابن تيمية المجلد الثانى وراجع ص ١٣٧ — ١٤٤ من وحى الأحاديث المحمدية الجزء الثانى لمحمود على قراعة .

الشيخ فيها لمريديه الفسق ، وأنه على المريد الجديد تقديم نفسه لشيخه وإخوانه إن شاءوا ، إذا رغب فى الاندماج فى سلكهم[1] .

هـذا وقد أفاض الإمام جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى البغدادى فى كتابه تلبيس إبليس فى الحديث عن نقد مسالك رجال الصوفية والمتصوفين فى صحبتهم الأحداث نلخصها فيما يلى : إن أكثر الصوفية المتصوفة قد سدوا على أنفسهم باب النظر إلى النساء الأجانب لبعدهم عن مصاحبتهن وامتناعهم عن مخالطتهن واشتغلوا بالتعبد عن النكاح ، واتفقت صحبة الأحداث لهم على وجه الإرادة وقصد الزهادة ، فأمالهم إبليس إليه ، فمنهم قوم صحبوا المردان ومنعوا أنفسهم من الفواحش يعتقدون ذلك مجاهدة ، وما يعلمون أن نفس صحبتهم والنظر إليهم بشهوة معصية ، وهؤلاء قوم رآهم إبليس لا ينجذبون معه إلى الفواحش فحسن إليهم بدايتها فتعجلوا لذة النظر والصحبة والمحادثة وعزموا على مقاومة النفس فى صدها عن الفاحشة ، فإن صدقوا وتم لهم ذلك فقد اشتغل القلب الذى ينبغى أن يكون شغله بالله تعالى لا بغيره ، وصرف الزمان الذى ينبغى أن يخلو فيه القلب بما ينفع به فى الآخرة بمجاهدة الطبع فى كفه عن الفاحشة ، وهذا كله جهل وخروج عن آداب الشرع ، فإن الله عز وجل أمر بغض البصر لأنه طريق إلى القلب ليسلم القلب إلى الله تعالى من شائب نخاف منه ، وما مثل هؤلاء إلا كمثل من أقبل إلى سباع فى غيضة متشاغلة عنه لا تراه فأثارها وحاربها وقاومها ، فيا بعد سلامته من جراحه إن لم يهلك !

وفى هؤلاء من قويت مجاهدته مدة ثم ضعفت فدعته نفسه إلى الفاحشة فامتنع حينئذ من صحبة المرد . ومنهم من تاب وأطال البكاء عن إطلاق نظره ، ومنهم من تلاعب به المرض من شدة المحبة ، ومنهم من همت نفسه إلى الفاحشة فقتل نفسه وهو يتلو قوله تعالى : « فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم » فأتى بكبيرة عظيمة ، لأن بنى إسرائيل أمروا بذلك بقوله تعالى : « فاقتلوا أنفسكم » .

---

(١) راجع ص ٣٨١ من وحى الأحاديث المحمدية الجزء الثانى لمحمود على قراعة .

ونحن هينا عنه بقوله تعالى : « لا تقتلوا أنفسكم » ، وفيهم من فرق بينه وبين حبيبه فقتل حبيبه فأتى بكبيرة عظيمة ، وفيهم من علموا أن صحبة المردان والنظر إليهم لا يجوز ، غير أنهم لم يصبروا عن ذلك !

ومنهم قوم لم يقصدوا صحبة المردان وإنما يتوب الصبي ويتزهد ويصحبهم على طريق الإرادة ، فيلبس إبليس عليهم ويقول لا تمنعوه من الخير ثم يتكرر نظرهم إليه لا عن قصد فيثير فى القلب الفتنة إلى أن ينال الشيطان منهم بقدر ما يمكنه ، وربما وثقوا بدينهم فاستفزهم الشيطان فرماهم إلى أقصى المعاصى ، وغلطهم من جهة تعرضهم بالفتنة وصحبة من لا يؤمن الفتنة فى صحبته ! ومنهم قوم يستبيحون النظر إلى المستحسن ، والفقهاء يقولون من ثارت شهوته بالنظر إلى الأمرد حرم عليه ، ومتى ادعى الإنسان أنه لا تثور شهوته عند النظر إلى الأمرد والمستحسن فهو كاذب ، وإنما أبيح على الإطلاق لئلا يقع الحرج فى كثرة المخالطة بالمنع ، فإذا وقع الإلحاح فى النظر دل على العمل بمقتضى فوران الهوى ! ومنهم قوم يقولون نحن لا ننظر نظر شهوة وإنما ننظر نظر اعتبار فلا يضرنا النظر ، وهذا محال منهم ، فإن الطباع تتساوى ، فمن ادعى تنزه نفسه عن أبناء جنسه فى الطبع ادعى المحال ، فإن تعلل فقال إنما أنظر إلى هذه المستحسنات معتبرا فأتعجب من حسن الصنعة فى دعج العينين ورقة الأنف ونقاء البياض ! قلنا له : فى أنواع المباحات ما يكفى فى العبرة ، وههنا ميل طبعك يشغلك عن الفكرة ولا يدع لبلوغ شهوتك وجود فكرة ، فإن ميل الطبع شاغل عن ذلك ، وهذه — كما قال أبو الطيب الطبرى — النهاية فى متابعة الهوى ومخادعة العقل ومخالفة العلم !

قال الله تعالى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ، وقال : « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض » ، فعدلوا عما أمرهم الله به من الاعتبار إلى ما نهاهم عنه ، ولهذا قال ابن عقيل : « قول من قال : لا أخاف من رؤية الصور المستحسنة ليس بشىء ، فإن الشريعة جاءت عامة الخطاب لا تميز الأشخاص ، وآيات القرآن تنكر هذه الدعاوى ، قال تعالى : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم

ويحفظوا فروجهم ، وقال « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت » فلم يحل النظر إلا على صور لا ميل للنفس إليها ولاحظ فيها بل عبرة لا يمازجها شهوة ولا تعتريها لذة ، فأما صور الشهوات فإنها تعبر عن العبرة بالشهوات ، وكل صورة ليست بعبرة لا ينبغى أن ينظر إليها لأنها قد تكون سببا للفتنة ، ولذلك ما بعث الله تعالى امرأة بالرسالة ولا جعلها قاضيا ولا إماما ولا مؤذنا ، كل ذلك لأنها محل فتنة وشهوة وربما قطعت عما قصدته الشريعة بالنظر[1] » !

ويرى أستاذنا الفيلسوف الدكتور منصور فهمى الصدق فى رسم الصور النفسية ، فتراه يحدثنا صادقا عن تلك الفتاة التى رقت سلم الترام مع أمها فى طريق الرمل وعما كان بينه وبينها من غزل برىء فيقول : « . . . اتجهت حيث يقع بصرى على هذا الخلق الفتان ، لم اختلس النظرات اختلاسا وإنما رأيت أن أشبعها حسنا غير مكترث بما قد يأخذنى به الناس من تلك النظرات ، لأنى كنت حينئذ طاهر النية أمام الله فلا يخجلنى أن أتمتع متاعا طاهرا بجمال فتاة لا تكاد تبلغ الرابعة عشرة » ويصف نظرته تلك بأنها عبادة « الذى كان يعجب بالمصور الأكبر فى صورة بديعة صورها هى صورة تلك الفتاة[2] » بل هو يذهب إلى أبعد من ذلك فيحدثنا عن ذلك الملهى الذى ذهب إليه وفيه عزف العازفون وتضاءلت الأنوار وامتلأ المكان نغما وتشبع الجو أريجا ثم انحسرت الستار عنهن وكن نسوة كثيرات ومعهن رجال ، ويقول : « . . . طالما أحببت أن أكرم نفسى بمجالس الكمال وكنت أقول أأغشى مطارح الأهواء والمجون ؟ ! وطالما ألفت أن أعرض نفسى للجد والعمل ، على أننى علمت بعدئذ أن فى اللهو ما قد يدفع للجد ، وأن فى مجالس المجون ما قد يستفز للكمال ، وأن فى المسارح ما قد يرفع الإنسان من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح ، وكذلك ما رأيت من رقص « أنا بافلوفا » وكذلك ما سمعت من نغم . . . تالله

(١) راجع ص ٣٧ و ٢٢٧ و ٢٦٤ — ٢٨٧ من تلبيس ابليس لابن الجوزى

(٢) راجع ص ٢٨ و ٢٩ من خطرات نفس لأستاذنا الدكتور منصور فهمى .

ما ألم بنفسى فحش عندما تمايلت المتمايلات واهتزت القدود وتوردت الخدود .. وتالله مامر بنفسى فحش ، فإن فى جمال الفن ما يسمو بالنفس عن وساوس السوء . . . »[1] .

وقد أكون مع أستاذى فى رأيه وقد أرى أنه لا يضيرنى إذا نظرت لجمال حسى نظرة بريئة أو إذا ارتدت مسرحا أو سينما للترويح عن النفس وللمتعة البريئة ، إذ لا ريب فى أن نظرتك إذا كانت بريئة ، فإنها تسمو بك ، وأن الفن إذا كان فنا صادقا فإنه يسمو بروحك وبنفسك ، ولكن الذى يضير هو أن تنظر بشهوة ، والذى يضير هو أن يكون الفن زيفا أو تهريجا لا طعم له ولا لون غير النزول بالإنسانية إلى البهيمية وبالسمو إلى الضعة ، وظاهر أن غض البصر أسلم لقوله تعالى : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » ، ولذا قال ابن القيم فى كتاب الداء والدواء « العشق قسمان : عشق الرجل امرأته وجاريته وهو نافع فإنه أدعى إلى المقاصد التى شرع الله لها النكاح وأكف للبصر والقلب عن التطلع إلى غير أهله ، وعشق هو مقت من الله وبعد من رحمته وهو أضر على العبد فى دينه وهو عشق غير امرأته وهو من أعظم الحجب القاطعة عن الله » ، فهل النظرة العابرة لجمال برىء تعد عشقا أم تعد لهوا ؟ ثم هل ينظر الناس جميعا للجمال نظرة بريئة عابرة أم ينظرون نظرة بهيمية تعد مقتا ؟ لا ريب فى أن النادر هو من يسلم من سوء النظرة وإن سلم فأسلم له أن يبتعد عن العبث بالنار لئلا تحرقه وتجرفه « ومن حام حول الحمى ، أوشك أن يقع فيه » ! !

ويقول ابن تيمية إن النظر إلى وجه الأمرد لشهوة حرام كالنظر إلى وجه ذات المحارم والمرأة الأجنبية بالشهوة سواء كانت الشهوة شهوة الوطء أو شهوة التلذذ بالنظر باتفاق الأئمة ، ويرد على قول بعض مخالفى الشريعة من الصوفيين أن النظر إلى وجه الصبى الأمرد الحسن عبادة ، بأن من جعل هذا النظر الحرام عبادة ، كان بمنزلة من جعل الفواحش عبادة ، وقد يكون فى صور النساء

---

(١) راجع ص ٤٤ — ٤٦ من خطرات نفس لأستاذنا الدكتور منصور فهمى .

الأجنبيات وذوات المحارم من الاعتبار والدلالة على الخالق من جنس ما فى صور المرد ، فهل يقول مسلم إن للإنسان أن ينظر بهذا الوجه إلى صور نساء العالم وصور محارمه ويقول إن ذلك عبادة ؟ بل من جعل مثل هذا النظر عبادة فإنه كافر مرتد يجب أن يستتاب وإلا قتل ، وهو بمنزلة من جعل إعانة طالب الفواحش عبادة ، والخالق سبحانه يسبح عند رؤية مخلوقاته كلها ، وليس خلق الأمرد بأعجب فى قدرته من خلق ذى اللحية ، ولا خلق النساء بأعجب فى قدرته من خلق الرجال ، بل تخصيص الإنسان بالتسبيح — كقوله سبحان الذى خلقه — بحال نظره إلى الأمرد دون غيره كتخصيصه التسبيح بنظره إلى المرأة دون الرجال ، وما ذلك لأنه قد دل على عظمة الخالق عنده ، ولكن لأن الجمال يغير قلبه وعقله ، وقد يذهله ما رآه فيكون تسبيحه بما يحصل فى نفسه من الهوى ، لأن بغض البصر ثلاث فوائد : حلاوة الإيمان ولذته وأنه يورث نور القلب والفراسة وقوته وثباته وشجاعته وعزته[1] !

أما معاشرة المرد كما يفعل بعض الصوفية ، فقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن حكم الله تعالى فى أقوام يعاشرون المردان وقد يقع من أحدهم قبلة ومضاجعة للصبى ويدعون أنهم يصحبون لله ولا يعدون ذلك ذنبا ولا عارا ويقولون « نحن نصحبهم بغير خنا » ويعلم أبو الصبى بذلك وعمه وأخوه فلا ينكرون ، فأجاب بما خلاصته : الصبى الأمرد المليح بمنزلة المرأة الأجنبية فى كثير من الأمور ولا يجوز النظر إليه على هذا الوجه باتفاق الناس ، بل يحرم عند جمهورهم النظر إليه عند خوف ذلك ، وإنما ينظر إليه لحاجة بلا ريبة مثل معاملته والشهادة عليه ونحو ذلك ، كما ينظر إلى المرأة للحاجة ، وأما مضاجعته فهذا أفحش من أن يسأل عنه . فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال : مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم لعشر وفرقوا بينهم فى المضاجع إذا بلغوا عشر سنين ولم يحتلموا بعد ، فكيف بما هو فوق ذلك ؟ وأما قول القائل إنه يعمل ذلك لله فهذا أكثره كذب ، وقد يكون لله مع هوى النفس كمن يدعى

(١) راجع ص ٤٨ — ٥٦ من فتاوى ابن تيمية المجلد الأول .

مثل ذلك فى صحبة النساء الأجانب ، فيبقى كما قال الله تعالى فى الخمر والميسر « فيهما إثم كبير ومنافع للناس وأثمهما أكبر من نفعهما »[1] .

ولقد ذكر ابن الجوزى أن من تلبيس إبليس للصوفية من قارب الفتنة فوقع فيها ولم تنفعه دعوى الصبر والمجاهدة ، فعن إدريس بن ادريس قال : حضرت بمصر قوما من الصوفية ولهم غلام أمرد يغنيهم ، فغلب على رجل منهم أمره فلم يدر ما يصنع فقال : ياهذا قل «لا إله إلا الله» فقال الغلام « لا إله إلا الله » فقال « أقبل الفم الذى قال لا إله إلا الله »[2] !

هذا ولقد ذهب بعض معتنق هـذا المذهب إلى حد المجادلة فيما هل يكون فى الجنة إتيان الذكور أم لا ؟ فقد ذكر ابن عابدين فى الجزء الثالث من حاشية الدر المختار ص ٢١٥ أن السيوطى قال : قال ابن عقيل الحنبلى جرت مسألة بين أبى على بن الوليد المعتزلى وبين أبى يوسف القزوينى فى ذلك ، فقال ابن الوليد إنه لا يمنع أن يجعل ذلك من جملة اللذات فى الجنة لزوال المفسدة لأنه إنما منع فى الدنيا لما فيه من قطع النسل وكونه محلا للأذى وليس فى الجنة ذلك ، ولهذا أبيح شرب الخمر لما ليس فيه من السكر وغاية العربدة وزوال العقل ، فلذلك لم يمنع من الالتذاذ بها ، فقال أبو يوسف الميل إلى الذكور عاهة وهو قبيح فى نفسه ، ولهذا لم يبح فى شريعة بخلاف الخمر ، وهو مخرج الحدث ، والجنة نزهت عن العاهات ، فقال ابن الوليد : العاهة هى التلويث بالأذى فإذن لم يبق إلا مجرد الالتذاذ ، والظاهر أن المراد بالحرمة هنا القبح إطلاقا لاسم المسبب على السبب أى قبحها عقلى بمعنى أن يدرك بالعقل وإن لم يرد به الشرع كالظلم والكفر ، لأن مذهبنا أن لا يحرم بالعقل شىء (أى لا يكون العقل حاكما بحرمته) ، وإنما ذلك لله تعالى ، بل العقل مدرك لحسن بعض المأمورات وقبح بعض المنهيات ، فيأتى الشرع حاكما يوفق ذلك ، فيأمر بالحسن وينهى عن القبيح ، وعند المعتزلة يجب ما حسن عقلا ويحرم ما قبح ، وإن لم يرد

---

(١) راجع ٢١١ و ٢١٢ من فتاوى ابن تيمية المجلد الثانى .

(٢) راجع ص ٢٧٣ من تلبيس ابليس لابن الجوزى . وراجع ص ٢٨١ — ٢٨٩ من وحى الأحاديث المحمدية الجزء الثانى لمحمود على قراعة .

الشرع بوجوبه أو حرمته ، فالعقل عندهم هو المثبت ، وعندنا المثبت هو الشرع، والعقل آلة لإدراك الحسن والقبيح قبل الشرع ، وعند الأشاعرة لاحظ للعقل قبل الشرع ، بل العقل تابع للشرع فما أمر به يعلم بالعقل أنه حسن ، وما نهى عنه يعلم أنه قبيح ، فلا تكون فى الجنة على الصحيح لأنه تعالى استقبحها وسماها خبيثة والجنة منزهة عنها ، وفى الأشباه : حرمتها عقلية فلا وجود لها فى الجنة ، وقيل سمعية فتوجد ، وقيل : « يخلق الله تعالى طائفة نصفهم الأعلى كالذكور والأسفل كالإناث » !

فانظر كيف ذهب بهم فهمهم الحسى ، إذ لو أخذنا برأيهم الحسى لقلنا إن المراد بالولدان أن يفهم ذكرهم هذا الفهم السقيم ! وحاشا لله أن يكون كذلك الفهم ! والأقرب إلى العقل والفهم السليم أن يكون ذكر الولدان الذين يخدمون فى الجنة : هو التمتع بالفكرة الروحية التى يبعثها الجمال الحسى ، وإنه إن جاز أن نأخذ فى ذكر الحور العين باللذة الحسية ، فإنه لا يجوز أن يفهم هذا عند ذكر الولدان[1] .

(١٢) الإسلام لا يكره الغنى : كان نبينا الكريم فقيرا فى المادة قبل البعثة ، زاهدا فيما آتاه الله من غنى بعدها ، ولكن روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه تعوذ بالله من الفقر وقال : « أسألك غناى وغنى مولاى » ثم روى عنه أنه قال « اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين » وأنه قال « الفقر بالمؤمن أحسن من العذار الحسن على خد الفرس » ، واعترض قوم بوجود تناقض واختلاف فى هذا ، فرد عليهم ابن قتيبة بما خلاصته أنه ليس

(١) راجع مجلة الرسالة العدد ٣١٥ س ٧ ص ١٤٢٥ و ١٤٢٦ لمحمود على قراءة ص ١٣٣ — ١٣٥ من نعيم الجنة الطبعة الثانية لمحمود على قراءة . ومن الفهم الخاطئ ما ذكرته مجلة المختار عدد يناير سنة ١٩٥٦ ص ٩٤ من أن الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الجامع الأزهر السابق تحدث عن باريس فقال : « باريس عاصمة الدنيا » ولو أن الآخرة عاصمتها لكانت باريس » وهل غير باريس للحور والولدان والجنات والنيران والصراط والميزان والفجار والصالحين والملائكة والشياطين» ونحن لمعرفتنا الوثيقة بأستاذنا وبله تنكر نسبة هذه الكلمة له ، ونقرر أنه لو صح كتابته لها ، فإما أن تكون قد كتبت فى زمان طيش الشباب أو دست عليه ! غفر الله لكاتبها وسائح الله ناشرها !

ههنا اختلاف بحمد الله تعالى ، لأن المسكنة فى قوله احشرنى مسكينا : التواضع والاخبات ، كأنه سأل الله تعالى أن لا يجعله من الجبارين والمتكبرين ولا يحشره فى زمرتهم ، والمسكنة مأخوذة من السكون ، يقال تمسكن الرجل إذا لان وتواضع وخشع وخضع ، ومن قول النبى صلى الله عليه وسلم للمصلى تبأس[1] وتمسكن وتقنع رأسك ، يريد تخشع وتواضع لله عز وجل ، ومن الدليل على ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان سأل الله عز وجل المسكنة التى هى الفقر ، لكان الله تعالى قد منعه ما سأله لأنه قبضه غنيا موسراً بما أفاء الله عز وجل عليه — وإن كان لم يضع درهما على درهم ، وأما قوله إن الفقر بالمؤمن أحسن من العذار الحسن على خد الفرس ، فإن الفقر مصيبة من مصائب الدنيا عظيمة ، فمن صبر على المصيبة لله تعالى ورضى بقسمه[2] زانه الله تعالى بذلك فى الدنيا وأعظم الثواب فى الآخرة ، وإنما مثل الفقر والغنى كمثل السقم والعافية ممن ابتلاه الله تعالى بالسقم فصبر كان كمن ابتلى بالفقر فصبر ، وليس ما جعل الله تعالى فى ذلك بما نعنا من أن نسأل الله العافية ونرغب إليه فى السلامة ، وغلط قوم ذهبوا إلى أنه كان يتعوذ بالله تعالى من فقر النفس (محتجين بقول الناس فلان فقير النفس وإن كان حسن الحال وغنيها وإن كان سيء الحال) لأن الله عز وجل استعبد عباده بأن يقولوا اللهم ارزقنا اللهم عافنا ! وبأن يقولوا اللهم لا تبلنا إلا بالتى هى أحسن ! يريدون لا تختبرنا إلا بالخير ولا تختبرنا بالشر ، لأن الله تعالى يختبر عباده بهما ليعلم كيف شكرهم وصبرهم وقال « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » أى اختبارا !

وعلى هذا فلا ضير فى أن يرغب كل منا فى المال وفى أن يسأل الله عز وجل الغنى ويعوذ به من الفقر ، على أن تكون وجهته إنفاق المال فى ضرورياته من غذاء حسن وسكن صحى وملبس نظيف لائق ، وفى سبيل الخير من تعليم أولاده وتكميلهم وتثقيفهم ، وفى البر بذوى الحاجة فى ادخار جزء ليقيه وأولاده شر الحاجة ، إذ هذا هو الإنفاق الشرعى الوسط بين التبذير والتقتير ،

---

(١) من البؤس وهو الخضوع والفقر . (٢) بسكون السين وفى نسخة بقسمته .

وهذا هو الغنى الذى لا يؤذى صاحبه والذى به يقدم الإنسان لحياته ، يقدم لحياته فى العمل له لا لمظاهره الكاذبة ، بل ليكون به قويا يستطيع أن يخدم ربه ودينه ويحسن الإنفاق على نفسه وأهله وولده والمحتاج من عشيرته[1] !

وكذا يجب تأويل الحديث المروى عن صفوان بن سليم إذ قال قلنا يا رسول الله أيكون المؤمن جبانا ؟ قال نعم ! قلنا أفيكون بخيلا ؟ قال نعم ! قلنا أفيكون كذابا ؟ قال : لا ! إذ المراد الجبن والبخل الظاهران اللذان هما فى الحقيقة شجاعة وكرما ، إذ المعروف أن الشجاعة هى أن تقدم حينما ترى الإقدام عزما وتحجم حينما ترى الإحجام حزما ، والكرم أن تضع الأمور فى مواضعها بأن تكون وسطا بين التقتير والتبذير وأن تنفق حيث يستحب الإنفاق وتمسك حيث يكره ، وإلا فإن المؤمن لا يكون جبانا ولا بخيلا لأن الإيمان يوثق فى نفسه المعرفة ، والمعرفة تحول بينه وبين المعانى الدافعة للجبن ، على تكبيره دوما فى صلاته واستحضاره فى كل سويعات حياته معانى الله أكبر ، وقول الله أكبر يدعو المسلم الحق المؤمن إلى أن يرفع الرأس عالية ويعمل للمجد ولا يرى غير الله إذ تذوى كل عظمة أمام جبروته وتصغر كل عزة أمام عزته ، وقول الله أكبر يدعوه إلى أن يخشى الله ولا يخشى الناس ، فهو بعزة الحق يجاهد ولا يبالى وهو بعزة الحق كبير مهما صغر وهو بعزة الحق عظيم مهما ضؤل ، وهو بعزة الحق يجاهد فى سبيل الحق غير وان ولا وكل ، والمؤمن كذلك كريم لكنه حازم فى كرمه يضع كل أمر فى نصابه ، ثم إنه إذا كان فى أول مراتب إيمانه جبانا بخيلا ، فإنه سيرقى ولا ريب فى أن يكون شجاعا كريما ، لأن النور يمحو الظلام ولأن الحق يدفع الباطل ولأن القوة تجرف أمامها الضعف[2] !

(١) راجع ص ٣٥ و ١٠٢ و ٤٩٢ — ٤٩٦ من وحى الأحاديث المحمدية الجزء الأول لمحمود على قراعة و ٢٠٨ — ٢١١ من تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة .

(٢) راجع ص ٧٣ و ٧٤ من وحى الأحاديث المحمدية الجزء الثانى لمحمود على قراعة .

الفصل الثالث

الإسلام والمعانى الجنسية

« من أطاع الله فقد ذكر الله تعالى ، وإن قلت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن ، ومن عصى الله فقد نسى الله وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن » .

حديث شريف

(١) كان النبى عليه الصلاة والسلام قوى الحب للنظافة وللطهارة الجسمية واتباعها بالقوة الروحية ، فكان يكره القيام بالبول قائما ويكره استقبال القبلة عند قضاء الحاجة أو استدبارها وسن البعد عن الأنظار عند القيام بها والتنظيف بالماء والأحجار بعدها ، على استعاذة من الخبث وحمد لله على إبعاد الأذى وإجلال لأن يذكر اسم الله فى هذه الحالة أو فى تلك الأمكنة مع حرص على ذكره فكان يذكر بعدها كلمة غفرانك[1] وكلها معان نبيلة تتصل بالنظافة المادية البالغة والحرص الشديد على الطهارة الجسمية والمتابعة للطهارة الروحية ، ومن ذلك ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من أتى حائضا فى فرجها أو امرأة فى دبرها أو كاهنا ، فقد برىء مما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم[2] إذ أنزل الله تعالى عليه « ويسألونك عن المحيض ، قل هو أذى ، فاعتزلوا النساء فى المحيض » . وقد فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الاعتزال بقوله « اصنعوا كل شىء إلا النكاح »[3] .

ومن سنن الإسلام الاستنجاء باستعمال الأحجار أو الماء[4] . ومن آدابه ما ذكره ابن عابدين فى قوله : « إذا أراد أن يدخل الخلاء ينبغى أن يقوم قبل

---

(١) راجع ص ١١٣ من وحى الأحاديث المحمدية الجزء الأول لمحمود على قراعة و ١٥٦ و ١٨٤ و ١٩٥ الجزء الثانى .

(٢) أخرجه الترمذى . (٣) من حديث عن أنس أخرجه الخمسة إلا البخارى .

(٤) أوورق التوالت والماء ، كما هو الحاصل الآن !

أن يغلبه الخارج ولا يصحبه شيء عليه إسم معظم ولا حاسر الرأس ولا مع القلنسوة بلا شيء عليها ، فإذا وصل إلى الباب يبدأ بالتسمية قبل الدعاء فيقول بسم الله اللهم إنى أعوذ بك من الخبث والخبائث ، ثم يدخل باليسرى ولا يكشف قبل أن يدنو إلى القعود ، ثم يوسع بين رجليه ويميل على رجله اليسرى ولا يفكر فى أمر الآخرة كالفقه والعلم ولا يرد سلاما ولا يجيب مؤذنا ، فإن عطس حمد الله بقلبه ، ولا ينظر إلى عورته ولا إلى ما يخرج منه ولا يبزق فى البول ولا يطيل القعود فإنه يولد الباسور ولا يتنحنح ولا يكثر الالتفات ولا يعبث ببدنه ولا يرفع بصره إلى السماء وينكس رأسه حياء مما ابتلى به ويجتهد فى الاستفراغ من الخارج[1] ثم يقعد للاستنجاء بالماء ويبدأ بغسل يديه ثلاثا ثم يفيض الماء باليمنى على فرجه ويعلى الإناء ويغسل فرجه باليسرى ويبدأ بالقبل ثم بالدبر ، ثم يرخى مقعدته ثلاثا ويدلك كل مرة فينشف بخرقة قبل أن يجمعه ، وينشف فرجه بخرقة نظيفة فإن لم تكن معه يمسح بيده مرارا ، ويطهر يده بالماء ثلاثا حتى تذهب العين والرائحة[2] .

(٢) ومن سنن الإسلام الاختتان ويقول ابن تيمية إن المقصود بختان الرجل تطهيره من النجاسة المحتقنة فى القلفة ، والمقصود من ختان المرأة تعديل شهوتها بأن تقطع أعلى الجلدة التى كعرف الديك ، فإنها إذا كانت قلفاء كانت مغتلمة شديدة الشهوة ، وإذا حصل المبالغة فى الختان ضعفت الشهوة ، فإذا قطع من غير مبالغة حصل المقصود باعتدال[3] .

(٣) ومن سنن الإسلام الغسل عند الجماع أو الاحتلام فى المنام أو الانزال بضم أو نظر أو قبلة أو تفخيذ أو تبطين ، وحكمها من وجهة الحرمة والحل أنها حلال إن كانت للزوجة وحرام إن كانت لغير ذلك . أما إتيان

(١) الخارج ما يخرج من براز وغيره ، ويريد بالاستفراغ منه إزالته بالدفن بالتراب مثلا أو (السيفون) ، كما هو الحاصل الآن .

(٢) راجع ص ٣١٩ و ٣٢٠ من حاشية ابن عابدين وص ٢٤٢ إلى ٢٤٤ من وحى الأحاديث المحمدية الجزء الثانى لمحمود على قراعة .

(٣) راجع ٤٣ و ٤٤ من فتاوى ابن تيمية المجلد الأول .

البهيمة والميتة والاستمناء باليد واللواط والسحاق[1] وإتيان الرجل امرأته فى دبرها أو إتيانها وهى حائض، فحرام، ولكن يغتسل منها للتطهير الحسى وإن كانت حرمتها لا تطهرها إلا التوبة[2].

(٤) وللفقهاء فى نقض الوضوء بلمس النساء ثلاثة أقوال طرفان ووسط نلخصها عن تقى الدين بن تيمية فيما يلى : (أضعفها) أن ينقض اللمس وإن لم يكن لشهوة إذا كان الملموس مظنة للشهوة، وهو قول الشافعى تمسكا بقوله تعالى « أو لامستم النساء » وفى القراءة الأخرى أو لمستم (القول الثانى) إن اللمس لا ينقض بحال وإن كان لشهوة كقول أبى حنيفة وغيره، وكلا القولين يذكر رواية عن أحمد لكن مذهبه كمذهب مالك والفقهاء السبعة إن اللمس إن كان لشهودة نقض وإلا فلا . ويرى ابن تيمية أن تعليق النقض بمجرد اللمس خلاف الأصول وخلاف إجماع الصحابة وخلاف الآثار وليس مع قائله نص ولا قياس، فمن زعم أن قوله تعالى « أو لامستم النساء » يتناول اللمس (كاللمس باليد والقبلة) وإن لم يكن لشهوة، فقد خرج عن اللغة التى جاء بها القرآن بل وعن لغة الناس فى عرفهم، فإذا ذكر المس الذى يقرب فيه بين الرجل والمرأة، علم أنه مس الشهوة، كما إذا ذكر الوطء المقرون بين الرجل والمرأة علم أنه الوطء بالفرج لا بالقدم، وأيضا فإنه لا يقول إن الحكم معلق بلمس النساء مطلقا بل لصنف من النساء وهو ما كان مظنة الشهوة وأما مس من لا يكون مظنة (كذوات المحارم والصغيرة) فلا ينقض بها، فقد ترك ما ادعاه بين الظاهر واشترط شرطا لا أصل له بنص ولا قياس، فإن الأصول المنصوصة تفرق بين اللمس لشهوة واللمس لغير شهوة ولا تفرق بين أن يكون الملموس مظنة الشهوة أو لا يكون . وأما من علق النقض بالشهوة فالظاهر المعروف فى مثل ذلك دليل له وقياس أصول الشريعة دليل، ومن

(١) ارتكاب الفاحشة بين اثنين بمباشرة فرج بفرج .

(٢) راجع ص ٦٢ من فتاوى ابن تيمية ج ١، ووحى الأحاديث المحمدية الجزء الأول لمحمود على قراعة ص ٢٤٠ — ٣٤٧ .

لم يجعل اللمس ناقضاً بحال فإنه يجعل اللمس إنما أريد به الجماع كما فى قوله تعالى « وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن » .

أما مس الأمرد ففيه قولان فى مذهب أحمد وغيره (أحدهما) أنه كمس النساء لشهوة ينقض الوضوء وهو المشهور من مذهب مالك ذكره القاضى أبو يعلى فى شرح المذهب (والثانى) أنه لاينقض الوضوء وهو المشهور من مذهب الشافعى ، والقول الأول أظهر ، فلو مس الأمرد لشهوة وجب أن يكون كما لومس المرأة لشهوة فى نقض الوضوء ، والذى لم ينقض الوضوء بمسه يقول إنه لم يخلق محلا لذلك ، فيقال له لاريب أنه لم يخلق لذلك وأن الفاحشة اللوطية من أعظم المحرمات ، لكن هـذا القدر لم يعتبر فى باب الوطء فإن وطىء فى الدبر تعلق به ماذكر من الأحكام وإن كان الدبر لم يخلق محلا للوطء مع أن أن نفرة الطباع عن الوطء فى الدبر أعظم من نفرتها عن الملامسة . ونقض الوضوء بالمس يراعى فيه حقيقة الحكمة وهو أن يكون المس لشهوة عند الأكثرين كمالك وأحمد وغيرهما ، وعلى هذا القول فحيث وجد اللمس لشهوة تعلق به الحكم حتى لو مس أمه وأخته وبنته لشهوة انتقض وضوءه فكذلك الأمرد ، وأما الشافعى وأحمد فى رواية فتعتبر المظنة وهو أن النساء مظنة الشهوة فينقض الوضوء سواء لشهوة أو لغير شهوة ، ولهذا لاينقض لمس المحارم لكن لو مس ذوات محارمه لشهوة فقد وجدت حقيقة الحكمة وكذلك إذا مس الأمرد لشهوة ، والتلذذ بمس الأمرد كمصافحته ونحو ذلك حرام بإجماع المسلمين كما يحرم التلذذ بمس ذوات محارمه والمرأة الأجنبية ، بل الذى عليه أكثر العلماء أن ذلك أعظم إثماً من التلذذ بالمرأة الأجنبية ، على أن عقوبة اللوطى أعظم من عقوبة الزنا بالأجنبية ، فيجب قتل الفاعل والمفعول به[1] .

هذا وقد ذكر ابن تيمية فى (الاختيارات العلمية) أنه يستحب الوضوء عقيب الذنب ومن مس الذكر إذا تحركت الشهوة بمسه ، وتردد فيما إذا لم

(١) راجع ص ٤٨ — ٥٦ و ١١٠ من فتاوى ابن تيمية ج ١ و ٣٥٧ و ٣٥٨ ج ٢ .

تتحرك[١] . وأما مس فرج الحيوان غير الإنسان فلا ينقض الوضوء حيا ولا ميتا باتفاق الأئمة[٢] ، ونرى أن مس الطبيب لفرج المرأة بحكم مهنته يوجب الوضوء لأنه وإن كان مسا اضطراريا المفروض فيه تجرده من الشهوة إلا أنه مس قذر يوجب الطهارة الصغرى وهى الوضوء[٣] .

(٥) ولقد استنكر الإسلام كشف العورات ، ويقول ابن عابدين الركبة عورة لرواية الدارقطنى « ما تحت السرة إلى الركبة عورة » والركبة كما فى (الهداية) هى ملتقى عظمى الساق والفخذ . وفى (البرجندى) ما تحت السرة هو ما تحت الخط الذى يمر بالسرة ويدور على محيط بدنه بحيث يكون بعده عن موقعه فى جميع جوانب جسمه على السواء ، وفى (الهداية) السرة ليست بعورة (خلافا لأبى عصمة والشافعى) والركبة عورة (خلافا للشافعى) والفخذ عورة (خلافا لأصحاب الظواهر) وما دون السرة إلى منبت الشعر عورة (خلافا لابن الفضل معتمدا فيه العادة لأنه لا يعتبر بالعادة مع النص بخلافها) ، وحكم العورة فى الركبة أخف منه فى الفخذ وفى الفخذ أخف منه فى السرة ، حتى أن كاشف الركبة ينكر عليه برفق وكاشف السوأة يؤدب عليه إن لج ، ونقل عن الزاهدى إنه لو نظر لعورة غيره بإذنه لم يأثم ، قال ابن عابدين وفيه نظر ظاهر بل لفظ الزاهدى « نظر لعورة غيره وهى بادية لم يأثم » ، وقد قال الإتقانى عن أبى يوسف إنه يباح النظر إلى ساعدها ومرفقها للحاجة إلى إبدائهما إذا أجرت نفسها للطبخ والخبز وغسل الثياب ، وعن أبى يوسف أنه يباح النظر إلى ذراعها أيضا لأنه يبدو عادة[٤] ، ولكن فى هذا القول

---

(١) لقوله عليه الصلاة والسلام هل هو إلا مضغة (أوقال) بضعة منه !

(٢) وذكر بعض المتأخرين من أصحاب الشافعى فيه وجهين. راجع ص ٤٨ من فتاوى ابن تيمية

(٣) راجع ص ٣٠٠ — ٣٠٦ من وحى الأحاديث المحمدية ج ٢ لمحمود على قراعة .

(٤) راجع ص ٣٢٠ — ٣٢٤ من ابن عابدين ج ١ . والعورة صنفان : أحدهما فرج الرجل والمرأة والدبر منهما وهذا هو عين العورة والذى يجب عليهما أن يستراه فى كل موضع وعلى كل حال والعورة الأخرى ما داناهما من الفخذ ومن مراق البطن (مارق منه) وسمى ذلك عورة لاحاطته بالعورة ودنوه منها ، وهذه لا يحسن به أن يظهرها بين الناس . راجع ص ٤١٥ — ٤١٨ من تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة .

نظر لأن الذى يتولى الإشراف على الخادمة هى زوجته ، وهو لايجوز له الاختلاء بها ، ولا يجوز التوسع فى الإباحة لغير ضرورة لها .

هذا ولقد ذكر حجة الإسلام الغزالى فى الإحياء أن من منكرات الحمام كشف العورات والنظر إليها ، ومن جملتها كشف الدلاك عن الفخذ وما تحت السرة لتنحية الوسخ ، بل من جملتها إدخال اليد تحت الإزار ، فإن مس عورة الغير حرام كالنظر إليها ، ومنها الإنبطاح على الوجه بين يدى الدلاك لتغميز الأفخاذ والأعجاز . فهذا مكروه إن كان مع حائل ، ولكن لايكون محظورا إذا لم يخش من حركة الشهوة ، وكذلك كشف العورة للحجام الذمى من الفواحش ، فإن المرأة لايجوز لها أن تكشف بدنها للذمية فى الحمام . فكيف يجوز لها كشف العورات للرجال[1] . والذمية كالرجل الأجنبى فى الأصح فلا تنظر إلى بدن المسلمة . ولا ينبغى للمرأة الصالحة أن تنظر إليها المرأة الفاجرة . لأنها تصفها عند الرجال ، وتنظر المرأة المسلمة من المرأة كالرجل من الرجل وقيل كالرجل لمحرمه ، والأول أصح . وكذا تنظر المرأة من الرجل كنظر الرجل للرجل إن أمنت شهوتها ، فلو لم تأمن أو خافت أوشكت ، حرم استحسانا كالرجل ، والخصى والمجبوب والمخنث فى النظر إلى الأجنبية كالفحل . ونص الفقهاء على أن عبدها كالأجنبى معها . لأن خوف الفتنة منه كالأجنبى بل أكثر لكثرة الاجتماع به ، والنصوص المحرمة مطلقة ، والمراد من قوله تعالى « أو ماملكت أيمانهن » الإماء دون العبيد . قاله الحسن ابن جبير[2] . وهذا أبلغ رد على الذين لايرون بأسا من اجتماع نسائهم بالخدم ومن إليهم والتساهل فى هذا الاجتماع . كأن الخدم قد عدموا الشهوة أو كأنهم قد خلصوا من البشرية وضعفها . فتكون النتيجة مانرى وما نسمع من مآس فاضحة بينهم وبين سيداتهن وبنات سيداتهن ، وعند الزمالك والأحياء الراقية الخبر اليقين[3] !

(١) راجع ص ٢٣٥ من احياء علوم الدين للغزالى جـ٢ .

(٢) راجع ص ٣٢٦ و ٣٢٧ من ابن عابدين جـ٥ .

(٣) راجع ص ٣٦٨ و ٣٦٩ من وحى الأحاديث المحمدية ٢ لمحمود على قراعة . ولقد حدثنى مرة لبيدى براييد قائلة إن الاختلاط عند الانجليز أصبح من عاداتهم وجزءاً من تقاليدهم ==

(٦) ما حكم الشرع فى النظر إلى الوجه وإلى الجسم ؟

ذكر ابن عابدين فى حاشيته « رد المحتار على الدر المختار ما خلاصته : فى (الذخيرة) وغيرها ، وإن كان على المرأة ثياب فلا بأس أن يتأمل جسدها ! وهذا إذا لم تكن ثيابها ملتزقة بها بحيث تصف ما تحتها ولم يكن رقيقا بحيث يصف ما تحته ! فإن كانت بخلاف ذلك ، فينبغى له أن يغض بصره ، وفى (التبيين) قالوا : ولا بأس بالتأمل فى جسدها وعليها ثياب ما لم يكن ثوب يبين حجمها فلا ينظر إليه حينئذ لقوله عليه الصلاة والسلام « من تأمل خلف امرأة ورأى ثيابها حتى تبين له حجم عظامها ، لم يرح رائحة الجنة » ولأنه متى لم يصف ثيابها ما تحتها من جسدها ، يكون الناظر إلى ثيابها وقامتها دون أعضائها ، فصار كما إذا نظر إلى خيمة هى فيها ، ومتى كان يصف يكون ناظراً إلى أعضائها ، ويقول ابن عابدين إن مفاده أن رؤية الثوب بحيث يصف حجم العضو ، ممنوعة ولو كثيفا لا ترى البشرة منه . وعلى هذا لا يحل النظر إلى عورة غيره فوق ثوب ملتزق بهـا يصف حجمها ، فيحمل ما مر على إذا لم يصف حجمها !

فهل يجوز للرجل النظر إلى فرج امرأته وبالعكس ؟ قال فى (الهداية) الأولى أن لا ينظر كل واحد منهما إلى عورة صاحبه لقوله عليه الصلاة والسلام « إذا أتى أحدكم أهله فليستتر ما استطاع ولا يتجردان تجرد العير » ولأن ذلك يورث النسيان ويضعف البصر لورود الأثر ، وكان ابن عمر رضى الله تعالى عنهما يقول : الأولى أن ينظر ليكون أبلغ فى تحصيل معنى اللذة ، ويقول ابن عابدين : لكن فى شرحها للعينى أن هذا لم يثبت عن ابن عمر لا بسند صحيح ولا بسند ضعيف ، وفى (الذخيرة) عن أبى يوسف : سألت أبا حنيفة عن

ولذلك لا ينتج الآثار السيئة التى ينتجها عند كثير من الأمم الشرقية ، لأنه يبدأ عندهم من الصغر ، ولكن مدام بنوا عقبت على ذلك بقولها لى عند زيارتها لى فى صيف سنة ١٩٣٧ إنه كثير الأضرار فى أوربا حتى أن الكثير من الأسر المحترمة تعمد إلى قصره على أسر بعض الأصدقاء الموثوق فى أخلاقهم ، على أن ذلك لايخلو من أضرار لأن الكثيرين لايحققون الثقة فيهم . راجع ٢٩ — ٦٥ من الحياة الزوجية لمحمود على قراعة .

الرجل يمس فرج امرأته وهى تمس فرجه ليتحرك عليها ، هل ترى بذلك بأسا ؟ قال : لا ! وأرجو أن يعظم الأجر !

قالوا ويجوز أن ينظر من محرمه (وهى من لا يحل له نكاحها أبدا بنسب أو سبب ولو بزنا) إلى الرأس والوجه والصدر والساق والعضد إن أمن شهوته وشهوتها أيضا ، وما حل نظره من ذكر أو أنثى ، حل لمسه إذا أمن الشهوة على نفسه وعليها لأنه عليه الصلاة والسلام كان يقبل رأس فاطمة ، وقال عليه الصلاة والسلام « من قبل رجل أمه فكأنما قبل عتبة الجنة » وإن لم يأمن ذلك أوشك ، فلا يحل له النظر والمس ، وأما الأجنبية فلا يحل مس وجهها وكفها وإن أمن الشهوة لأنه أغلظ ولذا تثبت به حرمة المصاهرة ، وهذا فى الشابة ، أما العجوز التى لا تشتهى فلا بأس بمصافحتها ومس يدها إذا أمن ، ومتى جاز المس جاز سفره بها ويخلو إذا أمن عليها وعليه . وإلا لا ، والخلوة بالمحرم مباحة إلا لأخت رضاعا والصهرة الشابة ، قال فى القنية : ماتت عن زوج وأم ، فلهما أن يسكنا فى دار واحدة إذا لم يخافا الفتنة ، وإذا كانت الصهرة شابة فللجيران أن يمنعوها إذا خافوا عليها الفتنة ، ويقول ابن عابدين إن إصهار الرجل كل ذى رحم محرم من زوجته على اختيار محمد ، والمسئلة مفروضة هنا فى أمها ، والعلة تفيد أن الحكم كذلك فى بنتها ونحوها .

فهل يجوز الكلام مع الأجنبية ؟ إلا تكن عجوزا بل شابة لا يشتهيها ولا يرد السلام بلسانه ، قال فى (الخانية) وكذا الرجل إذا سلم على امرأة أجنبية ، فالجواب على العكس ، وفى (الذخيرة) إذا عطس فشمتته المرأة ، فإن عجوزا رد عليها وإلا ردفى نفسه ، وكذا لو عطست هى كما فى (الخلاصة) ، وفى (المجتبى) أنه لا بأس بأن يتكلم مع النساء بما لا يحتاج إليه ، وليس هذا من الخوض فيما لا يعنيه ، إنما ذلك فى كلام فيه إثم ، وصوت المرأة عورة على الراجح .

وفى شرح الكرخى : النظر إلى وجه الأجنبية الحرة ليس بحرام ولكنه يكره لغير حاجة وإلا فحرام ، ويقول ابن عابدين إن ظاهره الكراهة

ولو بلا شهوة وإن كان عن شهوة حرم ، وأما فى زماننا فيمنع من الشابة ، ويجب على الشاهد والقاضى أن يقصد الشهادة أو الحكم لا قضاء الشهوة تحرزا عن القبيح ، ولو أراد أن يتزوج فلا بأس أن ينظر إليها وإن خاف أن يشتهيها لقوله عليه الصلاة والسلام للمغيرة بن شعبة حين خطب امرأة « انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » رواه الترمذى والنسائى وغيرهما ، لأن المقصود إقامة السنة لا قضاء الشهوة ، وفى « درر البحار وشرحه » لا يحل المس للقاضى والشاهد والخاطب وإن أمنوا الشهوة لعدم الحاجة ، فلو كان للمرأة ابن أمرد وبلغ للخاطب استواؤهما فى الحسن ، فظاهر تخصيص النظر إليها أنه لا يحل للخاطب النظر إلى ابنها إذا خاف الشهوة ومثله بنتها ، وتقييد الاستثناء بما كان لحاجة أنه لو اكتفى بالنظر إليها بمرة ، حرم الزائد لأنه أبيح لضرورة فيتقيد بها ، وظاهر ما فى (غرر الأفكار) جواز النظر إلى الكفين أيضا ، ويقول ابن عابدين إنه يظهر من كلامهم أنه إذا لم يمكنه النظر ، يجوز إرسال نحو امرأة تصف له حلاها بالطريق الأولى ولو غير الوجه والكفين ، فهل يحل لها أن تنظر للخاطب مع خوف الشهوة ! الظاهر نعم للاشتراك فى العلة المذكورة فى الحديث السابق بل هى أولى منـــه فى ذلك لأنه يمكنه مفارقة من لا يرضاها بخلافها .

وينظر الطبيب إلى موضع مرضها بقدر الضرورة إذ الضرورات تقدر بقدرها ، وكذا نظر قابلة وختان ، ويجوز أن ينظر إلى موضع الاحتقان لأنه مداواة ، ويجوز الاحتقان للمرض وكذا للهزال الفاحش ، وقال فى (الجوهرة) إذا كان المرض فى سائر بدنهـا غير الفرج ، يجوز النظر إليه عند الدواء لأنه موضع ضرورة ، وإن كان فى موضع الفرج فينبغى أن يعلم امرأة تداويهـا ، لأن نظر الجنس إلى الجنس أخف ، فإن لم توجد وخافوا عليها أن تهلك أو يصيبها وجع لاتحتمله ، يستروا منها كل شىء إلا موضع العلة ثم يداويها الرجل ويغض بصره ما استطاع إلا عن موضع الجرح !

(٧) وذكر بعض الشافعية أنه كما يحرم النظر لمـا لا يحل ، يحرم التفكر فيه لقوله تعالى « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » فمنع من التمنى

كما منع من النظر ، وذكر العلامة ابن حجر فى (التحفة) أنه ليس منه ما لو وطىء حليلته متفكرا فى محاسن أجنبية حتى خيل إليه أنه يطؤها ، ونقل عن جماعة منهم الجلال السيوطى والتقى السبكى أنه يحل لحديث « إن الله تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسها » ولا يلزم من تخيله ذلك عزمه على الزنا بها ، وقيل ينبغى كراهة ذلك ، ورد بأن الكراهة لابد لها من دليل ، وقال ابن الحاج المالكى إنه يحرم لأنه نوع من الزنا كما قال علماؤنا فيمن أخذ كوزا يشرب منه فتصور بين عينيه أنه خمر فشربه ، أن ذلك الماء يصير حراما عليه ، ورد بأنه فى غاية البعد ولا دليل عليه ، ويقول ابن عابدين إن الأقرب لقواعد مذهبنا عدم الحل لأن تصور تلك الأجنبية بين يديه يطؤها فيه تصوير مباشرة المعصية على هيئتها فهو نظير مسألة الشراب ، فان قلت لو تفكر الصائم فى أجنبية حتى أنزل لم يفطر ، فإنه يفيد إباحته ، ولا يسلم بهذا فإنه لو نظر إلى فرج الأجنبية حتى أنزل لا يفطر أيضاً مع أنه حرام اتفاقا[1] .

(٨) فما حكم النظر إلى الصبى الأمرد ؟ ذكرنا أن ابن عابدين ذكر أنه تمنع المرأة الشابة من كشف الوجه بين رجال لا لأنه عورة بل لخوف الفتنة ، قال فى (التاترخانية) وفى (شرح الكرخى) « النظر إلى وجه الأجنبية ليس بحرام ، ولكنه يكره لغير حاجة ، وعن سيدى عبد الغنى بيان الشهوة التى هى مناط الحرمة أن يتحرك قلب الإنسان ويميل بطبعه إلى اللذة وربما انتشرت آلته إن كثر ذلك الميلان ! ، وقال عامة العلماء أن يميل بالقلب ويشتهى أن يعانقها ويقصد مواقعتها ، وقال « الفهستانى » أن تميل النفس إلى القرب منها ومنه أو المس لها أو له مع النظر ، وعدم الشهوة أن لا يتحرك قلبه إلى شىء من ذلك بمنزلة من نظر إلى ابنه الصبيح الوجه وابنته الحسناء ، فيحرم النظر إلى وجهها ووجه الأمرد إذا شك فى الشهوة ، أما بدونها فيباح ولو جميلا ، اعتمده الكمال ، والأمرد كما فى القاموس هو الشاب الذى طر شاربه ولم تنبت لحيته ، وجاء فى (الملتقط) و (الهندية) : الغلام إذا بلغ مبلغ الرجال ولم يكن

---

(١) راجع ص ٣٢٠ — ٣٢٩ من ابن عابدين ج ٥ . وراجع ص ٣٧٠ — ٣٧٦ من وحى الأحاديث المحمدية لمحمود على قراعة ج ٢ .

صبيحا فحكمه حكم الرجال ، وإن كان صبيحا فحكمه حكم النساء ، وهو عورة من قرقه إلى قدمه ! قال السيد الإمام أبو القاسم : يعنى لايحل النظر إليه عن شهوة ، وأما الخلوة والنظر إليه لا عن شهوة فلا بأس به ، ولهذا لم يؤمر بالنقاب ، ويقول ابن عابدين : وهذا شامل لمن نبت عذاره بل بعض الفسقة يفضله على الأمرد خالى العذار ، والظاهر أن طرور الشارب وبلوغه مبلغ الرجال غير قيد بل هو بيان لغايته وأن ابتداءه من حين بلوغه سنا تشتهيه النساء .

والمراد من كونه صبيحا أن يكون جميلا بحسب طبع الناظر إليه ولو كان أسود لأن الحسن يختلف باختلاف الطبائع ، قال ابن القطان : أجمعوا على أنه يحرم النظر إلى غير الملتحى بقصد التلذذ بالنظر وتمتع البصر بمحاسنه ، وأجمعوا على جوازه بغير قصد اللذة والناظر مع ذلك آمن الفتنة ، وقال فخل : النظر منوط بعدم خشية الشهوة مع عدم العورة ، وفى (السراج) لا عورة للصغير جدا مالم يشته ، فقبل ودبر ثم تغلظ إلى عشر سنين ، ثم كبالغ ، وفى (الأشباه) يدخل على النساء إلى خمسة عشر سنة ، ويمنع من كشف ربع عضو من عورة غليظة أو خفيفة ، والغليظة قبل ودبر ونحوهما ، والخفيفة ماعدا ذلك .

ويقول ابن عابدين إن الحاصل أن مجرد النظر واستحسانه لذلك الوجه الجميل وتفضيله على الوجه القبيح كاستحسان المتاع الجزيل ، لابأس به ، فإنه لايخلو عنه الطبع الإنسانى ، بل يوجد فى الصغار ، فالصغير المميز يألف صاحب الصورة الحسنة أكثر من صاحب الصورة القبيحة ويرغب فيه ويحبه أكثر ، بل قد يوجد ذلك فى البهائم ، فليس هذا نظر شهوة ، وإنما الشهوة ميله بعد هذا ميل لذة إلى القرب منه أو المس له زائدا على ميله إلى المتاع الجزيل أو الملتحى ، لأن ميله إليه مجرد استحسان ليس معه لذة ، وتحرك قلبه إليه كما فى ميله إلى ابنه أو أخيه القبيح ، وفوق ذلك الميل الميل إلى التقبيل أو المعانقة أو المباشرة أو المضاجعة ولو بلا تحرك آلة ، وأما اشتراطه فى حرمة المصاهرة فلعله للاحتياط ، إذ حد الشهوة فى المس والنظر الموجبة لحرمة المصاهرة تحرك آلته أو زيادته ، به يفتى ، فى نحو شيخ تحرك قلبه أو زيادته ، وصرح

بعضهم فى حرمة المصاهرة بأنها لاتثبت برؤية فرج من مرآة أوماء ، لأن المرئى مثلا مثاله لاعينه ، بخلاف ما لونظر من زجاج أوماء هى فيه لأن البصر ينفذ فى الزجاج والماء فيرى ما فيه ، ولا يخفى أن الأحوط عدم النظر مطلقا ، قال فى (التتارخانية) : وكان محمد ابن الحسن صبيحا وكان أبو حنيفة يجلسه فى درسه خلف ظهره أو خلف سارية مخافة خيانة العين مع كمال تقواه[1] .

(٩) ولقد ذكرت فى كتابى الحياة الزوجية أن أول أسباب أزمة الزواج انحلال المعانى الأخلاقية ، فى الشارع ترى الفتيات كالظباء النافرات يرتدين من الأزياء ما يبدين به زينتهن بل مايشف عما تحته فيكن شبه عاريات ، وفى عربات الترام يزاحمن الرجال فى أماكنهم ويبدين من الحركات والإشارات ورقيق الحديث ومغرى الضحكات ما يلفتن به الأنظار ، وفى السينما يجتمعن بالفتيان ويحاولن أن يمثلن مع من يجاورهن عين ما يبدو على الخياله ، وفى المراقص يراقصنهم فيخاصروهن !

وفى (الباتيناج) يتمايلن عليهم ، وعلى شاطىء البحر يلبسن (المايوهات) فيبدين ما أخفين طول العام ويظهرن فيها عاريات إلا من غطاء رقيق للعورات الكبرى ، ويختلطن بالفتيان وهم بنفس اللباس العارى ، وينزلن معهم فى البحر سابحات مع سابحين وسابحين مع سابحات ، وبذا ترى هذا الانحلال الأخلاقى قد دعا للتلاقى والتعارف السهل الرخيص بين الفتيات والفتيان وأدى التعارف للاجتماع فالخلوة ، ولا أريد أن أتحدث عما يجره هذا الاجتماع وما تدعو إليه هذه الخلوة من غير أن أذكر أن كثيرا من الأمهات الجاهلات يشجعن بناتهن على هذا ظنا منهن أنه داعية للزواج ! وأعرف أسرا كثيرة محترمة تتودد

(١) راجع ص ٣٧٩ — ٣٨٠ من ابن عابدين جـ١ و ٣٢٠ — ٣٢٧ جـ٥ و٣٧٦ — ٣٨٠ من وحى الأحاديث المحمدية لمحمود على قراعة جـ٢ . واختلف العلماء فى مسألة اللائط فقال مالك والشافعى وأبو حنيفة وأصحابهم ، لا يحرم النكاح باللواط ، وقال النووى إذا لعب بالصبى حرمت عليه أمه وهو قول أحمد بن حنبل ، قال : إذا تلوط بابن امرأته أو أبيها أو أخيها حرمت عليه امرأته ! وقال الأوزاعى : وإذا لاط بغلام وولد المفجور به بنت ، لم يجز للفاجر أن يتزوجها ، لأنها بنت من قد دخل به ، وهو قول أحمد بن حنبل . راجع ص ١١٦ من تفسير القرطبى الجزء الخامس .

للفتيان وتشجع اجتماعهم بفتياتهن عسى أن يجد أحدهم رغبته فى الزواج من إحداهن . حتى يدعو ترك الحبل على الغارب إلى فضيحة يرفض بعدها أذل نذل من فتياتنا الزواج من الفتاة المسكينة البائسة التى خدعها بحجة أنه لم يخدعها وحده وأنها لم تصادقه وحده، وأنه وإن كان ماجناً مستهتراً إلا أن كرامته تأبى عليه أن يكون زوجا لمن عرضت نفسها رخيصة عليه وعلى غيره ، لأنه يخشى أن تفرط فى عرضها بعد أن يربطهما رباط الزوجية المقدس كما فرطت فيه قبل أن يرتبطا بهذا الرباط !

فالفتيان بهذا الانحلال الأخلاقى يتمتعون برؤية جمال الوجوه والأجسام واللمس والمداعبة من غير قيد ، فقد يرون فيه لذة تغنيهم عن قيود الزواج . ولا رادع لهم ولا حجة لما ضدهم إلا بتقوية الوازع الدينى فى نفوسهم ومنع أسباب الفساد عنهم ، فالله فى شرعه الشريف جعل عورة المرأة كل جسمها عدا وجهها وكفيها وقدميها ، فلا معنى لأن نجعلها تبدى للرجل كل جسمها عاريا أو شبه عار ثم نقول له اغضض من طرفك ، لأن الدين حقيقة بأمره بغض طرفه ولكنه فى نفس الوقت يأمر المرأة بالاحتشام وألا تقدم للرجل بخلاعتها أسباب الفساد ، والدين جعل عورة الرجل إلى الركبتين ، فلا معنى لأن يلبس الفتى لباساً يجد جسمه ويرى الفخذين أو ما فوقهما ثم نقول للمرأة غضى من طرفك لأن للطبيعة الإنسانية ميولها وتفاعلاتها [1] !

(١٠) ما حكم سماع الغناء ؟ يقول الغزالى إنه لايدل على تحريم السماع نص ولا قياس ، بل قد ورد النص والقياس جميعا على إباحته ، أما القياس فهو أن الغناء سماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى محرك للقلب ، ولكن يحرم السماع بخمسة عوارض : أن يكون المسمع امرأة لا يحل النظر إليها وتخشى الفتنة من سماعها (وفى معناها الصبى الأمرد الذى تخشى فتنته) وأن تكون الآلة من شعار أهل الشرب ، أو المخنثين (وهى المزامير والأوتار وطبل الكوبة) ، وأن يكون فى نظم الصوت وهو الشعر شىء من الخنا والفحش وهجو غير

(١) راجع ص ٣٢ — ٣٤ من الحياة الزوجية من الوجهتين التشريعية والاجتماعية لمحمود على قراعة.

الكفار وأهل البدع والكذب على الله ورسوله ، وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها (وأما النسيب وهو التشبيب بوصف الخدود والأصداغ وحسن القد والقامة وسائر أوصاف النساء ، فلا يحرم نظمه وإنشاده بلحن وغير لحن ، وعلى المستمع أن لاينزله على امرأة معينة ، فإن أنزله فلينزله على من يحل له من زوجته ، فإن أنزله على أجنبية فهو العاصى بإجالة الفكر فيه) وأن تكون الشهوة غالبة على المستمع وكان فى غرة الشباب ، وأن يتخذه دينه وهجيراه ويقصر عليه أوقاته (إذ ترد شهادته لسفاهته ، لأن السماع ولو أنه لذة مباحة إلا أنه لهو ، والمواظبة على اللهو جناية دينية [1].

والمدرك الآن أن إذاعة الغناء — لـ « ولد الهدى » و « نهج البردة » والدعاء و « يارب سبح بحمدك كل شيء حى » وما إليها ، والأذان بالصوت الطيب — تفعل فى النفوس ما لا تفعله المواعظ ، إذ تصل إلى القلوب وتضرب على أوتارها الحساسة !

(١) راجع ص ١١١ من الثقافة الروحية فى كتاب احياء علوم الدين للغزالى لمحمود على قراعة .

الفصل الرابع

المعاشرة والألفة والصحبة فى الإسلام

علم ابن سوار ابن أخته سهل بن عبد الله التسترى كيف يذكر خالقه ، إذ قال له اذكره بقلبك عند تقلبك فى ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك « الله معى ، الله ناظر إلى ، الله شاهدى » ، ثم زاد إلى سبع مرات ثم إلى احدى عشرة مرة ، فوقعت فى قلبه حلاوته ، فانتهز خاله شعوره بهذه اللذة ، وقال له « من كان الله معه وناظر إليه وشاهده أيعصيه ؟ ! . إياك والمعصية! » .

الغزالى فى الإحياء

إن من المقاصد الدينية والدنيوية ما يستفاد بالغير ، ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة ، وذكر الغزالى لذلك سبع فوائد نجملها فيما يلى : التعليم والتعلم والانتفاع والتجارب والممارسة والتأديب والتأدب ونيل الثواب وإنالته والتواضع والاستئناس والإيناس ، ولكنه مع ذلك يرى للعزلة ست فوائد خلاصتها : التفرغ للعبادة إذ قال الله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ، والتخلص بالعزلة عن المعاصى التى يتعرض الإنسان لها غالبا ، والخلاص من شر الناس ، وأن ينقطع طمعهم عنك وينقطع طمعك عنهم ، والخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمق وأخلاقهم ! ولكنه يرى مع هذا أن الحكم على العزلة مطلقا بالتفضيل نفيا وإثباتا خطأ ، بل ينبغى أن ينظر إلى الشخص وحاله وإلى الخليط وحاله وإلى الباعث على مخالطته وإلى الفائت بسبب مخالطته ، ويقاس الفائت بالحاصل ، فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل ، ولذلك يجب الاعتدال فى المخالطه والعزلة !

وأكثر ما يسيء المعاشرة ما يسميه الغزالى آفات اللسان ، وهى فيما بين الناس :

١ — المراء والجدال : وحد المراد هو كل طعن فى كلام الغير بإظهار خلل فيه إما فى اللفظ أو فى المعنى أو فى قصد المتكلم ، والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها ، والخصومة لجاج مذموم فى الكلام ، وتركه يكون بالتصديق بكل كلام سمعته إن كان حقا والسكوت عنه إن كان كذبا ولم يكن متعلقا بأمور الدين ، ولا يحرم على المظلوم أن ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف ومن غير قصد عناد وإيذاء ، والأولى تركه !

٢ — الفحش والسب وبذاءة اللسان واللعن : وهو منهى عنه !

٣ — المزاح : والمنهى عنه الإفراط فيه ، لأنه يورث كثرة الضحك التى تميت القلب وتورث الضغينة فى بعض الأحوال وتسقط المهابة والوقار ، أما الاستهزاء وهى الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه بالمحاكاة فى الفعل والقول أو بالإشارة والإيماء ، فحرام مهما كانت مؤذية !

٤ — إفشاء السر : وهو حرام إذا كان فيه إضرار ، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار !

٥ — الوعد الكاذب : ومن وعد وهو على الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر ، فهو منافق !

٦ — الكذب فى القول واليمين : وبه يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلا ، وقد يتعلق به ضرر غيره ، ويرى الغزالى أن الكلام وسيلة للمقاصد ، فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعا ، فالكذب فيه حرام ، وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق ، فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك القصد مباحا ، وواجب إن كان المقصود واجبا ، ولكن الحد فيه أن الكذب محذور ، فإذا علم أن المحذور الذى يحصل بالصدق أشد وقعا فى الشرع من الكذب فله الكذب ، وإن كان ذلك المقصود

أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق ، « ويتقابل الأمران بحيث يتردد فيهما ، وعند ذلك الميل إلى الصدق أولى لأن الكذب يباح لضرورة ، فإن شك كون الحاجة مهمة فالأفضل التحريم فيرجع إليه » !

٧ — الغيبة : وهى أن تذكر أخاك بما يكرهه سواء ذكرته بنقص فى بدنه أو نسبه أو خلقه أو فعله أو قوله أو دينه أو دنياه ، وهى حرام لأن فيها تفهيم الغير نقصان شخص معين — حى أو ميت — فالتعريض به كالتصريح والفعل فيه كالقول والإشارة والإيماء والغمز والكتابة والحركة ! وكذلك يحرم سوء الظن (أى عقد القلب وحكمه على الغير بالسوء ، أما الخواطر والشك وحديث النفس فيعفى عنها) لأن أسرار القلوب لا يعلمها إلا الله ، فليس لك أن تعتقد فى غيرك سوءاً إلا إذا انكشف لك بعيان (تشاهده بعينك أو تسمعه بأذنك) لا يقبل التأويل ، ومن ثمرات سوء الظن التجسس ! والمرخص فى ذكر مساوىء الغير أغراض صحيحة فى الشرع لا يمكن التوصل إليها إلا به ، وهى ستة أمور : التظلم والاستعانة على تغيير المنكر ورد المعاصى إلى منهج الإصلاح والاستفتاء وتحذير المسلم من الشر وأن يكون الإنسان معروفاً بلقب يعرب عن عيبه (كالأعرج) وأن يكون مجاهراً بالفسق . ويجب على المغتاب أن يتوب ويندم على ما فعله ليخرج به من حق الله ، ثم يستحل المغتاب (وهو حزين فى باطنه متأسف على فعله) ليحله فيخرج من مظلمته ، وسبيله أن يبالغ فى الثناء عليه والتودد إليه ويلازم ذلك حتى يطيب قلبه ، وإلا كان اعتذاره حسنة محسوبة له !

٨ — النميمة : وهى إفشاء ستر الغير عما يكره كشفه سواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء ، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان ذلك عيبا ونقصا فى المنقول عنه أو لم يكن ، وسواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو كرهه ثالث . واسم النميمة إنما يطلق على الأكثر على من ينم قول الغير إلى المنقول فيه ، فإن كان إلى من يخاف جانبه ، فهى سعاية ! ومذموم كلام ذى اللسانين الذى يتردد (نفاقا) بين

المتعاديين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه (أى يجرى مع كل ريح فهو على قول ابن مسعود إمعة) فينقل كلام كل منهما إلى الآخر أو يحسن لكل منهما ما هو عليه من المعاداة لصاحبه أو يعد كلا منهما أن ينصره أو يثنى على كل منهما فى معاداته وإذا خرج من عنده يذمه) !

٩ — المدح : وهو منهى عنه فى بعض المواضع ، فالمادح قد يفرط فينتهى به إلى الكذب ، وقد يكون منافقا لأنه بالمدح مظهر للحب وقد لا يكون مضمراً له ولا معتقدا لجميع ما يقوله ، وقد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه ، وقد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز ، وقد يرضى عن نفسه فلا يعمل ، فإن سلم المدح من هذه الآفات لم يكن به بأس ، بل ربما كان مندوبا إليه !

وكذلك يسىء المعاشرة مع الناس الكبر والغضب والحقد والحسد ! وفى قوة الغضب يقسم الغزالى الناس على درجات ثلاث ، يذم منها التفريط بفقد هذه القوة أو ضعفها ، إذ ثمرة هذه الحمية الضعيفة قلة الأنفة مما يؤنف منه من التعرض للحرم والزوجة واحتمال الأذى من الأخساء وصغر النفس والقماءة والخور فى السكوت عن مشاهدة المنكرات والعجز عن رياضة النفس عند الميل إلى الشهوات الخسيسة ! وكذلك يذم الإفراط فى الغضب وهو أن يغلب حتى يخرج عن طاعة العقل والدين ولا يبقى للمرء بصيرة ونظر وفكرة الاختيار ، وأما الغضب المحمود فهو الذى ينتظر إشارة العقل والدين فينبعث حيث تجب الحمية وينطفىء حيث يحسن الحلم ، وهو الوسط الحق بين الطرفين ، والعنف والحدة نتيجة الغضب والفظاظة ، يضاده الرفق واللين ثمرة حسن الخلق ، والكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع الضعف فيعطى كل أمر حقه ، فإن كان قاصر البصيرة أو أشكل عليه حكم واقعة من الوقائع ، فليكن ميله إلى الرفق فإن النجح معه أكثر !

ويقول الغزالى إن أسباب الكبر الظاهر أربعة : العجب والحقد والحسد والرياء ، ويقول إن الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفى فى الحال ، رجع

إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقدا ، ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استثقاله والبغضة له والنفار عنه ، وأن يدوم ذلك ويبقى[1] .

٢ — هذا وللجار على الجار حقوق كثيرة نص عليها فى كثير من الأحاديث النبوية الشريفة ومن أهمها عدم الإضرار به فى نفسه أو ماله أو عرضه ، فوجب مراعاة هذه الحقوق وعدم الإخلال بها وذلك بالعمل على منع مايضر بالجار قبل حدوثه وإزالته بعد حدوثه ، وحق الجار فى السكن على جاره ألا يضر به جاره ضررا فاحشا ، وكل ما يمنع الحوائج الأصلية للسكنى يعد ضررا فاحشا يجب رفعه وما..لا.. فلا ، ومن الحوائج الأصلية للساكن أن يكون هواؤه الذى يستنشقه هو وأسرته خاليا مما يفسده فسادا فظيعا وخصوصا إذا كان مستمرا وذلك كتراب البيدر ودخان الحمام ، كما أن مما يلزمه أيضا ألا يجلب هواؤه عليه رائحة كريهة لا يطيق المقام معها كالرائحة الآتية من ديدان الإبريسيم بعد موتها ومن مدبغة الجلود ومن معصرة الزيوت ، فإذا حصل من الجار شيء مما ذكر كان للجار المتضرر أن يطلب رفعه ، ولا يجوز للجار أن يعمل عملا يضر ببناء جاره ويتلفه فلو فعل شيئا من ذلك أمر برفعه ، والضرر بعمل ما يوهن البناء يجب رفعه كالضرر بعمل ما يتلف البناء ، كما أنه يجب منع الضرر عن نفس الجار وعن بنائه ، يجب منع الضرر عن ماله ، فإذا عمل الجار عملا يضر بمال جاره ضررا ينقص قيمته، كلف برفع هذا الضرر ، ومثال ذلك لو أحدث رجل دكان طباخ فى سوق البزازين وكان الدخان يضر بأمتعة الجار ضررا فاحشا فإنه يكلف برفعه ، وكذلك الجار يتضرر أكبر الضرر بعمل ما يمكن الغير من الإطلاع على نسائه والنظر إليهن وخصوصا فى منزل سكناه وفى الأماكن التى لا يمكن فيها للنساء عادة أن تتجنب كشف شيء من عورتها فيها ، لأنها فى منزل سكناها إما أن تكون منفردة أو مع بنات جنسها أو مع زوجها أو محارمها من الرجال وهى مع هؤلاء لا يلزمها أن تحتاط وتحافظ على ألا ينكشف شيء من

---

(١) راجع ص ١٤٨ — ١٦٨ من الثقافة الروحية فى كتاب احياء علوم الدين للغزالى بقلم محمود على قراعة .

جسمها ، فإذا عمل شخص على أن يتمكن من الإطلاع عليهن وهن فى مساكنهن وقد يكن فى حالة بعيدة عن الإحتشام ، كان فى ذلك أكبر الضرر وللمتضرر أن يطلب إزالته ، ومقر النساء هو المحل الذى لا يمكن الاستغناء عنه غالبا كصحن الدار والبئر والمطبخ وفيما عدا ذلك ينظر إن كان جلوسهن فيه غالبا فهو كصحن الدار وإلا . . لا ، وعلى هذا فإن الجنينة لاتعد مقرا للنساء ولو كانت النساء تخرج إليها فى بعض الأوقات ، فإذا كان لرجل دار لايرى منها مقر نساء جاره ولكن ترى جنينته ، فليس له أن يكلفه منع نظارته من تلك الجنينة بمجرد خروج نسائه إليها فى بعض الأوقات وترددهن إليها ، وعلى هذا فالضرر الذى يلزم برفعه يشترط فيه شروط ثلاثة وهى أن يكون فاحشا وأن يكون متيقنا لامتوهما وألا يكون للمتضرر دخل فيه ، فإذا انعدم شىء من هذه الشروط الثلاثة لم يكن للمتضرر الحق فى طلب رفع الضرر[1] .

٣ — ويقول الغزالى إن للنكاح فوائد وآفات على العبد أن يوازن بينهما ويرجح الأصلح له منهما ، فآفاته ثلاث : العجز عن طلب الحلال لأن المتزوج فى الأكثر يتبع هوى زوجته ويبيع آخرته بدنياه ، والقصور عن القيام بحق الزوجة ، وأن يكون الأهل والولد شاغلا له عن الله تعالى وجاذباً له إلى طلب الدنيا وحسن تدبير المعيشة للأولاد بكثرة جمع المال وإدخاره وطلب التفاخر والتكاثر بهم !

وأما فوائده فخمسة : الولد (وهو الأصل وله وضع النكاح ، وإنما الشهوة خلقت باعثة مستحثة) ، والتحصن عن الشيطان وكسر التوقان وغض البصر وحفظ الفرج وترويح النفس وإيناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة وإراحة القلب وتقوية له على العبادة وتفريغه عن تدبير المنزل والتكفل بشغل الطبخ والكنس والفرش وتنظيف الأوانى وتهيئة أسباب المعيشة ومجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل والصبر على أخلاقهن

(١) راجع ص ١٦ — ٢٥ من دروس المعاملات الشرعية لوالدنا فضيلة الشيخ على قراعة .

واحتمال الأذى منهن والسعى فى إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين والاجتهاد فى كسب الحلال لأجلهن والقيام بتربيته لأولاده !

ويقول الغزالى إن الصبي أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة ، ومائل إلى كل ما يمال إليه به ، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة وشاركه فى ثوابه أبواه ، ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا ، فبأن يصونه من نار الآخرة أولى ، وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من القرناء السوء ولا يعوده التنعم ولا يحبب إليه الزينة وأسباب الرفاهية فيضيع عمره فى طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد ، بل ينبغى أن يراقبه من أول الأمر » .

أى أن الغزالى يرى أن الصبى بجوهره خلق قابلا للخير والشر جميعا ، وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين فمراقبة الله فيه الميل به للخير .

٤ — وصلة المعاملات المادية مع الناس لا يخرج إنسان عنها إذ لابد له من نوع معاملة فى سعيه لكسب عيشه ، ولما كان الله تعالى قد قال فى كتابه العزيز : « كلوا من الطيبات واعملوا صالحا » ،احتجنا لمعرفة الحلال والحرام . ويرى الغزالى وجوب أن لا يقتصر الإنسان على اجتناب الحرام بل يتقى مواقع الشبهات ومظان الريب ولا ينظر إلى الفتاوى بل يستفتى قلبه فإذا وجد فيه حزازة اجتنبه ، وإذا حملت إليه سلعة رابه أمرها فليسأل عنها حتى يعرف وإلا كان آكل شبهة (فإن كان المتعامل تاجرا ، وجب أن ينظر إلى من يعامله ، فكل منسوب إلى ظلم أو سرقة أو ربا فلا يعامله) .

ويقول الغزالى إن « كل من يحب فى الله ، لا بد أن يبغض فى الله ، فإنك إن أحببت إنسانا لأنه مطيع لله ومحبوب عند الله ، فإن عصاه فلا بد أن تبغضه ، فإذا اجتمع فى شخص واحد خصال يحب بعضها ويكره بعضها ، فإنك تحبه من وجه وتبغضه من وجه ، وإظهار البغض إما بالقول فبكف اللسان عن مكالمته ومحادثته مرة ، وبالاستخفاف والتغليظ أخرى ، وإما بالفعل فبقطع السعى عن إعانته مرة وبالسعى فى إساءته وإفساد مآربه أخرى ، وبعض هذا

أشد من بعض ، وهو بحسب درجات الفسق والمعصية الصادرة منه ، أما ما يجرى مجرى الهفوة التى يعلم أنه يتندم عليها ولا يصر عليها ، فالأولى فيه الستر والاغماض » ! وتطبيقاً على هذا المبدأ نرى الغزالى يقول إن الأولى الإعراض عمن يعصى بفعل يتأذى به غيره بل الاستحباب فى إهانتهم (وذلك كالظلم فى الدماء والأموال والأعراض — وبعضها أشد من بعض — وكمن يدعو غيره للفساد كصاحب الماخور الذى يجمع بين النساء والرجال ويهيىء أسباب الفساد) ، وكذلك يرى الاستحباب فى إظهار بغض المبتدع الذى يدعو إلى بدعته ، ومعاداته ، والانقطاع عنه وتحقيره والتشنيع عليه ببدعته وتنفير الناس عنه أشد (كترك الجواب عن سلامه فى ملأ ، أما إن سلم فى خلوة فلا بأس برد جوابه) ، وأما الكافر فيقتل ويرق إن كان محاربا ، وأما الذمى فيرى أنه لا يجوز إيذاؤه إلا بالإعراض عنه والتحقير له بالاضطرار إلى أضيق الطرق وبترك المفاتحة بالسلام ، فإذا قال السلام عليك قلت وعليك ، ويرى أن الأولى الكف عن مخالطته ومعاملته ومواكلته ، وأن الانبساط معه والاسترسال إليه كما يسترسل إلى الأصدقاء مكروه كراهة شديدة يكاد ينتهى إلى حد التحريم ! وأما الذى يفسق فى نفسه بمقارفة محظور يخصه كالذى يشرب ويزنى ، فيرى أنه فى وقت مباشرته إن صودف يجب منعه بما يمتنع به ولو بالضرب والاستخفاف[1] وإذا فرغ منه وعلم أن ذلك من عادته وهو مصر عليه فيجب نصحه إن تحقق أن نصحه يمنعه من العود إليه ، وإن لم يتحقق ولكنه كان يرجو فالأفضل النصح والزجر بالتلطف أو بالتغليظ إن كان هو الأنفع (والمستفتى فيه هو القلب فى الإعراض عن جواب سلامه والكف عن مخالطته حيث يعلم أنه يصر وأن النصح ليس ينفعه) .

وغير المسلمين ينقسمون إلى مشرك نجس (ويدخل فيهم الوثنيون والمجوس والطبيعيون) وإلى كتابيين (وأظهرهم الآن المسيحيون واليهود) ، والفريق الأول لكثرة عدده فى العالم أرى أن نخوتنا الدينية توجب على خاصتنا

---

(١) ونرى وجوب ترك عقوبة الفعل لأولياء الأمور ، منعا من الفوضى واساءة استعمال هذا الحق ، فيؤدى إلى الجرائم !

الاتصال به لكى ننشر الدعوة الإسلامية بين ظهرانيهم ، وهذا لا يكون بالابتعاد والعنف بل يكون بالتودد واللطف ، وأما الفريق الثانى فأرى أنه ما دامت المعاملات المادية تقتضى الاتصال ، ويدعو هذا الاتصال إلى الحسنى فى المعاملة والإخلاص فيها ، وما دامت الإنسانية تقرر اجتماعنا جميعا فى الشعور باللذة والألم ، وإن اختلف هذا الشعور واختلفت درجته من حيث السمو الروحى ، وما دام الناس جميعا عباداً لله ، فيجب أن نحب فيهم محاسنهم الخلقية والمعنوية لهذا المعنى ، وما دام القلب لا يمكن قراءته والخاتمة لا يستطاع معرفتها ، فقد يكون مؤمنا سرا بقلبه وقد يموت مسلما ، وما دام هذا كذلك فالرأى وجوب أن نفهم أن اختلاف الأديان أمر أراده الله إذ قال فى كتابه الكريم « إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء » وقال « قل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » وقال « لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى » ، فيجب أن نعامل غير المسلمين نفس المعاملة الأمينة التى نعامل بها المسلم ، وفى تعميم حديث « خاب عبد خسر ، لم يجعل الله فى قلبه رحمة للبشر » خير دليل على ذلك !

وقد وضع لنا النبى الكريم وأصحابه أسوة حسنة إذ كانوا يحضرون ولائم غير المسلمين ويغشون مجالسهم ويشيعون جنائزهم ويعزونهم فى مصائبهم ، وأمرنا الإسلام بمساواتهم أمام القانون وأن نوفيهم حقوقهم كاملة ولا نبخسهم منها شيئا ، بل لقد أمرنا الله فى كتابه العزيز أن نعامل غير المسلمين كما نعامل المسلمين بمكارم الأخلاق عن صفاء نية لا مواربة ومداهنة خوفا منهم أو طمعاً فيهم فقال « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » فيجب أن نعامل مجموعهم معاملة صافية وصديقهم معاملة مخلصة أمينة ، وأن نحب فيهم ما يحب من جمال حسى وخلق ومعنوى ، وأن نكره فيهم ما يكره من قبح وأقبح القبح سوء العقيدة وفسادها ، ولكن إذا كرهنا سوء العقيدة فليس معنى هذا البغض لمعتنقيها ، لأنه يجب أن نحب لعباد الله جميعا ما نحب لأنفسنا فيجب أن نحب

لفاسد العقيدة أن يقلع عنها ويرجع لربه ، فإذا رجع فرحنا برجوعه ، وإذا لم يرجع فقد يرجع يوما ما وقد يكون راجعاً بالفعل ولكنه لاعتبارات كثيرة يراها قد رجع سرا ، وإذا لم يرجع فأمره لله ويجب أن نحزن على عدم رجوعه لا أن نبغضه عليه لأنا لاندرى بماذا ختم له ، فقد يكون فى ظاهره غير راجع وفى الحقيقة قد رجع ، والمعاملة الأمينة المخلصة على هـذا الإعتبار حب فى الله لأنك قد راقبت الله فى معاملة عبد من عباده ، ولكن إذا ظهر من هـذا الغير مسلم ما يدل على الإصرار على عقيدته بمحاربة الإسلام أو الطعن فيه أو إيذاء المسلمين لأنهم مسلمون أو العمل على إخراج مسلم عن دينه بالإغراء أو التغرير فهنا يجب بغضه (لعمله ولذاته) ويجب تحقيره والإزدراء به وقطع كل معاملة معه ، بل معاداته ، وهنا فقط يكون بغضه فى سبيل الله[1] !

وفى هذا يقول فضيلة والدنا الشيخ على قراعة « العدو لايمتنع عن مقاتلتك وإلحاق الضرر بك وإذلالك والسيطرة على نفسك وأهلك ومالك إلا إذا خاف منك ، ولا يخاف منك إلا حيث تكون قوتك أكثر من قوته ، وعدتك أشد من عدته ، وإذن تكون مصلحتنا فى أن نكون أقوياء ، ويكون أعداؤنا ضعفاء حتى نأمن على أنفسنا الكرة علينا ، وحتى إذا اضطررنا لمحاربته نكون قد حاربنا ومعنا سلاحنا وما يرهب عدونا وما جعل عادة أداة للنصر والغلبة ، لهذا أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بأن يعدوا لقتال أعدائهم ما استطاعوا من قوة بقوله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم » والخطاب موجه لكافة المؤمنين ، لما أن المأمور به من وظائف الكل ، أى أعدوا لقتال الكفار ما استطعتم من قوة أى من كل ما يتقوى به فى الحرب كائنا ما كان ، وما جاء فى الحديث من أنه عليه الصلاة والسلام قال وهو على المنبر : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى » ليس فيه نفى أن يكون غيره من القوة ، بل عموم اللفظ شامل لجميع أنواع السلاح وآلات الحرب ، وهذا يقتضى أنا مأمورون

(١) راجع ص ١٠٧ — ١١٠ من الثقافة الروحية فى كتاب احياء علوم الدين للغزالى لمحمود على قراعة .

بأن نعد فى البحر أدوات الحرب فى البحر من غواصات وأساطيل وما إلى ذلك مما يعد فى البحر ، ونعد فى البر أدوات الحرب فى البر من دبابات وغيرها مما يعد فى البر ، ونعد فى الجو أدوات الحرب فى الجو من طيارات بأنواعها مما يعد فى الجو ، ونعد الجيوش ومعها أسلحتها المختلفة مما يعد معها ، كما نعد الخيول والسيارات بجميع أنواعها اللازمة لتحرك الجيوش وأسلحتها ، وعلى الجملة نعد كل شيء يعد سلاحا وأداة للقتال ، وهذا يختلف باختلاف الزمان والمكان ، وقد جعل الله سبحانه وتعالى وجوب إعداد القوة لإرهاب العدو فوجب أن يراعى فى القوة أن تكون مرهبة للعدو ، والعدو لا يرهبه إلا سلاح أقوى من سلاحه وعدة أشد من عدته ، فوجب أن نعمل على أن يكون سلاحنا أقوى من سلاحه وجيشنا أقوى من جيشه ، ولنعلم أن عدونا لا يرهبه إلا قوتنا فمتى علم أنا أقوياء ، يخشى بأسنا ويعمل على إرضائنا ويتجنب غضبنا ويخطب ودنا ، وإذا رأى ضعفنا استباح حرماتنا وعمل على إخضاعنا واستغلال مواردنا والاستمتاع بمنافعنا ، فلنعمل بما أوصانا به الله سبحانه وتعالى والله الهادى إلى سواء السبيل[1] » .

(١) راجع ص ١٦٥ — ١٦٨ من كتاب العلاقة الدولية فى الحروب الإسلامية لوالدنا فضيلة الشيخ على قراعة .

الفصل الخامس

الإسلام وفعل الخير

« أشد الأعمال ثلاثة : إنصاف الرجل من نفسه
ومواساة الأخ فى المال ، وذكر الله عز وجل »
حديث شريف

القرآن الكريم مملوء بما يفيد أن الجنة جزاء من عمل صالحا وجزاء من اتقى ، وقد نعتهم تارة بالمفلحين وتارة بالمحسنين ، ووعد بأنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وأنهم سينعمون برضى الله وجنته وأن لهم البشرى بالأجر العظيم والنعيم المقيم .

ويقول ابن القيم إن النار خلقت تخويفا للمؤمنين وتطهيرا للخاطئين والمجرمين ، فهى طهرة من الخبث الذى اكتسبته النفس فى هذا العالم ، فإن تطهرت ههنا بالتوبة النصوح والحسنات الماحية والمصائب المكفرة ، لم تحتج إلى تطهيرها هناك ، وقيل لها مع جملة الطيبين « سلام عليكم ، فادخلوها (أى ادخلوا الجنة) خالدين » وإن لم تتطهر فى هذه الدار ووافت الدار الأخرى بدرنها ونجسها وخبثها ، أدخلت النار طهرة لها ، ويكون مكثها فى النار بحسب زوال ذلك الدرن والخبث والنجاسة التى لا يغسلها الماء ، فإذا تطهرت الطهر التام ، أخرجت من النار »[1] .

وقال الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه من خطبة له بعد تلاوة قول الله تعالى « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا » : قد أمن العذاب ، وانقطع العتاب ، وزحزحوا عن النار ، واطمأنت بهم الدار ، ورضوا المثوى والقرار ، الذين كانت أعمالهم فى الدنيا زاكية ، وأعينهم باكية ، وكان ليلهم فى دنياهم

---

(١) راجع ص ٤٣ — ١٠٢ من نعيم الجنة لمحمود على قراعة (الطبعة الثانية) وص ١٩٢ من حادى الأرواح لابن القيم (المجلد الثانى) .

نهارا تخشعا واستغفارا . وكان نهارهم ليلا توحشا وانقطاعا[1] ، فجعل الله لهم الجنة مآبا والجزاء ثوابا ، وكانوا أحق بها وأهلها ، فى ملك دائم ونعيم مقيم[2] . »

وروى أن صاحباً لسيدنا على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، يقال له همام ، كان رجلا عابدا فقال له : يا أمير المؤمنين صف لى المتقين حتى كأنى أنظر إليهم ! فتثاقل عن جوابه ، ثم قال : يا همام اتق الله وأحسن ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » ، فلم يقنع همام بهذا القول حتى عزم عليه ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « أما بعد ، فإن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق حين خلقهم غنيا عن طاعتهم ، آمنا من معصيتهم ، لأنه لا تضره معصية من عصاه ، ولا تنفعه طاعة من أطاعه ، فقسم بينهم معيشتهم ووضعهم من الدنيا مواضعهم ، فالمتقون فيها هم أهل الفضائل ، منطقهم الصواب ، وملبسهم الاقتصاد[3] ومشيهم التواضع ، غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم ، نزلت أنفسهم منهم فى البلاء كالتى نزلت فى الرخاء ، ولولا الأجل الذى كتب عليهم لم تستقر أرواحهم فى أجسادهم طرفة عين شوقا إلى الثواب وخوفا من العقاب ، عظم الخالق فى أنفسهم فصغر ما دونه فى أعينهم ، فهم والجنة كمن رآها ، فهم فيها منعمون وهم والنار كمن رآها فهم فيها معذبون ، قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة وأجسادهم نحيفة[4] وحاجاتهم خفيفة وأنفسهم عفيفة ، صبروا أياما قصيرة ، أعقبتهم راحة طويلة ، تجارة مربحة ، يسرها لهم ربهم ، أرادتهم الدنيا فلم يريدوها ، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها ، أما الليل فصافون أقدامهم تالين

(١) يريد عدم استئناسهم بشؤون الدنيا والركون إليها .

(٢) راجع ص ٣٩ من نهج البلاغة ج ١ . ومن حكم الإمام على : مرارة الدنيا حلاوة الآخرة وحلاوة الدنيا مرارة الآخرة . يقول الإمام محمد عبده فى شرحها : حلاوة الدنيا باستيفاء اللذات ومرارتها بالعفاف عنها ، وفى الأول مرارة العذاب فى الآخرة ، وفى الثانى حلاوة الثواب فيها . راجع ص ١٩٩ من نهج البلاغة ج ٢

(٣) يقول الإمام محمد عبده إن المعنى أنهم لا يأتون من شهواتهم إلا بقدر حاجتهم فى تقويم حياتهم ، فكان الإنفاق كثوب لهم على قدر أبدانهم ، لكنهم يتوسعون فى الخيرات .

(٤) من الفكر فى صلاح حالهم ودينهم .

لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلا ، يحزنون به أنفسهم ويستثيرون دواء دائهم ، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعا وتطلعت نفوسهم إليها شوقا وظنوا أنها نصب أعينهم ، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم ، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها فى أصول آذانهم ، فهم حانون على أوساطهم مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم ، يطلبون إلى الله تعالى فكاك رقابهم ، وأما النهار فحلماء علماء أبرار أتقياء قد براهم الخوف برى القداح ، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض ، ويقول قد خولطوا[١] ولقد خالطهم أمر عظيم[٢] لا يرضون من أعمالهم القليل ولا يستكثرون الكثير ، فهم لأنفسهم متهمون ، ومن أعمالهم مشفقون[٣] ، إذا زكى أحدهم[٤] خاف مما يقال له فيقول أنا أعلم بنفسى من غيرى وربى أعلم بى من نفسى ، اللهم لا تؤاخذنى بما يقولون واجعلنى أفضل مما يظنون ، واغفر لى مالا يعلمون ! فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة فى دين وحزما فى لين وإيمانا فى يقين وحرصا فى علم وعلما فى حلم وقصدا[٥] فى غنى وخشوعا فى عبادة وتحرجا[٦] عن طمع ، يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل ، يمسى وهمه الشكر ، ويصبح وهمه الذكر ، يبيت حذرا ويصبح فرحا ، حذرا لما حذر من الغفلة وفرحا بما أصاب من الفضل والرحمة ، إن استصعبت عليه نفسه فيما تكره[٧] لم يعطها سؤلها فيما تحب ، قرة عينه فيما لا يزول[٨] وزهادته فيما لا يبقى[٩] يمزج الحلم بالعلم ، تراه قريباً أمله قليلا زلله ، خاشعاً قلبه ، قانعة نفسه ، منزورا[١٠] أكله ، سهلا أمره ، حريزا[١١] دينه ، ميتة شهوته ، مكظوما غيظه ، الخير منه مأمول والشر منه مأمون ، إن كان فى الغافلين[١٢] كتب فى الذاكرين[١٣] وإن كان

(١) أى أصيبوا بخلل فى عقولهم .
(٢) هو الخوف الشديد من الله تعالى .
(٣) خائفون من التقصير فيها .
(٤) مدح .
(٥) أى اقتصاداً .
(٦) أى تباعداً .
(٧) أى لم تطاوعه .
(٨) أى الآخرة .
(٩) أى الدنيا .
(١٠) أى قليلا .
(١١) أى حصينا .
(١٢) من ذكر الله تعالى .
(١٣) بقلبه .

فى الذاكرين[١] لم يكتب من الغافلين[٢] يعفو عمن ظلمه ويعطى من حرمه ويصل من قطعه ، بعيدا فحشه[٣] ، لينا قوله ، غائبا منكره ، حاضرا معروفه ، مقبلا خيره ، مدبرا شره ، فى الزلازل[٤] وقور ، وفى المكاره صبور ، وفى الرخاء شكور ، لا يحيف على من يبغض ، ولا يأثم فيمن يحب ، يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه ، لا يضيع ما استحفظ ، ولا ينسى ما ذكر ، ولا ينابز[٥] بالألقاب ولا يضار بالجار ولا يشمت بالمصائب ولا يدخل فى الباطل ولا يخرج من الحق ، إن صمت لم يغمه صمته ، وإن ضحك لم يعل صوته ، وإن بغى عليه صبر حتى يكون الله هو الذى ينتقم له ، نفسه منه فى عناء ، والناس منه فى راحة ، أتعب نفسه لآخرته ، وأراح الناس من نفسه ، بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة ، ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة ، ليس تباعده بكبر وعظمة ولا دنوه بمكر وخدعة[٦] » .

هذا ولقد حدثنا نبينا الكريم عن فضل الصدقة والنفقة وما أعده الله للمتصدقين من الرضوان الكبير والأجر العظيم ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بينا رجل فى فلاة من الأرض إذ سمع صوتا فى سحابة « اسق حديقة فلان » فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه فى حزة[٧] فإذا شرجة من تلك الشراج[٨] ، قد استوعبت ذلك الماء فتتبع الماء فإذا رجل قائم فى حديقة يحول الماء بمسحاته[٩] فقال له : ياعبد الله ما اسمك ؟ قال : فلان ! الإسم الذى سمع فى السحابة ، فقال له : ياعبد الله لم سألتنى عن اسمى ؟ قال سمعت صوتا فى السحاب الذى هذا ماؤه يقول : اسق حديقة فلان لاسمك فما تصنع فيها ؟ قال : أما إذا قلت هذا فإنى أنظر إلى مايخرج منها فأتصدق بثلثه

(١) بلسانهم . (٢) بقلوبهم . (٣) الفحش القول القبيح .
(٤) أى الشدائد . (٥) أى لايدعو غيره باللقب الذى يكره .
(٦) قال : فصعق عمار (غشى عليه) صعقة كانت فيها نفسه ! فقال أمير المؤمنين عليه السلام « والله لقد كنت أخاف عليه ! راجع ص ٤١٩ — ٤٢٥ من نهج البلاغة ج ١ .
(٧) الحزة بفتح الحاء الأرض ذات الحجارة السود .
(٨) سائل الماء إلى السهل من الأرض . (٩) المسحاة المجرفة من الحديد .

وآكل أنا وعيالى ثلثه وأرد فيها ثلثه ! وعنه رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبق درهم مائة ألف درهم ، قيل وكيف ذلك يارسول الله قال : « كان لرجل درهمان فتصدق بأجودهما ، وانطلق آخر إلى عرض[1] ماله فأخرج منه ألف درهم فتصدق بها ! ، وعن أنس رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما خلق الله الأرض جعلت تميد[2] وتتكفأ فأرساها بالجبال فاستقرت ، فتعجب الملائكة عليهم السلام من شدة الجبال ، فقالت يا ربنا هل خلقت خلقا أشد من الجبال ؟ قال : نعم ! الحديد ، قالوا فهل خلقت خلقا أشد من الحديد ؟ قال : نعم ! النار ، قالوا فهل خلقت خلقا أشد من النار ؟ قال : نعم ! الماء ، قالوا فهل خلقت خلقا أشد من الماء ؟ قال : نعم ! الريح ، قالوا : فهل خلقت خلقا أشد من الريح ؟ قال : نعم ! ابن آدم إذا تصدق بصدقة بيمينه فأخفاها عن شماله ! ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال رجل لأتصدقن الليلة بصدقة ! فخرج بصدقته فوضعها فى يد سارق فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على سارق فقال اللهم لك الحمد ! على سارق ! لأتصدقن بصدقة ! فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على زانية ، فقال : اللهم لك الحمد ! على سارق وزانية ! لأتصدقن بصدقة ! فخرج بصدقته فوضعها فى يد غنى فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على غنى ! فقال : اللهم لك الحمد على سارق وزانية وغنى ! فأتى فقيل له : أما صدقتك فقد قبلت ، أما السارق فلعله أن يستعف عن سرقته ، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها ، وأما الغنى فلعله أن يعتبر فينفق مما أعطاه الله تعالى » !

فترى أنه فى الحديث الأول الذى ذكرناه تحدث عن فضل الصدقة عموما ثم فى الحديث الثانى تحدث عن فضل الذى يخرج من جيد ماله ، وفى الثالث

---

(١) عرض الشيء : جانبه وناحيته ، والمراد هنا أنه كان يعمد إلى أردأ ماله .

(٢) تتحرك وتضطرب .

تحدث عن الذى يتصدق فى السر ، وفى الرابع تحدث عن ثواب نية الصدقة حتى لو لاقت الصدقة غير مستحق لها[١] .

وحدثنا نبينا الكريم عن حب الله سبحانه وتعالى للسخاء والكرم ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله عزوجل « أنفق أنفق عليك ! وقال يد الله ملأى لا تغيضها[٢] نفقة ، سحاء[٣] الليل والنهار ! أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما فى يده ، وكان عرشه على الماء وبيده الميزان يخفض ويرفع » .

وحدثنا نبينا الكريم عن حب الله عز وجل وإنمائه للصدقة والنفقة ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماتصدق أحد بصدقة من طيب — ولا يقبل الله إلا الطيب — إلا أخذها الرحمن بيمينه ، وإن كان تمرة ، فتربو فى كف الرحمن[٤] حتى تكون أعظم من الجبل كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله !

وحدثنا نبينا الكريم عن حب الله عز وجل للمتحابين لجلاله ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله عز وجل يوم القيامة « أين المتحابون لجلالى ؟ اليوم أظلهم فى ظلى يوم لاظل إلا ظلى » !

وحدثنا نبينا الكريم عن حب الله سبحانه وتعالى للتعاضد والتناصر ، فعن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته !

(١) راجع ص ٢٢٩ — ٢٣٢ من وحى الأحاديث المحمدية الجزء الأول لمحمود على قراعة .

(٢) أى لا تنقصها .

(٣) أى لا ينقطع عطاؤها كسح المطر . ويقول ابن قتيبة سحاء أى دائمة الصب والعطاء أى تصب عطاء ولا ينقصها ذلك . وفى رواية « يمين الله سحاء » واليمين هنا كناية عن محل عطائه وخص اليمين لأنها فى الأكثر مظنة العطاء على طريق المجاز والاتساع . راجع ٢٦٥ من تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة .

(٤) كف الرحمن هنا كما يقول الشيبانى كناية عن محل قبول الصدقة التى توضع فيه ، وإلا فلا كف له ولا جارحة تعالى الله عما يقول الظالمون والمجسمون علوا كبيرا . راجع ص ٢٤٧ من تيسير الوصول ج ٢ .

ومن فرج عن مسلم كربة ، فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة » وزاد رزين فى رواية « ومن مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه ، ثبت الله تعالى قدميه على الصراط يوم تزل الأقدام » !

وحدثنا نبينا الكريم عن إنعام الله عز وجل للكاظم غيظه مع استطاعة إنفاذه ، فعن سهل بن معاذ بن أنس الجهنى عن أبيه رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كظم غيظا[1] وهو يستطيع أن ينفذه ، دعاه الله تعالى يوم القيامة على رؤس الخلائق حتى يخيره فى أى الحور شاء » !

وحدثنا نبينا الكريم عن حسن جزاء الله سبحانه وتعالى لنا على الخير ، فعن أبى ذر رضى الله عنه ، قال « قالوا يا رسول الله ! ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضل أموالهم ! قال : أوليس قد جعل الله لكم ما تتصدقون به ؟ ! إن بكل تسبيحة صدقة ! وكل تكبيرة صدقة ! وكل تحميدة صدقة ! وكل تهليلة صدقة ! وأمر بالمعروف صدقة ! ونهى عن منكر صدقة ! وفى بضع أحدكم صدقة ! قالوا يا رسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ ! قال أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر ؟ قالوا نعم ! قال كذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر » ، وللترمذى فى رواية « تبسمك فى وجه أخيك صدقة ! وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق صدقة ! وفراغك فى دلوك فى دلو أخيك صدقة » وعن البراء رضى الله عنه ، قال : من منح منحة لبن أو ورق أو هدى ضالا طريقا أو أعمى زقاقاً ، كان له مثل من أعتق رقبة ، وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له صدقة » ، وعن جابر رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه نشر الله عليه كنفه وأدخله الجنة : رفق بالضعيف والشفقة على الوالدين والإحسان إلى المملوك » !

وحدثنا نبينا الكريم عن عتاب الله تبارك وتعالى يوم القيامة للمقصر عن فعل الخير من زيارة المرضى والإنفاق ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال :

(١) كظم الغيظ : تجرعة وترك المقابلة عليه .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله عز وجل يوم القيامة : يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى ! فيقول : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟ يا ابن آدم أستطعمتك فلم تطعمنى ! قال : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : إن عبدى فلانا استطعمك فلم تطعمه ! أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقنى ! قال : كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ فيقول إن عبدى فلانا استسقاك فلم تسقه ! أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى ؟ » .

وجمع نبينا الكريم معانى الخير كلها فى حديث جامع ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمرنى ربى بتسع : خشية الله فى السر والعلانية ! وكلمة العدل فى الغضب والرضا ! والقصد فى الفقر والغنى ! وأن أصل من قطعنى ! وأعطى من حرمنى ! وأعفو عمن ظلمنى ، وأن يكون صمتى فكرا ونطقى ذكرا ونظرى عبرة وأن آمر بالمعروف » .

وكان نبينا الكريم يأمر بإحسان معاملة الخدم ، فعن المعرور بن سويد قال : رأيت أبا ذر وعليه حلة وعلى غلامه مثلها فسألته عن ذلك فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : هم إخوانكم وخولكم[1] ، جعلهم الله تعالى تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه » ! وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى ولا يقول المملوك ربى وربتى ! ليقل المالك فتاى وفتاتى وليقل المملوك سيدى وسيدتى فإنكم المملوكون والرب هو الله عز وجل » .

وحدثنا نبينا الكريم عن حب الله سبحانه وتعالى للرفق بالحيوان ، فعن خالد بن معد أن يرفعه ، قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله رفيق يحب

---

(١) خول الرجل : حشم الرجل وأتباعه .

الرفق ويرضى به ويعين عليه ما لا يعين على العنف ، فإذا ركبتم هذه الدواب العجم فانزلوها منازلها »[١] . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الرفق ما كان فى شىء إلا زانه ولا نزع من شىء إلا شانه ! وفى رواية قالت : ركبت بعيرا فيه صعوبة ، فجعلت أردده ، فقال صلى الله عليه وسلم : عليك بالرفق[٢] .

وحدثنا نبينا الكريم عن قدر العمل الصالح ابتغاء وجه الله ، فعن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى أواهم المبيت إلى غار فدخلوا فيه ، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم ! فقال أحدهم إنه كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت أرعى عليهما ولا أغبق[٣] قبلهما أهلا ولا مالا ، وأنه نأى بى طلب الشجر يوما فلم أرح عليهما حتى ناما ، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما قد ناما ، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلا ومالا وكرهت أن أوقظهما ، والصبية يتضاغون[٤] عند قدمى ، والقدح على يدى أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر ، اللهم إن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء لوجهك ، ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ! فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج ! وقال الآخر : اللهم إنه كان لى إبنة عم هى أحب الناس إلى ، فأردتها على نفسها[٥] فامتنعت عنى حتى ألمت بها سنة من السنين[٦] فجاءتنى فأعطيتها مائة وعشرين دينارا على أن تخلى بينى وبين نفسها ، ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها ، قالت : لا يحل لك أن تفض الخاتم[٧] إلا بحقه فتحرجت[٨] من الوقوع عليها ، فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلى وتركت

---

(١) من حديث طويل . (٢) راجع ص ٢٢٦ — ٢٣٢ و٣١٦ — ٥١٠ من وحى الأحاديث المحمدية الجزء الثانى لمحمود على قراءة .

(٣) الغبوق : أشرب آخر النهار .

(٤) يضجون ويصيحون من الجوع .

(٥) أى راودتها وطلبت منها أن تمكننى من نفسها .

(٦) أى أصابها الجدب . (٧) كناية عن الجماع .

(٨) الهرب من الحرج والاثم والضيق .

الذهب ! اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ! فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج ! فقال الثالث : اللهم إنى كنت استأجرت أجراء فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك أجره وذهب فثمرته له حتى كثرت منه الأموال ، فجاءنى بعد حين فقال : يا عبد الله أد لى أجرى ! فقلت كل ما ترى من البقر والغنم والإبل والرقيق أجرك ! اذهب فاستقه ! فقال يا عبد الله لا تستهزىء بى ! فقلت إنى لا أستهزىء بك اذهب فاستقه ، فأخذه كله ! اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ! فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون »[1] !

والمسلم الحق يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لقوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » وقوله تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وقوله تعالى : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » وقوله : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » أى بل يعم شؤمها من تعاطاها ومن رضيها ! وفى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » ، وقال : « إذا عمت الخطيئة فى الأرض ، من شهدها فكرهها كان كمن غاب عنها ، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها » ، وقال : « لا ينبغى لامرىء شهد مقاما فيه حق إلا تكلم به ، فإنه لم يقدم أجله ولم يحرمه رزقا هو له » .

والمسلم الحق يرفق فى الأمر والنهى ولكن لا يهاب من ينكر عليه لارتفاع منزلته ، لقوله تعالى : « ولينصرن الله من ينصره » وقوله : « ومن يعتصم بالله

(١) راجع ص ٢٣٤ — ٢٣٦ من وحى الأحاديث المحمدية لمحمود على قراءة الجزء الأول

فقد هدى إلى صراط مستقيم » وقوله : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » وقوله : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .

والمسلم الحق يقضى حوائج المسلمين لقوله عليه الصلاة والسلام : « إن لله عبادا خلقهم لحوائج الناس آلى على نفسه أن لا يعذبهم بالنار ، وإذا كان يوم القيامة وضعت لهم منابر من نور ، يحدثون الله عز وجل والناس فى الحساب » ، وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أى الناس أحب إلى الله ؟! قال : أحب الناس عند الله أنفعهم للناس وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم تكشف عنه كربة أو تقضى عنه دينا أو تطرد عنه جوعا ، ولأن أمشى مع أخ فى حاجة أحب إلى من أن أعتكف فى هذا المسجد (يعنى مسجد المدينة) شهرا ، ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه ، ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا ، ومن مشى مع أخيه فى حاجته حتى يقضيها له ، ثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام[١] . وقوله صلى الله عليه وسلم : « كل معروف صدقة ، والدال على الخير كفاعله ، والله يحب إغاثة الملهوف » . وقوله : « ما من صدقة أفضل من صدقة اللسان ، قيل وكيف ذلك ؟ قال : الشفاعة يحقن بها الدم وتجرى بها المنفعة إلى آخر ويدفع بها المكروه عن آخر » .

والمسلم الحق ينصر المسلمين لقوله عليه الصلاة والسلام : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »[٢] . وقوله : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم . مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »[٣] . وقوله : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، فقال رجل : يارسول الله أنصره إذا كان مظلوما ، أرأيت إن كان ظالما كيف أنصره ؟! قال : تحجزه أو تمنعه من الظلم ، فإن ذلك نصره »[٤] .

---

(١) رواه الأصبهانى .
(٢) رواه البخارى ومسلم .
(٣) رواه البخارى ومسلم .
(٤) رواه البخارى .

والمسلم الحق يعدل فى الرعية إذا كان حاكما ، إذ السلطان فى الحقيقة للأمة ، وإنما الحاكم بمثابة الوكيل عنها ، وفى هذا يقول المعرى :

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

فإذا عدل فتجب طاعته لقول الله تبارك وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ، ولقول النبى صلى الله عليه وسلم : « الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، الدين النصيحة » قالوا : لمن يا رسول الله ؟ ! قال « لله ولرسوله ولأولى الأمر منكم » ولقد خطب سعيد ابن سويد بحمص ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الناس : إن الإسلام حائط منيع وباب وثيق ، فحائط الإسلام الحق وبابه العدل ، ولا يزال الإسلام منيعا ما اشتد السلطان ، وليس شدة السلطان قتلا بالسيف ولا ضربا بالسوط ، ولكن قضاء بالحق وأخذا بالعدل » ، وكتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، لما ولى الخلافة إلى الحسن بن أبى الحسن البصرى أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل — فكتب إليه الحسن رحمه الله : « اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل وقصد كل جائر وصلاح كل فاسد وقوة كل ضعيف ونصفة كل مظلوم ومفزع كل ملهوف ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المرعى ويذودها عن مراتع المهلكة ويحميها من السباع ويكنفها من أذى الحر والقر ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده يسعى لهم صغارا ويعلمهم كبارا ويكتسب لهم فى حياته ويدخر لهم بعد مماته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها حملته كرها ووضعته كرها وربته طفلا تسهر بسهره وتسكن بسكونه ترضعه تارة وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصى اليتامى وخازن المساكين ، يربى صغيرهم ويمون كبيرهم ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويسمعهم ، وينظر إلى الله ويريهم من العافية والصحة ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ، ورحمة الله وبركاته » .

والمسلم الحق ينصح الحاكم ولا يغشه ، ومثله قول الحسن حين أرسل إليه ابن هبيرة وأتى الشعبي فقال له : ما ترى أبا سعيد فى كتب تأتينا من عند يزيد بن عبد الملك فيها بعض ما فيها ، فإن أنفذتها وافقت سخط الله وإن لم أنفذها خشيت على دمى ، فقال له الحسن هذا عندك الشعبي فقيه الحجاز ! فسأله فرفق له الشعبي وقال له : « قارب وسدد فإنما أنت عبد مأمور » ! ثم التفت ابن هبيرة إلى الحسن وقال : ما تقول يا أبا سعيد ؟ فقال الحسن يا ابن هبيرة : خف الله فى يزيد ولا تخف يزيد فى الله ، يا ابن هبيرة إن الله مانعك من يزيد وإن يزيد لا يمنعك من الله ، يا ابن هبيرة لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، فانظر ما كتب إليك فيه يزيد فاعرضه على كتاب الله تعالى ، فما وافق كتاب الله تعالى فأنفذه وما خالف كتاب الله فلا تنفذه ، فإن الله أولى بك من يزيد ، وكتاب الله أولى بك من كتابه » فضرب ابن هبيرة بيده على كتف الحسن وقال : هذا الشيخ صدقنى ورب الكعبة ! وأمر للحسن بأربعة آلاف وللشعبي بألفين ، فقال الشعبي رفقنا فرفق لنا ، فأما الحسن فأرسل إلى المساكين ، فلما اجتمعوا فرقها وأما الشعبي فقبلها وشكر عليها !

والمسلم الحق يعرف حقوقه فيتمسك بها وواجباته فيؤديها ، وفى هذا يقول الرئيس جمال عبد الناصر : « إن ما نزل بالمجتمع المصرى من المصائب والشقاء وفساد الحكومات ، إنما يرجع إلى سبب واحد هو جهل كل فرد بحقوقه وتجاهلها ، وتناسى كل فرد لواجباته » ، « يجب أن يعرف كل فرد منا حقوقه الطبيعية المقدسة التى يجب ألا تمتد إليها يد المساومة والعبث » ، « ليثق كل إنسان فى نفسه . . . ليئس كل فرد نفسه وينكر ذاته » ، « إن الله لا يحب إلا الأقوياء ويكره المستضعفين » ، « إن على كل فرد منا أن يقوم نفسه أولا ثم يصلح من يحيط به » ، « يجب أن نحرر أنفسنا أولا ونثق فى أنفسنا وفى وطننا ، يجب أن نتحرر من الخوف والفزع ، فإذا تحررنا سرنا فى طريقنا وحققنا آمالنا » ، « يجب أن نتحرر من الفردية ، فإذا نظرنا إلى الماضى وجدنا أن النتائج السيئة التى حلت فوق رؤسنا كانت نتيجة للفردية ، وهى الاستبداد السياسى والظلم

الإجتماعى والاحتلال البريطانى » . « إننا حتى نتمكن من تحقيق غايتنا ، يجب ألا نمكن المستعمر من أن يجد ثغرة فى صفوفنا ، ويجب أن ندرك أن بقاءه فى أرضنا ، لم يكن مرده إلى قوة المستعمر أوسلاحه ، ولكن مرده إلى التفرق فى صفوفنا » ، « لقد أورثتنا السنوات الطويلة الماضية عادات سيئة منها الأنانية والأنانية ما زالت متفشية وما زال الحسد والحقد موجودين ، وكل فرد يتفوق يحاول الباقون أن يهدموه بدلا من معاونته وتشجيعه وبدلا من تقليده ولهذا يجب على كل واحد منا أن يثق بالآخرين وأن يساعد زملاءه ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وأن يبذل كل ما يستطيع ليحمل الآخرين على العمل لنهضة البلاد ورفعتها » ، « إن الوقت الذى يقول فيه الجندى أولادى أولا ويفكر فيهم ويهرب من الموت سيموت حتما ، وكل منكم يجب أن يفكر فى أولاد أخيه قبل أن يفكر فى أولاده ، فيحمى أخاه قبل أن يحمى نفسه ، ولكل أجل كتاب » ، « ولو حاولنا أن نتساءل كيف تمكن الاستعمار لوجدنا الحقيقة المؤلمة تبرز أمامنا ، بأننا الذين مكنا لهذا الاستعمار منا ، فكم يكن هذا الاستعمار يعتمد على سلاحه وبطشه ، لأنه يعلم أن السلاح والبطش لا يجديان شيئا أمام إرادة شعب حريص على حريته وعزته ، ولكن كان يعتمد على الخونة والمنافقين من أبناء البلاد » ، « إذا أردنا أن نبنى وأن نحقق لأنفسنا وأولادنا حياة عزيزة كريمة ، فلنشترك جميعا فى البناء ، وليكن كل المواطنين أقوياء ، فلا تتدلل الطبقة المتعلمة على حساب العمال والفلاحين » ، « إننا نهتف دائما بالحرية ونهتف بالعزة ، وليست العزة كلاما أوهتافا ، وليست الحرية أوهاما ينادى بها بلا وعى ، ولكن الحرية هى التحرر من العبودية ومن الخوف ومن الفزع » ، « إن الحرية التى يجب أن نوطد دعائمها تقوم على مقاومة الطغيان الذى كان يمثل كل شخص أمامه الإستسلام والهزيمة ، ولكى نحقق الحرية يجب أن نتخلص من روح الطغيان والإستبداد ، وبذلك نبنى وطنا قويا كريما ، ولن يتحقق لنا ذلك إلا بكفاح شاق مرير وبعد أن يعرف كل منا رسالته فيؤديها حق الأداء » .

« ليس هناك رجل حكم ، ولن يكون هناك فى مصر رجل حكم ، ولكن سيكون هناك شعب قوى عزيز أبى يؤمن بالمبادىء والمثل العليا ويؤيد المبادىء والمثل العليا ولا يؤيد الأشخاص ولكن يؤيد المبادىء وحدها والمثل العليا وحدها » ، « كنا نفهم ولازلنا نفهم أن الثقة المتبادلة بيننا ، هى ثقة بين المبادىء ، ثقة بين المثل العليا والمثل العليا ، ولذلك فجدير بهذه الثقة أن تحفزنا ولا بد أن تدفعنا لنسير قدما إلى الأمام لتحقيق هذه المبادىء ولنحقق هذه المثل العليا » ، « وإننا سنسير اليوم فى سياستنا الداخلية على أسس مستقلة ، وسنسير فى سياستنا الخارجية أيضاً على أسس كاملة مستقلة ، نعمل للشعب كله لا لفئة من الفئات سياسة مستقلة لخير الجميع » ، « إن الحياة لم تخلق للتافهين ولكن للعاملين ، فإذا فكرتم فى هذه الحياة ففكروا فى الجوهر ولا تفكروا فى المظهر ، فكروا فى العظيم من الأمور ولا تشغلوا أنفسكم بالتافه منها ، فكل فرد له فى المجتمع هدفان ، هدفه الخاص كفرد وهدفه العام هو أن يكون قويا ، لأن قوته من قوة هذا الوطن » ، « يجب أن يؤمن كل فرد منكم بنفسه وأن يعتقد أن عليه رسالة فى هذه الحياة يجب أن يؤديها ، وأن هذه الرسالة لا تتحقق كاملة بالمظاهر الجوفاء ولكن بالتصميم والإيمان . . . وأعتقد أن أكبر سعادة يمكن للإنسان أن يشعر بها هى فى أن يحقق السعادة للاخرين ، وهذا لا يكون إلا إذا اتخذنا نهجاً جديدا فى حياتنا »[1] .

ولا ريب فى أن المؤمن يعمل الخير دائما ويقلع عن الشر دوما ويأخذ من صحته لمرضه ومن حياته لموته ، فعن ابن عمر رضى الله عنهما . قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي وقال : كن فى الدنيا كأنك غريب عنها أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور ! وكان ابن عمر رضى الله عنهما يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ

---

(١) راجع ص ١٣ و ١٥ و ٢٣ و ٣٠ و ٣٦ و ٣٨ و ٣٩ و ٤٠ و ٥٠ و ٨٤ و ٩٥ و ١١٣ و ١٢٢ و ١٤٥ جـ ١ و ٤٦٥ و ٤٨٨ و ٥٢٨ و ٥٣٠ و ٥٤١ جـ ٣ و ٤٠٧ جـ ٢ من خطب الرئيس جمال عبد الناصر . ويسرنا أن نذكر أنا أرسلنا إليه بعزة المسلم والمصرى والعربى « نحن الشعب نهنئكم بدستور الشعب » ، فرد حفظه الله رداً كريما .

من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك ! وعن ثوبان رضى الله عنه . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوشك الأمم أن تتداعى عليكم[١] كما تتداعى الأكلة[٢] إلى قصعتها ! فقال قائل : من قلة نحن يومئذ ؟ قال : لا ! بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء[٣] كغثاء السيل . ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن ! قيل : وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهة الموت » !

وظاهر كل الظهور أن ما قصر بنا عن فعل الخير ، إغفال ذكر الموت ! وأن ما أخرنا عن غيرنا من الأمم حرصنا على الحياة الدنيا وخوفنا من الموت ! . فلو رجعنا إلى مبادىء الدين الحنيف . . ولو فقهنا حقيقة أخلاق المؤمن الحقة التى حدثنا النبى الكريم عنها ، لما قصرنا فى خير ولحرصنا على فعله خشية هجوم المنية علينا ووقوفها حائلا بيننا وبين أن نقدم لحياتنا ، ولو وصلنا إلى هذا الرقى الواجب علينا الوصول إليه لاستحضرنا الموت فى ذهننا . . ولو استحضرناه لما خشيناه لأنه مكتوب علينا ولا بد واصل إلينا . . وبذا نأبى إلا الحياة عزيزة فنقدم كل أسباب القوة غير هيابين ولا وجلين ! ولن يكون إذ ذاك الموت حائلا بيننا وبينها ولا قاعداً بنا عن الذود عن الحق ما استطعنا إليه سبيلا ![٤] والمسلم الحق ينوى للخير ، لأنه ما دام ينوى الخير فهو بخير ، وفى الحديث « نية المؤمن خير من عمله » لأنه كما قال أبو الليث السمرقندى : قد يثاب على نية الخير وإن لم يعمله ولا يثاب على عمله بلا نية ، أو لطول نيته وقصر عمله ، لأنه قد ينوى أن يعمل الخير مابقى ولا يستطيع أن يعمل الخير ما بقى . أو لأن النية عمل القلب والقلب معدن المعرفة ، فهو أفضل ، أو أن معناه كما يقول الغزالى أن نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذى هو من جملة طاعته ! وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله

---

(١) التداعى : التتابع ، أى يدعو بعضها بعضا فتجيب .

(٢) جمع آكل .

(٣) الغثاء : ما يلقيه السيل .

(٤) راجع ص ٦٢ — ٦٥ من وحى الأحاديث المحمدية الجزء الثانى لمحمود على قراعة .

صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى ، قال « إن الله تعالى كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها ، كتبها الله عنده حسنة ، ومن هم بها وفعلها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها ، كتبها الله عنده سيئة واحدة »[١] .

---

(١) رواية البخارى ومسلم . وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه « من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوى أداءه فهو زان ، ومن أدان دينا وهو لا ينوى أداءه — أى قضاءه — فهو سارق » .

وظن بعضهم وجود تعارض بين حديثى النية السابق ذكرهما ، لأنه النية فى الحديث الثانى دون العمل ، وفى الحديث الأول خير من العمل ، فرد عليهم ابن قتيبة بما خلاصته : أنه ليس هاهنا تناقض ولا اختلاف بحمد الله تعالى ، والهام بالحسنة إذا لم يعملها خلاف العامل لها ، لأن الهام لم يعمل ، والعامل لم يعمل حتى هم ثم عمل ، وإنما يخلد الله المؤمن فى الجنة بنيته لا بعمله ، لأنه كان ناويا أن يطيع الله أبداً : لو أبقاه ، فلما اخترمه (أى أماته) دون نيته ، جزاه عليها ، وكذلك الكافر نيته شر من عمله ، لأنه كان ناويا أن يقيم على الكفر لو أبقاه أبدا ، فلما اخترمه الله تعالى دون نيته جزاه عليها . راجع ص ١٨٤ و ١٨٥ من تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة .

الفصل السادس

معرفة الله وتوحيده وحبه ومراقبته فى الإسلام

« عليك بورد واحد وهو إسقاط الهوى
ومحبة المولى ، أبت المحبة أن تستعمل محبا
إلا فيما يوافق محبوبه »
الشيخ أبو الحسن

(١) معنى العبادة : سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن قوله عز وجل « يا أيها الناس اعبدوا ربكم » وعن العبادة وحقيقة العبودية ، فأجاب بما خلاصته : هى اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة ، وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضاء بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف لعذابه وأمثال ذلك هى من العبادة لله ، وذلك أن العبادة لله هى الغاية المحبوبة له والمرضية له التى خلق الخلق لها كما قال تعالى « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » وبها أرسل جميع الرسل كما قال تعالى « وما أرسلنا من قبلك من رسول ، إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » وجعل ذلك لازما لرسوله إلى الموت كما قال « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » ، وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه فقال تعالى « إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون » وذم المستكبرين عنها بقوله « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ، إن الذين

يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » ونعت صفوة خلقه بالعبودية فقال تعالى « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا » وقال الله تعالى ردا على إبليس : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين » وقال فى وصف الملائكة بذلك « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون ، لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » وقال تعالى عن المسيح بن مريم « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل » ونعت الله النبي صلى الله عليه وسلم بالعبودية فى أكمل أحواله فقال فى الإسراء « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا » وقال فى الإيحاء « فأوحى إلى عبده ما أوحى » وقال فى الدعوة « وإنه لما قام عبد الله يدعوه ، كادوا يكونون عليه لبدا » وقال فى التحدى « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا ، فأتوا بسورة من مثله » ، فالدين كله داخل فى العبادة .

والدين يتضمن معنى الخضوع والذل ، فيقال يدين الله ويدين لله أى يعبد الله ويطيعه ويخضع له ، فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له ، والعبادة أصل معناها الذل أيضا ، يقال طريق معبد إذا كان مذللا ، لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب ، فهى تتضمن غاية الذل بغاية المحبة له فإن آخر مراتب الحب هو التتيم وأوله العلاقة لتعلق القلب بالمحبوب ، ولهذا لا يكفى أحدهما فى عبادة الله تعالى ، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شىء وأن يكون الله أعظم عنده من كل شىء ، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله وكل ما أحب لغير الله فمحبته فاسدة ، وما عظم بغير أمر الله ، كان تعظيمه باطلا ، قال الله تعالى : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره » فجنس المحبة تكون لله ولرسوله كالطاعة والإرضاء ، « والله ورسوله أحق أن يرضوه » ، والإيتاء لله ورسوله ، « ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله » ، وأما العبادة وما يناسبها من التوكل والخوف ونحو ذلك فلا يكون إلا لله وحده

كما قال تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا » . وأما الحسب وهو الكافى فهو الله وحده ، كما قال تعالى : « يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » أى حسبك وحسب من اتبعك الله ، ومن ظن أن المعنى حسبك الله والمؤمنون معه فقد غلط غلطا فاحشا ، فالعبد يراد به المعبد الذى عبده الله فذلله ودبره وصرفه ، وبهذا الإعتبار المخلوقون : كلهم عباد الله من الأبرار والفجار والمؤمنين والكفار وأهل الجنة وأهل النار ، إذ هو ربهم كلهم ومليكهم لايخرجون عن مشيئته وقدرته وكلماته التامات التى لايجاوزهن بر ولا فاجر ، فما شاء كان وإن لم يشاءوا ، وإن لم يشأه لم يكن ، كما قال تعالى : « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون » ، فهو سبحانه رب العالمين ، وخالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم ومقلب قلوبهم ومصرف أمورهم ! لارب لهم غيره ، ولا مالك لهم سواه ولا خالق إلا هو ، سواء اعترفوا بذلك أو أنكروه وسواء علموا بذلك أوجهلوه ، لكن أهل الإيمان منهم عرفوا ذلك واعترفوا به بخلاف من كان جاهلا بذلك أوجاحدا له مستكبرا على ربه لا يقر ولا يخضع مع علمه بأن الله ربه وخالقه ، فإن اعترف العبد أن الله ربه وخالقه وأنه مفتقر إليه محتاج إليه ، عرف العبودية المتعلقة بربوبية الله ، وهذا العبد يسأل ربه فيتضرع إليه ويتوكل عليه . ولكن قد يطيع أمره وقد يعصيه وقد يعبده مع ذلك وقد يعبد الشيطان والأصنام ، ومثل هذه العبودية لاتفرق بين أهل الجنة وأهل النار ولايصير بها الرجل مؤمنا ، كما قال تعالى : « ومايؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » ، وإبليس معترف بهذه الحقيقة ، « فبعزتك لأغوينهم أجمعين » ، وكذلك أهل النار ، « ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين » . فمن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها ولم يقم بما أمر الله به من الحقيقة الدينية التى هى عبادته المتعلقة بالهيبة وطاعة أمره وأمر رسوله ، كان من جنس إبليس وأهل النار !

يخرج ابن تيمية من ذلك إلى القول بأن النوع الثانى من معنى العبد هو العبد بمعنى العابد أن يكون عابدا لله لا يعبد إلا إياه ، فيطيع أمره وأمر

رسوله ويوالى أولياءه المؤمنين المتقين ويعادى أعداءه ، وهذه العبادة متعلقة بالهيته ، ولهذا كان عنوان التوحيد « لا إله إلا الله » ، فالإله الذى يألهه القلب بكمال الحب والتعظيم والإجلال والإكرام والخوف والرجاء ونحو ذلك ، وهذه العبادة هى التى يحبها الله ويرضاها وبها وصف المصطفين من عباده وبها بعث رسله ، وأما العبد بمعنى المعبد سواء أقر بذلك أو أنكره فتلك يشترك فيها المؤمن والكافر ، وبالفرق بين هذين النوعين يعرف الحق بين الحقائق الدينية الداخلة فى عبادة الله ودينه وأمره الشرعى ،التى يحبها ويرضاها ويوالى أهلها ويكرمهم بجنته ، وبين الحقائق الكونية التى يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر والتى من اكتفى بها ولم يتبع الحقائق الدينية ، كان من أتباع إبليس اللعين والكافرين برب العالمين ، ومن اكتفى بها فى بعض الأمور دون بعض أوفى مقام ،نقص من إيمانه وولايته بحسب مانقص من الحقائق الدينية .

ويضرب ابن تيمية أمثلة لما غلط فيه الغالطون ، فيقول : إن ما قدر من المصائب يجب الاستسلام له ، فإنه من تمام الرضا بالله ربا « ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه » ، وأما الذنوب فليس للعبد أن يذنب ، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب ، فيتوب من المعايب ويصبر على المصايب . « فاصبر إن وعد الله حق ، واستغفر لذنبك » فمن الغلط الاستسلام للذنوب والمعاصى والكفر وظن أن الاستسلام لذلك وموافقته والرضاء به ونحو ذلك دينا وطريقا وعبادة فيضاهون المشركين الذين قالوا : « لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء» وقالوا : « أنطعم من لو يشاء الله أطعمه» وقالوا : « لو شاء الرحمن ما عبدناهم » وكذلك ذنوب العباد يجب على العبد فيها أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بحسب قدرته ، ويجاهد فى سبيل الله الكفار والمنافقين ويوالى أولياء الله ويعادى أعداء الله ويحب لله ويبغض فى الله .

ويقول ابن تيمية بعد ذلك إن النجاة فى الاعتصام بالسنة ، وذلك أن السنة كما قال مالك رحمه الله مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق ! والعبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم ونحو ذلك من الأسماء

مقصودها واحد ، ولها أصلان : (أحدهما) ألا يعبد إلا الله و (الثانى) أن يعبده بما أمر وشرع لا بغير ذلك من البدع ، قال تعالى : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » ، فالعمل الصالح هو الإحسان وهو فعل الحسنات على إخلاص الدين لله وحده ، وكمال المخلوق فى تحقيق عبوديته لله ، وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ، ازداد كماله وعلت درجته[1] .

(٢) معرفة الله « يقول الغزالى : إن خاصية الإنسان العلم والحكمة ، وأشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله ، فيه كمال الإنسان ، وفى كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال » ويقول : « إن جملة عالم الملكوت والملك إذا أخذت دفعة واحدة تسمى الحضرة الربوبية لأنها محيطة بكل الموجودات إذ ليس فى الوجود شىء سوى الله تعالى ، وأفعاله ومملكته وعبيده من أفعاله » ، ولذا يرى أنه يجب على الإنسان أن يفهم التوحيد بأن يرى الأشياء كلها من مسبب الأسباب ، ولا يلتفت إلى الوسائط بل يرى الوسائط مسخرة لا حكم لها ، وأن يوقن بالثواب والعقاب بأن يغلب على قلبه أن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، موقنا بأن الله تعالى مطلع عليه فى كل حال مشاهد لهواجس ضميره وخفايا خواطره وفكره ، ويظهر أثر الخشية عليه ، لا ينظر إليه ناظر إلا وكان نظره مذكرا الله تعالى ، وكانت صورته دليلا على عمله !

فالركن الأول من أركان الإيمان هو فى معرفة ذات الله سبحانه وتعالى وأنه واحد ، ومدار هذا الركن على معرفة وجوده تعالى والعلم بأنه تعالى قديم لم يزل ، أزلى ليس لوجوده أول وليس لوجوده آخر ، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وأنه تعالى ليس بجوهر يتحيز بل يتعالى ويتقدس عن مناسبة الحيز ، وأنه تعالى ليس بجسم مؤلف من جواهر وليس بعرض قائم بجسم

---

(١) راجع ص ٣٠٢ — ٣١٨ من فتاوى ابن تيمية المجلد الثانى وص ١١٧ — ١٢٥ من وحى الأحاديث المحمدية الجزء الثانى لمحمود على قراعة .

أو حال فى محل ، وأنه منزه الذات عن الاختصاص بالجهات ، وأنه تعالى مستو على عرشه بالمعنى الذى أراد الله تعالى بالاستواء وهو الذى لا ينافى وصف الكبرياء ولا يتطرق إلى سمات الحدوث والفناء وهو الذى أريد بالاستواء إلى السماء ، وأنه تعالى على كونه منزها عن الصورة والمقدار ، مقدسا عن الجهات والأقطار ، مرئى بالعين والأبصار فى الدار الآخرة ، وأنه عز وجل واحد لا شريك له .

وإما الركن الثانى من أركان الإيمان فهو العلم بصفات الله تعالى ، بأنه « هو على كل شىء قدير » و « وهو بكل شىء عليم » وأنه حى ، وأنه هو المبدئ المعيد الفعال لما يريد ، سميع (بلا أذن) بصير (بلا حدقة) ، لا تعزب عن رؤيته هواجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير ، وأنه سبحانه وتعالى متكلم بكلام هو وصف قائم بذاته ليس بصوت ولا حرف ، بل لا يشبه كلامه كلام غيره ، وأن الكلام القائم بنفسه قديم وكذا جميع صفاته إذ يستحيل أن يكون محلا للحوادث داخلا تحت التغير ، وأن علمه قديم ، وأن إرادته وهى فى القدم تعلقت بإحداث الحوادث فى أوقاتها اللائقة بها وفق سبق العلم الأزلى .

والركن الثالث من أركان الإيمان هو العلم بأفعال الله تعالى وأن كل حادث فى العالم هو فعله وخلقه واختراعه ، وأن انفراد الله سبحانه باختراع حركات العباد ، لا يخرجها عن كونها مقدرة للعباد على سبيل الاكتساب ، بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعا ، وخلق الاختيار والمختار جميعا ، وأن فعل العبد وإن كان كسبا للعبد فلا يخرج عن كونه مراداً لله سبحانه وتعالى ، وأنه لا يستحيل بعثة الأنبياء عليهم السلام ، وأن الله سبحانه وتعالى قد أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم خاتما للنبيين[1] .

ويقول عطاء الله السكندرى وهو أحد العارفين : « مما يدلك على وجود قهره سبحانه أن حجبك عنه بما ليس بموجود معه ، كيف يتصور أن يحجبه

---

(١) راجع ص ٢٧ — ٣٤ من الثقافة الروحية فى كتاب احياء علوم الدين للغزالى بقلم محمود على قراعة .

شيء وهو الذى أظهر كل شيء ، وكيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذى ظهر بكل شيء ، كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذى ظهر فى كل شيء . وكيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذى ظهر لكل شيء ، كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء ، كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء ، كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذى ليس معه شيء ، كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء ، كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه ما كان وجود كل شيء » ! ويقول : « يا عجبا كيف يظهر الوجود فى العدم ، أم كيف يثبت الحادث على من له وصف القدم . ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يحدث فى الوقت غير ما أظهره الله فيه ، إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس ، لا تطلب منه أن يخرجك من حالة ليستعملك فيما سواها . فلو أرادك لاستعملك من غير إخراج ، ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لها إلا ونادته هواتف الحقيقة الذى تطلب أمامك ، ولا تبرجت ظواهر المكونات إلا ونادتك حقائقها إنما نحن فتنة فلا تكفر ، طلبك منه اتهام له وطلبك له غيبة منك عنه وطلبك لغيره قلة حيائك منه وطلبك من غيره لوجود بعدك عنه ، وما نفس تبديه إلا وله قدر فيك يمضيه ، لا تترقب فروع الأغيار فإن ذلك يقطعك عن وجود المراقبة له فيما هو مقيمك فيه ، ولا تستغرب وقوع الأكدار ما دمت فى هذه الدار فإنها ما أبرزت إلا ما هو مستحق وصفها وواجب نعتها . وما توقف مطلب أنت طالبه بربك ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك ، ومن علامات النجح فى النهايات الرجوع إلى الله تعالى فى البدايات ، من أشرقت بدايته أشرقت نهايته ، وما استودع فى غيب السرائر ظهر فى شهادة الظواهر ، وشتان بين ما يستدل به أو يستدل عليه ، المستدل به عرف الحق لأهله فأثبت الأمر من وجود أصله ، والاستدلال عليه عدم الوصول إليه . فمتى غاب حتى يستدل عليه ومتى بعد حتى تكون الآثار هى التى توصل إليه ؟ ! ، ويقول : « شعاع البصيرة يشهدك قربه منك ، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده ، وحق البصيرة يشهدك وجوده لا عدمك ولا وجودك ، كان الله

ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان ، من عرف الحق شهده فى كل شيء ، ومن فنى به غاب عن كل شيء ، ومن أحبه لم يؤثر عليه شيئا ، وإنما حجب الحق عنك شدة قربه منك ، وإنما احتجب لشدة ظهوره وخفى عن الأبصار لعظم نوره ، كيف يكون طلبك اللاحق سببا فى عطائه السابق ، جل حكم الأزل أن ينضاف إلى العلل ، عنايته فيك لا لشيء منك وأين كنت حين واجهتك عنايته وقابلتك رعايته ؟ ! لم يكن فى أزله إخلاص أعمال ولا وجود أحوال بل لم يكن هناك إلا محض الأفضال وعظيم النوال ، علم أن العباد يتشوفون إلى ظهور سر العناية فقال يختص برحمته من يشاء ، وعلم أنه لو خلاهم وذلك لتركوا العمل اعتمادا على الأزل فقال إن رحمة الله قريب من المحسنين ، إلى المشيئة يستند كل شيء ، ربما دلهم الأدب على ترك الطلب اعتمادا على قسمته واشتغالا بذكره عن مسئلته ، إنما يذكر من يجوز عليه الإغفال وإنما ينبه من يمكن منه الإهمال تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه ، تحقق بذلك يمدك بعزه ، تحقق بعجزك يمدك بقدرته ، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته ، الحق ليس بمحجوب وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه ، ولو كان له ساتر ، لكان لوجوده حاصر ، وكل حاصر لشيء فهو له قاهر ، وهو القاهر فوق عباده » .

ولذا كان دعاؤه رضى الله عنه دعاء العارفين فرحاً بربه طالباً الرضا منه فاهما عنه ، فكان يقول : إلهى أنا الفقير فى غناى فكيف لا أكون فقيرا ، أنا الجاهل فى علمى فكيف لا أكون جهولا فى جهلى ، إلهى إن اختلاف تدبيرك وسرعة حلول مقاديرك منعا عبادك العارفين بك عن السكون إلى عطاء واليأس منك فى بلاء ، إلهى منى ما يليق بلؤمى ومنك ما يليق بكرمك ، إلهى وصفت نفسك باللطف والرأفة بى قبل وجود ضعفى ، أفتمنعنى منهما بعد وجود ضعفى ، إلهى إن ظهرت المحاسن منى فبفضلك ولك المنة وإن ظهرت المساوىء فبعدلك ولك الحجة على ، إلهى كيف تكلنى إلى نفسى وقد توكلت لى وكيف أضام وأنت الناصر لى أم كيف أخيب وأنت الحفى بى ، ها أنا أتوسل إليك بفقرى إليك ، وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك ، أم كيف أشكو إليك حالى وهى لا تخفى عليك ، أم كيف أترجم لك بمقالى وهو

منك برز إليك ، أم كيف تخيب آمالى وهى قد وفدت إليك ، أم كيف لا تحسن أحوالى وبك قامت وإليك ، إلهى ما ألطفك بى مع عظيم جهلى وما أرحمك بى مع قبيح فعلى ، إلهى ما أقربك منى وما أبعدنى عنك ، إلهى ما أرأفك بى فما الذى يحجبنى عنك ، إلهى قد علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أن مرادك منى أن تتعرف إلى فى كل شىء حتى لا أجهلك فى شىء ، إلهى كلما أخرسنى لؤمى أنطقنى كرمك ، وكلما آيستنى أوصافى أطمعتنى منتك ، إلهى من كانت محاسنه مساوى فكيف لا تكون مساويه مساوى ، ومن كانت حقائقه دعاوى فكيف لا تكون دعاويه دعاوى ، إلهى حكمك النافذ ومشيئتك القاهرة لم يتركا لذى مقال مقالا ، ولا لذى حال حالا ، إلهى كم من طاعة بنيتها وحالة شيدتها هدم اعتمادى عليها عدلك بل أقالنى منها فضلك ، إلهى أنت تعلم وإن لم تدم الطاعة منى فعلا جزما ، فقد دامت محبة وعزما ، إلهى كيف أعزم وأنت القاهر وكيف لا أعزم وأنت الآمر ، إلهى ترددى فى الآثار يوجب بعد المزار فاجمعنى عليك بخدمة توصلنى إليك ، إلهى كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك ، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك ! متى غبت حتى تحتاج إلى دليل ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك ، إلهى عميت عين لاتراك عليها رقيبا ، وخسرت صفقة عبد لم يجعل له من حبك نصيبا ، إلهى أمرت بالرجوع إلى الآثار فارجعنى إليها بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها مصون السر عن النظر إليها ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها إنك على كل شىء قدير ، إلهى هذا ذلى ظاهر بين يديك وهذا حالى لايخفى عليك ، منك أطلب الوصول إليك ، وبك أستدل عليك ، فاهدنى بنورك إليك ، وأقمنى بصدق العبودية بين يديك ، إلهى علمنى من علمك المخزون ، وصنى بسر اسمك المصون ، إلهى حققنى بحقائق أهل القرب ، واسلك بى مسالك أهل الجذب ، إلهى اغننى بتدبيرك عن تدبيرى ، وباختيارك لى عن اختيارى وأوقفنى على مراكز اضطرارى ، إلهى أخرجنى من ذل نفسى ، وطهرنى من شكى وشركى قبل حلول رمسى ، بك أستنصر فانصرنى وعليك أتوكل فلا تكلنى وإياك أسأل فلا تخيبنى وفى فضلك أرغب

فلا تحرمنى ، ولجنابك أنتسب فلا تبعدنى ، وببابك أقف فلا تطردنى ، إلهى تقدس رضاك أن تكون له علة منك فكيف تكون له علة منى ، أنت الغنى بذاتك عن أن يصل إليك النفع فكيف لا تكون غنيا عنى ، إلهى إن القضاء والقدر غلبنى ، وإن الهوى بوثائق الشهوة أسرنى ، فكن أنت النصير لى حتى تنصرنى وتنصر بى واغننى بفضلك حتى أستغنى بك عن طلبى ، أنت الذى أشرقت الأنوار فى قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك ، وأنت الذى أزلت الأغيار من قلوب أحبابك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجأوا إلى غيرك ، أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم ، وأنت الذى هديتهم حتى استبانت لهم المعالم ، ماذا وجد من فقدك ، وما الذى فقد من وجدك ، لقد خاب من رضى دونك بدلا ، ولقد خسر من بغى عنك متحولا ، إلهى كيف يرجى سواك وأنت ما قطعت الإحسان ، وكيف يطلب غيرك وأنت ما بدلت عاد الامتنان ، يا من أذاق أحبابه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه متملقين ، ويا من ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بعزته مستعزين ، أنت الذاكر من قبل الذاكرين ، وأنت البادىء الإحسان من قبل توجه العابدين ، وأنت الجواد بالعطاء من قبل طلب الطالبين ، وأنت الوهاب ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين ، إلهى اطلبنى برحمتك حتى أصل إليك ، واجذبنى بمنتك حتى أقبل إليك ، إلهى إن رجائى لا ينقطع عنك وإن عصيتك ، كما أن خوفى لا يزايلنى وإن أطعتك ، إلهى قد دفعتنى العوالم إليك ، وقد أوقفنى على بكرمك عليك إلهى كيف أخيب وأنت أملى ، أم كيف أهان وعليك متكلى ، إلهى كيف أستعز وأنت فى الذلة أركزتنى ، أم كيف لا أستعز وإليك نسبتنى ، أم كيف لا أفتقر وأنت الذى فى الفقر أقمتنى ، أم كيف أفتقر وأنت الذى بجودك أغنيتنى ، أنت الذى لا إله غيرك ، تعرفت لكل شىء فما جهلك شىء ، وأنت الذى تعرفت إلى فى كل شىء فرأيتك ظاهراً فى كل شىء ، فأنت الظاهر لكل شىء ، يا من استوى برحمانيته على عرشه ، فصار العرش غيبا فى رحمانيته ، كما صارت العوالم غيبا فى عرشه ، محقت الآثار بالآثار ، ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار ، يا من احتجب فى سرادقات عزه عن أن تدركه

الأبصار ، يا من تجلى بكمال بهائه فتحققت عظمته الأسرار ، كيف تخفى وأنت الظاهر ، أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر ، والله الموفق وبه أستعين »[١] .

(٣) توحيد الله والتوكل عليه : ويقول الغزالى إن التوحيد يترجمه قولك « لاإله إلا الله وحده لاشريك له » ولبابه أن يرى الأمور كلها من الله وأن يعبده عبادة يفرده بها فلا يعبد غيره ويخرج عن هذا التوحيد إتباع الهوى ، فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده[٢] .

ويقول أحمد بن عطاء الله السكندرى « إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك فى الأسباب من الشهوة الخفية ، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك فى التجريد انحطاط عن الهمة العلية » ، ويفسر ابن عباد الرندى هذه الحكمة بقوله إن الأسباب هنا عبارة عما يتوصل به إلى غرض ما ينال فى الدنيا ، والتجريد عبارة عن عدم تشاغله بتلك الأسباب ، فمن أقامه الحق تعالى فى الأسباب وأراد هو الخروج منها ، فذلك من شهوته الخفية ، وإنما كانت من الشهوة لعدم وقوفه مع مراد الله تعالى به وإرادته هو خلاف ذلك ، وإنما كانت خفية لأنه لم يقصد بذلك نيل حظ عاجل وإنما قصد بذلك التقرب إلى الله تعالى بكونه على حال هى أعلى بزعمه ، لكن فاته الأدب بعدم وقوفه مع مراد الله تعالى من إقامته إياه فيما أقامه فيه وتطلعه إلى مقام رفيع لايليق به فى الوقت ، وعلامة إقامته إياه فى الأسباب أن يدوم له ذلك وأن تحصل له ثمرته ونتيجته ، وذلك بأن يجد عن تشاغله بالأسباب سلامة فى دينه وقطعا لمطمعه من

---

(١) راجع متن الحكم : « الله » والقصد المجرد فى معرفة الاسم المفرد لابن عطاء الله السكندرى .

(٢) ويسمى الغزالى توحيد المنافقين قشر التوحيد وهو أن يقول الانسان بلسانه لا إله الا الله وقلبه غافل عنه أو منكر له ، والقشر الثانى توحيد العوام بأن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين ، والمرتبة الرابعة وهى أسمى من اللباب الذى ذكرناه ، هو الفناء فى التوحيد بأن لا يرى فى الوجود إلا واحداً وهى مشاهدة الصديقين لإنه من حيث لايرى فى الوجود إلا واحداً فلا يرى نفسه . راجع ص ٣٦ — ٤٤ من الثقافة الروحية فى كتاب احياء علوم الدين للغزالى لمحمود على قراعة .

غيره وحسن نيته فى صلة الرحم وإعانة فقير معدم إلى غير ذلك من فوائد المال المتعلقة بالدين ، ومن أقامه الحق تعالى فى التجريد وأراد الخروج منه إلى الأسباب فذلك من انحطاط همته وسوء أدبه إن كان واقفا مع شهوته الجلية ، لأن التجريد مقام رفيع أقام الحق تعالى فيه خواص عباده من الموحدين ، فإذا أقامه الحق تعالى فى مقام الخواص ، فلم ينحط عن رتبتهم إلى منازل أهل الإنتقاص ؟ !

ويقول ابن عطاء الله السكندرى : « من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل » ويشرح هذه الحكمة شيخ الإسلام الشيخ عبد الله الشرقاوى بقوله : « إن من علامة الاعتماد على العمل أى عمل الجوارح من صلوات وأوراد وأذكار وغيرها ، رؤية النفس ونسبة الأعمال إليها والاعتماد عليها فى دخول الجنة أو الوصول إلى الله تعالى وكشف الأستار عن القلوب ، إذ العارفون يشاهدون أن الفاعل الحقيقى هو الله تعالى وأنهم محل لظهور ذلك فقط ، ويريد بنقصان الرجاء ، أى رجائه فى الله تعالى — أن يدخله الجنة وينجيه من العذاب أو حصول المكاشفات — عند وجود الزلل بأن تصدر منه معصية كزنا وغفلة عن الله تعالى ، ومن علامة كونه من العارفين فناؤه عن نفسه ، فإذا وقع فى زلة أو أصابه غفلة ، شهد تصريف الحق فيه وجريان قضائه عليه ، كما إذا صدر منه طاعة أو لاح له مشاهدة قلبية ، لم ير فى ذلك حوله وقوته ، فلا فرق عنده بين الحالين لأنه غارق فى بحار التوحيد قد استوى خوفه ورجاؤه فلا ينقص العصيان خوفه ولا يزيد الإحسان رجاءه » .

ويقول ابن عطاء الله السكندرى : « عبوديتك فى الطاعة أن تشهد منته بها عليك ، وفى المعصية الاستغفار والتوبة منها ، وفى النعمة الشكر عليها ، وفى البلية الصبر عليها[1] وليخفف ألم البلاء عليك علمك بأنه سبحانه هو المبلى لك ،

---

(١) فى الخبر « إذا أحب الله عبدا ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، فإن رضى اصطفاه » وفيه أيضا : خلق له كفارة الذنوب والخطايا ويستوجب من الله جزيل الهبات والعطايا .

فالذى واجهتك منه الأقدار هو الذى عودك حسن الاختيار . سوابق الهمم[1] لا تخرق أسوار الأقدار . أرح نفسك من التدبير فيما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك . اجتهادك فيما ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك ، لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح فى الدعاء موجبا ليأسك ، فهو ضمن لك الإجابة فيما يختاره لك لا فيما تختاره لنفسك . وفى الوقت الذى يريد لا فى الوقت الذى تريد . لا يشككنك فى الوعد عدم وقوع الموعود وإن تعين زمنه لئلا يكون ذلك قدحا فى بصيرتك . وإخمادا لنور سريرتك . إذا فتح الله لك وجهة من التعرف فلا تبال معها إن قل عملك ، فإنه ما فتحها لك إلا وهو يريد أن يتعرف إليك » .

« ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك والأعمال أنت مهديها إليه . وأين ما تهديه إليه مما هو مورده عليك ، اخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك لتكون لنداء الحق مجيبا ومن حضرته قريبا . أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس . وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا منك عنها ، ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه ، فأى علم لعالم يرضى عن نفسه وأى جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه . تنوعت أجناس الأعمال لتنوع واردات الأحوال ، الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها ، ما نفع القلب شىء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة ، كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته . أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته . أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته ؟ ! الكون كله ظلمة وإنما أناره ظهور الحق فيه ، فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده ، فقد أعوزه وجود الأنوار وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار ، لا تتعد منة همتك إلى غيره ، فالكريم لا تتخطاه الآمال . لا ترفعن إلى

(١) أى قوى النفس التى تنفعل عنها بعض الموجودات بإذن الله تعالى .

غيره حاجة هو موردها عليك ، فكيف يرفع غيره ما كان هو له واضعا . من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه ، فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعا ، إن لم تحسن ظنك به لأجل حسن وصفه ، فحسن ظنك به لوجود معاملته معك . فهل عودك إلا حسنا وهل أسدى إليك إلا منا ، ماقل عمل برز من قلب زاهد ولا كثر عمل برز من قلب راغب ، حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال وحسن الأحوال من التحقق فى مقامات الإنزال ، من علامات موت القلب عدم الحزن على ما فاتك من الموافقات وترك الندم على مافعلته من وجود الزلات ، لا يعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله تعالى ، فإن من عرف ربه استصغر فى جنب كرمه ذنبه ، لا صغيرة إذا قابلك عدله ولا كبيرة إذا واجهك فضله ، إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه واردا ، أورد عليك الوارد ليتسلمك من يد الأغيار وليحررك من رق الآثار ، أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك ، الأنوار مطايا القلوب والأسرار ، النور جند القلب كما أن الظلمة جند النفس ، فإذا أراد الله أن ينصر عبده أمده بجنود الأنوار وقطع عنه مدد الظلم والأغيار ، النور له الكشف والبصيرة لها الحكم والقلب له الإقبال والأدبار ، لا تفرحك الطاعة لأنها برزت منك وافرح بها لأنها برزت من الله إليك ، قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ، قطع السائرين له والواصلين إليه عن رؤية أعمالهم وشهود أحوالهم ، أما السائرون فلأنهم لم يتحققوا الصدق مع الله فيها ، وأما الواصلون فلأنه غيبهم بشهوده عنها ، خف من وجود إحسانه إليك ودوام إساءتك معه ، أن يكون ذلك استدراجا لك ، سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، ، إذا أردت أن تعرف قدرك عنده فانظر فيماذا يقيمك ، متى رزقك الطاعة والغنى به عنها فاعلم أنه قد أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة ، الحزن على فقدان الطاعة مع عدم النهوض إليها من علامات الاغترار ، والعطاء من الخلق حرمان ، والمنع من الله إحسان ، جل ربنا أن يعامله العبد نقدا فيجازيه بسيئة ، كفى من جزائه إياك على الطاعة أن رضيك لها أهلا ، كفى العاملين جزاء ما هو فاتحه على قلوبهم فى طاعته وما هو مورده عليهم من وجود مؤانسته ،

متى أعطاك أشهدك بره ومتى منعك أشهدك قهره ، فهو فى كل ذلك متعرف ومقبل بوجود لطفه عليك ، إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه ، ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول ، وربما قضى عليك بالذنب فكان سببا فى الوصول ، معصية أورثت ذلا وافتقارا ، خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا ، متى جعلك فى الظاهر ممتثلا لأمره ورزقك فى الباطن الاستسلام لقهره فقد أعظم المنة عليك ، الغافل إذا أصبح ينظر ماذا يفعل ، والعاقل ينظر ماذا يفعل الله به ، كن بأوصاف ربوبيته متعلقا وبأوصاف عبوديتك متحققا ، منعك أن تدعى ما ليس لك مما للمخلوقين ، أفيبيح لك أن تدعى وصفه وهو رب العالمين[1] ، لو أنك لا تصل إليه إلا بعد فناء مساويك ومحو دعاويك ، لم تصل إليه أبدا ، ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه غطى وصفك بوصفه ونعتك بنعته ، فوصلك إليك بما منه إليك لا بما منك إليه ، الستر على قسمين : ستر عن المعصية وستر فيها ، فالعامة يطلبون من الله تعالى الستر فيها خشية سقوط مرتبتهم عند الخلق ، والخاصة يطلبون من الله الستر عنها خشية سقوطهم من نظر الملك الحق ، ربما استحيا العارف أن يرفع حاجته إلى مولاه لاكتفائه بمشيئته ، فكيف لا يستحى أن يرفعها إلى خليقته ، ما أحببت شيئا إلا كنت له عبدا وهو لا يحب أن تكون لغيره عبدا ، لا تنفعه طاعتك ولا تضره معصيتك ، إنما أمرك بهذه ونهاك عن هذه لما يعود عليك ، وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به وإلا فجل ربنا أن يتصل بشىء أو يتصل هو بشىء ، تطلعك إلى بقاء غيره دليل على عدم وجدانك له واستيحاشك لفقدان ما سواه دليل على عدم وصلتك به ، النعيم وإن تنوعت مظاهره فإنما هو بشهوده واقترابه ،

---

(١) يقول الشيخ أبو طالب رضى الله تعالى عنه : هذا حال عبد فان عن نفسه مأخوذ ، إذ كان ربه عز وجل له موجدا ، طال مقامه فى المقامات فقصرت عن وصفه الصفات ، وحق له إذا نظر إلى الحسن الذى حسنت المحاسن كلها عن حسنه وشانت الزينات جميعها بعد النظر إلى زينته ، وشهد الجمال الذى تجمل الجمال والمتجملون بجماله أن لا يستحسن سواه ، وكيف يحب غير ما استحسن أو تزين فى عينه إلا إياه ، أم كيف يطلب غير ما أحب ! أو يصبر مع غير ما طلب ، بل كيف يهتم بغير ما طلب ، فهذا نعت عبد مطلوب بعين ما طلب ، ووصف شخص محبوب بعين ما أحب « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس » .

والعذاب وإن تنوعت مظاهره إنما هو لوجود حجابه ، فسبب العذاب وجود الحجاب ، وإتمام النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم ، ما تجده القلوب من الهموم والأحزان ، فلأجل ما منعت من وجود العيان ، متى آلمك عدم إقبال الناس عليك أو توجههم بالذم إليك ، فارجع إلى علم الله فيك ، فإن كان لا يقنعك علمه فصيبتك بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصيبتك بوجود الأذى منهم ، إنما أجرى الأذى على أيديهم كى لا تكون ساكنا إليهم ، أراد أن يزعجك عن كل شيء حتى لا يشغلك عنه شيء ، إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده ، جعله لك عدوا ليحوشك به إليه ، وحرك عليك النفس ليدوم إقبالك عليه ، المؤمن يشغله الثناء على الله تعالى عن أن يكون لنفسه شاكرا ، وتشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكرا ، ليس المحب الذى يرجو من محبوبه عوضا أو يطلب منه غرضا ، فإن المحب من يبذل لك ليس المحب من تبذل له » .

(٤) اطمئنان القلوب بالله ومع الله : (١) الإسلام من سلام النفوس وسلام القلوب وسلام الضمائر وسلام النوايا وسلام الأعمال ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قلنا يارسول الله ! مالنا إذا كنا عندك رقت قلوبنا وزهدنا فى الدنيا وكانت الآخرة كأنها رأى عين ! وإذا خرجنا من عندك فأنسنا فى أهلينا وشممنا أولادنا ، أنكرنا أنفسنا ؟ ! فقال عليه السلام : لو تدومون على حالكم عندى لزارتكم الملائكة عليهم السلام فى بيوتكم ولصافحتكم فى طرقكم ، ولو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بخلق جديد يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم ، وعن أبى إدريس الخولانى عن أبى ذر رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عن ربه عز وجل أنه قال : يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ! يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ! يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ! يا عبادى كلكم عار إلا من

(١) راجع متن الحكم للامام أحمد بن عطاء الله السكندرى .

كسوته فاستكسونى أكسكم ! يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم ! يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ! يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ! يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً ! يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد[1] واحد وسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط[2] إذا أدخل فى البحر ! يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » !

فما هو الظلم الذى حرمه الله على نفسه ونفاه عن نفسه بقوله : « وما ظلمناهم » وقوله « ولا يظلم ربك أحداً » وقوله « وما ربك بظلام للعبيد » وقوله « إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها » وقوله « قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، ولا تظلمون فتيلا » ونفى إرادته بقوله « وما الله يريد ظلماً للعالمين » وقوله « وما الله يريد ظلما للعباد » ونفى خوف العباد له بقوله « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ، فلا يخاف ظلما ولا هضما » ؟ .

يقول ابن تيمية بعد بحث طويل « الله تعالى خلق كل صانع وصنعته كما جاء ذلك فى الحديث وهو خالق كل موصوف وصفته ، ثم صفات المخلوقات ليست صفات له كالألوان والطعوم والروائح لعدم قيام ذلك به ، وكذلك حركات المخلوقات ليست حركات له ولا أفعالا له بهذا الاعتبار لكونها مفعولات هو خلقها — وبهذا الفرق تزول شبه كثيرة ، والأمر الذى كتبه على نفسه يستحق عليه الحمد والثناء ، وهو مقدس عن ترك هذا الذى لو ترك لكان تركه نقصا —

---

(١) الصعيد وجه الأرض وقيل التراب .

(٢) المخيط بكسر الميم : الابرة .

وكذلك الأمر الذى حرمه على نفسه ، يستحق الحمد والثناء على تركه . وهو مقدس عن فعله الذى لو كان لأوجب نقصاً ، وهـذا كله بين ولله الحمد عند الذين أوتوا العلم والإيمان وهو أيضاً مستقر فى قلوب عموم المؤمنين ، فقد دل الكتاب والسنة على أن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة ، وكان حقاً عليه نصر المؤمنين ، وكان حقاً عليه أن يجزى المطيعين ، وأنه حرم الظلم على نفسه فهو سبحانه الذى حرم بنفسه على نفسه الظلم ، كما أنه هو الذى كتب بنفسه على نفسه الرحمة ! لا يمكن أن يكون غيره محرما عليه أو موجبا عليه فضلا عن أن يعلم ذلك بعقل أو غيره ، وإذا كان كذلك فهذا الظلم الذى حرمه على نفسه هو ظلم بلا ريب وهذا أمر ممكن مقدور عليه ، وهو سبحانه يتركه مع قدرته عليه بمشيئته واختياره ، لأنه عادل ليس بظالم ، كما يترك عقوبة الأنبياء والمؤمنين وكما يترك أن يحمل البرىء ذنوب المعتدين ، وهو سبحانه جعل العدل أمرا واجبا فى كل شىء وعلى كل أحد ، والظلم محرما فى كل شىء واكل أحد ، وجعل كل خير داخلا فى القسط والعدل ، وكل شر داخلا فى الظلم[١] .

(ب) عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : قيل يا رسول الله إن أحدنا يجد فى نفسه يعرض بالشىء لأن يكون حممة أحب إليه من أن يتكلم به ! فقال : الله أكبر ، الحمد لله الذى رد كيده[٢] إلى الوسوسة ، ولمسلم عن ابن مسعود رضى الله عنهما قالوا يا رسول الله إن أحدنا ليجد فى نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة أو يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به ! قال : ذلك محض الإيمان ! ويقول الشريف الحسينى المغربى إن وساوس الشيطان لا تضر الإنسان لأن التسلط هو أن يفسد على الإنسان دينه ليس التسلط مجرد الوسواس ، « إن الذين اتقوا ، إذا مسهم طائف من الشيطان ، تذكروا فإذا هم مبصرون » ، ويقول ابن تيمية ما خلاصته : إن كراهة وبغض خواطر الكفر والنفاق بأن يتألم لها قلب المؤمن تألما شديدا ويفر منها هو صريح الإيمان ،

---

(١) راجع ص ٤١٤ — ٤٢٠ وحى الأحاديث المحمدية لمحمود على قراءة الجزء الأول وص ٣٣٦ — ٣٧٢ من فتاوى ابن تيمية المجلد الأول .

(٢) أى كيد الشيطان .

والحمد لله الذى كان غاية كيد الشيطان الوسوسة ، فإن شيطان الجن إذا غلب وسوس وشيطان الإنسان إذا غلب كذب ، والوسواس يعرض لكل من توجه إلى الله تعالى بذكر أو غيره ، لا بد له من ذلك ، فينبغى للعبد أن يثبت ويصبر ويلازم ما هو فيه من الذكر والصلاة ولا يضجر فإنه بملازمته ذلك ينصرف عنه كيد الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفا ، وكلما أراد العبد توجها إلى الله تعالى بقلبه ، جاء من الوسواس أمور أخرى ، فإن الشيطان بمنزلة قاطع الطريق ، كلما أراد العبد أن يسير إلى الله تعالى ، أراد قطع الطريق عليه ، ولهذا قيل لبعض السلف إن اليهود والنصارى لا توسوس فقال صدقوا وما يصنع الشيطان بالبيت الخراب[1] !

(ح) وحدثنا نبينا الكريم عن حد الله فى السؤال فى الأمور الدينية ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يزال الناس يسألونكم عن العلم حتى يقولوا هذا الله خالق كل شىء ، فمن خلق الله ! وله فى أخرى : فإذا قالوا ذلك فقولوا : الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ! ثم ليتفل عن يساره ثلاثا وليستعذ من الشيطان » ، ووجه الأمر بمحاربة جولان الشيطان الرجيم ووسوسته فى البحث عما لا يستطيع البشر إدراكه لقصورهم ، أن يلزموا بذلك الأدب مع الله سبحانه وتعالى الذى ترك ذكر أشياء من غير نسيان وأخفاها عنهم رحمة بهم ، لأن نور الحق إذا سطع لن تقوى أبصارهم ولا بصائرهم على رؤيته أو إدراكه إلا بحجب شاءها لهم ربهم ، وأراد سبحانه بهذا الترك والإخفاء عنهم تقوية أرواحهم وتزكية قلوبهم بالقرب منه بالطاعة له بعدم تضييع فرائضه وعدم اعتداء حدوده أو قرب محرماته ، ويقول الأستاذ الحسينى المغربى رضى الله

---

(١) راجع العقد النفيس فى نظم جواهر التدريس للمغربى ص ٢٠ وص ١٩ — ٢٢ من فتاوى ابن تيمية المجلد الثانى وص ٥٠ — ٥٣ من وحى الأحاديث المحمدية لمحمود على قراعة الجزء الثانى . وقد حدثنا نبينا الكريم عن تجاوز الله سبحانه وتعالى لحديث النفس ما لم ينطق أو يعمل به ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الله تعالى تجاوز عن أمتى ما حدثت به أنفسها ما لم يعملوا به أو يتكلموا .

عنه : من أراد سبحانه به خيرا رزقه الأدب معه ، فإن إبليس أذنب حيث لم يسجد لآدم فترك ما أمره الله ، وآدم عليه الصلاة والسلام أذنب حيث أكل من الشجرة ففعل ما نهاه الله عنه ، لكن لما قال سبحانه وتعالى لإبليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى استكبرت أم كنت من العالين — والعالين هم ملائكة لم يأمروا بالسجود إنما هم هائمون فى الله لايعرفون غيره — وهو ليس منهم فما بقى إلا أنه استكبر ! فبين استكباره بأن قال : « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » فنسب إلى الحق سبحانه الظلم — لأنه جعل نفسه خيرا منه وسجود الأعلى للأدنى ظلم — فأضاع الأدب أى إضاعة فكان سبب طرده ولعنه ، وآدم عليه السلام لما قال له الحق سبحانه وتعالى — ولزوجه : ألم أنهكما عن تلك الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ! قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ! فلزما الأدب واعترفا بذنبهما ولم ينسبا الظلم إلا إليهما ، فغفر سبحانه وتعالى لهما ، وانظر أيضا إلى إبراهيم عليه السلام حيث دعا ربه سبحانه وتعالى حيث قال : « فإنهم عدو لى إلا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقين » ! ثم لزم الأدب هنا ولم يقل إذا أمرضنى فهو يشفين بل قال : «وإذا مرضت فهو يشفين » فنسب المرض إليه تأدبا مع الحق سبحانه وتعالى ! ثم خاف عند ذلك نخشى أن يكون سلوكه فى طريق الأدب قد وقع فيما لايليق بجلال سيده سبحانه وتعالى بأن نسب المرض إلى نفسه فقال « والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » فجعل نسبة المرض إليه خطيئة ! وانظر أيضا إلى الخضر عليه السلام حيث نبأ موسى بما لم يستطع عليه صبرا فقال : أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها » ! فعند ذكر العيب هنا قال فأردت وأتى بالضمير المفرد ونسب العيب للسفينة إلى نفسه وذلك تأدبا مع مولاه سبحانه وتعالى ! وقال فى قتل الغلام « وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا فأردنا ! فأتى بالضمير لاعلى صيغة الإفراد لأن فى قتله على أبويه حزنا وكربا فى الإبتداء عند قتله ، وسرورا

وراحة فى الانتهاء باعتبار ما انتهى إليه أمرهما ، لأن الله سبحانه وتعالى أبدلهما بابنة خرج منها سبعون نبيا ، فالضمير ههنا هو ضمير نفسه مع الحق سبحانه والنكتة فى إتيان الضمير بصيغة التثنية التأدب مع الحق جل وعلا ! فالأمر الذى يقتضى الحزن والكرب وهو ما حصل لأبويه عند قتله ، نسبه إلى نفسه وما آل إليه الأمر نسبه إلى الحق سبحانه وتعالى ، ولذلك لما كانت الحالة لا تقتضى إلا السرور والراحة ابتداء وانتهاء نسب الأمر إلى الله تعالى ولم يجعل لنفسه مدخلا ، فقال فى وصف الجدار « وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما » ! فقال فى الأولى فأردت وقال فى الثانية فأردنا وقال فى الثالثة فأراد ربك ، وانظر أيضا إلى دعاء نبينا محمد عليه الصلاة والسلام قال : «لبيك اللهم لبيك ! لبيك وسعديك والخير فى يديك والشر ليس إليك » أى لا يتقرب به إليك ، فما أحسن هذا التأدب مع مولاه سبحانه وتعالى موافقة لقوله تعالى : « ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » ، ومعنى قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه — لما قيل له فى مرضه الذى منه مات : هل نلتمس لك طبيبا ؟ فقال الطبيب هو الذى أمرضنى ! إن الطبيب داوانى بدواء يزول منه دائى وهو المرض ، فالمرض هو عين الدواء وإذا كان كذلك فليس بشر وإذا كان لم يكن بشر فلا إساءة فى الأدب بل ذلك من حسن الأدب !

ويرى المغربى فى موضع آخر أن الأدب مع الله يكون حتى فى الإعراب ولذا يقول إن كان إذا دخلت على اسم من أسماء الله تعالى ، فإن عملت فى الإسم الرفع وفى الخبر النصب فلا تسمى ناقصة تأدبا ، إنما يقال لها الرافعة للإسم الناصبة للخبر ، وإذا لم تعمل سميت التامة ، وكذلك الذى تسميه النحاة زائداً لا يقال له فى القرآن زائداً وليس بزائد بل تحته معنى نحو قوله تعالى « حتى إذا ما جاؤها » بقيت ما هنا النافية لتؤدى معنى وهو أن يبقى فى الإثبات شم من النفى لأنهم ما جاءوها باختيارهم إنما سيقوا إليها « وسيق الذى كفروا

إلى جهنم زمرا ، فبقيت النافية لتؤدى هذا المعنى ، وكذلك قولهم فى قوله تعالى « فأتوا بسورة من مثله » إن من هنا زائدة وليس كذلك تعالى الله بل لا يستقيم المعنى إلا بها ، لأن قوله « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » أى من مثل عبدنا فالضمير راجع إلى عبدنا ولا يصح المعنى إلا بها فتأمل وكذلك قوله تعالى « إذا ما تقوا وآمنوا وعملوا الصالحات » فهى وإن كان المعنى للثبوت لكن أتى بالنافية هنا لتبقى للنفى شم وهو يؤدى معنى أنهم غير واثقين بالتقوى منهم وذلك شأن المؤمن ، فإنه ورد فى حديث بعض السلف ذكره البخارى أنه عرف كذا عددا من الصحابة كلهم يخشى على نفسه النفاق فتأمل فائدة الإتيان بها[١] .

وعن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال : خطب رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ! ومن يعصهما فقد غوى ! فقال صلى الله عليه وسلم : بئس الخطيب أنت ! قل : ومن يعص الله ورسوله ! وعن حذيفة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان ، ونقول إن النبى الكريم إنما ذم الخطيب ونهى عن القول فى الحديثين الأخيرين لأن الأدب مع الله سبحانه وتعالى يقتضى عدم اتصال الفعل المنسوب إليه بضمير التثنية فى الأمر والنهى كما يقتضى العطف بثم إذا ذكر المشيئة لأن مشيئة الله هى السابقة وثم للترتيب مع التراخى ، بينما واو العطف لمطلق الجمع[٢] .

وكان نبينا صلى الله عليه وسلم فى حبه لله تعالى أكثر الناس حرصاً على الأدب فى حق ربه ، فعن جبير بن مطعم رضى الله عنه ، قال : أتى أعرابى

---

(١) راجع ص ٣١٩ — ٣٢٧ من وحى الأحاديث المحمدية لمحمود على قراءة الجزء الأول وص ٩ و ١٠ و ٢٦ و ٢٩ و ٧٧ — ٧٩ من العقد النفيس للمغربى . ونذكر أنه يتنافى مع الأدب مع الله لف الأشياء فى الصحف أو القاءها إذا كان مذكورا فيها اسمه الكريم ، وكذلك لا يجوز استعمال لفظ العبادة إلا لله ، فلا يجوز أن يقول الزوج مثلا لزوجته التى يحبها إنى أعبدك ، بل يقول لها إنى أحبك ، وفى اللغة متسع لألفاظ التحبيب !

(٢) راجع ص ٣٧٥ و ٣٧٦ من وحى الأحاديث المحمدية لمحمود على قراءة الجزء الأول وص ٧٨ من قواعد اللغة العربية لتلاميذ المدارس الثانوية للمرحوم حفنى ناصف وآخرين .

النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله جهدت الأنفس وضاع العيال وهلكت الأموال فاستسق لنا فإنا نستشفع بك على الله تعالى ونستشفع بالله عليك ! فقال صلى الله عليه وسلم : ويحك ! أتدرى ما تقول ؟ وسبح صلى الله عليه وسلم ، فما زال يسبح حتى عرف ذلك فى وجه أصحابه ثم قال : إنه لا يستشفع بالله تعالى على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك ، ويحك ! أتدرى ماالله !؟ إن عرشه على سمواته هكذا ، وقال بأصابعه مثل القبة وإنه ليئط أطيط الرحل بالراكب[١] .

(د) ويدعو الإسلام إلى حسن تأويل النصوص : فعن معاوية بن الحكم السلمى ، قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت إن لى جارية كانت ترعى غنما لى فجئتها وقد فقدت شاة فسألتها عنها فقالت أكلها الذئب ! فأسفت عليها وكنت من بنى آدم فلطمت وجهها وعلى رقبة أفأعتقها ؟ فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم أين الله تعالى ؟ قالت فى السماء ! قال فمن أنا ؟ قالت أنت رسول الله فقال اعتقها فإنها مؤمنة » ويقول ابن تيمية بأن القول بأن الله فى السماء بمنزلة قوله تعالى « أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ؟ أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير » وليس المراد بذلك أن السماء تحصر الرب وتحويه كما تحوى الشمس والقمر وغيرهما فإن هذا لا يقوله مسلم ولا يعتقده عاقل ، فقد قال سبحانه وتعالى « وسع كرسيه السموات والأرض » والسموات فى الكرسى كحلقة ملقاة فى أرض فلاة ، والله سبحانه فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه ليس فى مخلوقاته شىء من ذاته ولا فى ذاته شىء من مخلوقاته[٢] .

ومن ذلك ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعونى فأستجيب له ، من يسألنى فأعطيه ، ومن يستغفرنى

---

(١) راجع ص ١٧٢ من وحى الأحاديث المحمدية لمحمود على قراءة الجزء الأول .

(٢) راجع ص ٤٢ — ٤٤ من وحى الأحاديث المحمدية لمحمود على قراءة الجزء الثانى وص ٤٠٥ و ٤٠٦ من فتاوى ابن تيمية المجلد الأول .

فأغفر له » ويقول الشيبانى إن المراد هنا نزول الرحمة والألطاف الإلهية ، وهو تفسير قيم قال به مختصراً دفعا للدخول فى رد الاعتراضات التى اعترض بها من أن ظاهر الحديث فيه تشبيه يكذبه القرآن والإجماع وأنه مخالف لقوله تعالى « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا » ، وقوله عز وجل : « وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله » ، على أنه بكل مكان لايشغله شأن عن شأن . وقد رد ابن قتيبة رحمه الله على هذه الاعتراضات بما خلاصته أن الله معهم بالعلم بما هم عليه كأن تحذر من وكلته بأمر من التقصير لأنك معه ، تريد أنه لايخفى عليك تقصيره فللإشراف عليه والبحث عن أموره ، وإذا جاز هذا فى المخلوق الذى لايعلم الغيب ، فهو بالخالق الذى يعلم الغيب أجوز ، ويراد بكونه تعالى بكل مكان أنه لا يخفى عليه شىء مما فى الأماكن فهو فيها بالعلم والإحاطة ، وبذا يقول ابن قتيبة إنه لايسوغ لأحد أن يقول إنه بكل مكان على الحلول مع قوله : « الرحمن على العرش استوى » ، أى استقر ، ومع قوله تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » ، وكيف يصعد إليه شىء هو معه أو يرفع إليه عمل هو عنده وكيف تعرج الملائكة والروح إليه يوم القيامة وتعرج بمعنى تصعد ، والله عز وجل ذو المعارج ، والمعارج بمعنى الدرج ، والله تعالى هو العلى وهو الأعلى وهو بالمكان الرفيع وأن القلوب عند الذكر — أو عند الذعر تسمو نحوه والأيدى ترفع بالدعاء إليه ، ومن العلو يرجى الفرج ويتوقع النصر وينزل الرزق ، وهنالك الكرسى والعرش والحجب والملائكة ، ويقول الله تبارك وتعالى فى الشهداء « أحياء عند ربهم يرزقون » ، وقيل لهم شهداء لأنهم يشهدون ملكوت الله تعالى وأحدهم شهيد ، وقال تعالى « لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا » ، أى لو أردنا أن نتخذ امرأة وولداً لاتخذنا ذلك عندنا لاعندكم ، والأمم كلها عربيها وعجميها تقول إن الله تعالى فى السماء ماتركت على فطرها ولم تنقل عن ذلك بالتعليم ، وأما قوله تعالى : « وهو الذى

فى السماء إله وفى الأرض إله » ، فليس فى ذلك مايدل على الحلول بهما وإنما أراد به أنه إله السماء وإله من فيها وإله الأرض وإله من فيها ، فإن قيل لنا كيف النزول منه عز وجل ؟ قلنا لانحتم على النزول منه بشىء ولكنا نبين النزول منا وما تحتمله اللغة من هذا اللفظ ، والله أعلم بما أراد — والنزول منا يكون بمعنيين أحدهما الانتقال من مكان إلى مكان كنزولك من الجبل إلى الحضيض والمعنى الآخر إقبالك على الشىء بالإرادة والعزم والنية والقصد ، وكذلك قوله عز وجل : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » ، لايريد أنه معهم بالحلول ولكن بالنصرة والتوفيق ، وكذلك قوله تعالى فى الحديث القدسى « من تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا ، ومن أتانى يمشى أتيته هرولة » ومن ذلك أن موسى صلى الله عليه وسلم لما نودى من الشجرة : اخلع نعليك أسرع الإجابة وتابع التلبية وما كان ذلك إلا استئناسا منه بالصوت وسكونا إليه وقال إنى أسمع صوتك وأحس وجسك[1] — أو حسك — ولا أرى مكانك فأين أنت ؟ فقال : أنا فوقك وأمامك وخلفك ومحيط بك وأقرب إليك من نفسك ، يريد أنى أعلم منك بنفسك ، لأنك إذا نظرت إلى ما بين يديك خفى عنك ما وراءك وإذا سموت بطرفك إلى ما فوقك ذهب عنك علم ماتحتك وأنا لاتخفى على خافية منك فى جميع أحوالك ، ونحو هذا قول رابعة العدوية رضى الله عنها : شغلوا قلوبهم عن الله عز وجل بحب الدنيا ولو تركوها لجالت فى الملكوت ثم رجعت إليهم بطرف الفوائد ، ولم ترد أن أبدانهم وقلوبهم تجول فى السماء بالحلول ولكن تجول هناك بالفكرة والقصد والإقبال[2] .

ومن ذلك حديث خلق الله آدم على صورته ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعا ، قال اذهب فسلم على أولئك نفر من الملائكة جلوس فاستمع

---

(١) الوجس لغة الفزع يقع فى القلب أو السمع من صوت أو غيره كالوجسان والصوت الخفى.

(٢) راجع ص ٢٧٢ — ٢٧٦ من وحى الأحاديث المحمدية لمحمود على قراءة الجزء الثانى وص ٣ من كتاب تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول للشيبانى الجزء الثانى وص ٣٤٣ — ٣٥١ من تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة .

ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فقال السلام عليكم ، فقالوا السلام عليك ورحمة الله ، فزاده رحمة الله ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن ، واعترض بعضهم على هذا الحديث بأن الله تبارك وتعالى يجل عن أن يكون له صورة أو مثال ، فما معنى أن الله عز وجل خلق آدم على صورته ؟ يقول الغزالى إن التعارف والتناسب يقتضى حب الله تعالى لمناسبة باطنه لا ترجع إلى المشابهة فى الصور والأشكال بل إلى معان باطنة هى قرب العبد من ربه عز وجل فى الصفات التى أمر فيها بالاقتداء والتخلق بأخلاق الربوبية وذلك فى اكتساب محامد الصفات ، على أن الروح أمر ربانى « قل الروح من أمر ربى » « فإذا سويته ونفخت فيه من روحى » وقد خلق الله سبحانه آدم على صورته كما رمز النبى صلى الله عليه وسلم حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس فشبهوا وجسموا وصوروا تعالى الله رب العالمين عما يقولون علوا كبيرا ، وعلى هذا فالغزالى يقرر أن المراد بالصورة الصورة الباطنة فى التخلق باكتساب محامد الصفات التى أمر الله تعالى بها ، وأراد بعضهم تأويل الحديث بعدة تأويلات ، فقال قوم من أصحاب الكلام : أراد خلق آدم على صورة آدم لم يزد على ذلك ويرد ابن قتيبة بأنه لو كان المراد هذا ما كان فى الكلام فائدة — ومثل هذا قول بعضهم فى حديث « لا تقبحوا الوجه فإن الله خلق آدم على صورته » أنه يراد به أن الله عز وجل خلق آدم على صورة الوجه — لأنه لا يشك أحد فى أن الله تعالى خلق الإنسان على صورته (أى على صورة الإنسان) والسباع على صورها والأنعام على صورها ! وقال آخرون إن الله تعالى خلق آدم على صورة عنده ! ويرد ابن قتيبة على هذا بأنه لا يجوز لأن الله عز وجل لا يخلق شيئا من خلقه على مثال ، ويقول إنه لم يرد فى التأويلات « شيئا أقرب من الاطراد ولا أبعد من الاستكراه من تأويل بعض أهل النظر فإنه قال فيه : أراد الله تعالى خلق آدم فى الجنة على صورته فى الأرض ! كأن قوما قالوا إن آدم كان من طوله فى الجنة كذا ومن حليته كذا ومن نوره كذا ومن طيب رائحته كذا

لمخالفة ما يكون فى الجنة عما يكون فى الدنيا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم إن الله خلق آدم — يريد فى الجنة — على صورته — يعنى فى الدنيا — ويقول ابن قتيبة إنه لا يحتم بهذا التأويل على هذا الحديث ولا يقضى بأنه مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه قرأ فى التوراة : إن الله عز وجل لما خلق السماء والأرض قال تخلق بشرا بصورتنا فخلق آدم من ادمة الأرض ونفخ فى وجهه نسمة الحياة ، وهذا لا يصلح له ذلك التأويل ، وكذلك حديث ابن عباس أن موسى صلى الله تعالى عليه وسلم ضرب لبنى إسرائيل فتفجر وقال اشربوا يا حمير ، فأوحى الله تبارك وتعالى إليه : عمدت إلى خلق من خلق خلقتهم على صورتى فشبهتهم بالحمير ، فما برح حتى عوقب — أو حتى عوتب !

ولا ريب فى أن قول الغزالى إن المراد هو صورة المعانى الباطنة من تخلق الإنسان بأخلاق الربوبية فى اكتساب محامد الصفات ، هو أقرب التفاسير إلى قلب المؤمن الحق ، لا سيما والقول المفسر هنا هو قول نبينا الكريم الذى قيل له فى رواية عن ابن عمر رضى الله عنهما يا رسول الله أين الله ؟ فى الأرض أو فى السماء ؟ فقال : فى قلوب عباده المؤمنين !

ومن ذلك ما حدثنا به نبينا الكريم عن صفات الله عز وجل ، فعن ابن موسى رضى الله عنه ، قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات فقال : إن الله تعالى لا ينام ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره ، ويقول الشيبانى إن سبحات وجه الله أنواره ، أى لو انكشف من أنوار الله التى تحجب العباد عنه شىء لأهلك كل من وقع عليه ذلك النور ، كما خر موسى عليه السلام صعقا وتقطع الجبل دكا لما تجلى الله سبحانه وتعالى(٢)

(١) الأدمة بفتحتين بمعنى باطن الأرض هنا .

(٢) راجع ص ٣٤١ — ٣٤٦ من وحى الأحاديث المحمدية الجزء الأول لمحمود على قراعة وص ٦٣ من الثقافة الروحية فى كتاب احياء علوم الدين للغزالى لمحمود على قراعة و ٢٧٥ — ٢٨٠ من تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة و ٢٨٧ ج٢ من تيسير الوصول للشيبانى .

(هـ) وحدثنا نبينا الكريم عن قدر الله والإيمان به مع العمل والرضا ، فعن ابن مسعود رضى الله عنه ، قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : أن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه ملكا بأربع كلمات ، يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أم سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح ، فو الذى لا إله غيره ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ، ويقول بعضهم بوجود تناقض بين هذا الحديث الذى يقول بأن الشقى من شقى فى بطن أمه ، والسعيد من سعد فى بطن أمه ، وحديث كل مولود يولد على الفطرة ، فرد عليهم ابن قتيبة بما خلاصته أنه أراد بقوله كل مولود يولد على الفطرة ، أخذ الميثاق الذى أخذه عليهم فى أصلاب آبائهم ، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى ، إذ لا يوجد أحد إلا وهو مقر بأن له صانعا ومدبرا وإن سماه بغير اسمه أو عبد شيئا دونه ليقربه منه عند نفسه أو وصفه بغير صفاته أو أضاف إليه ما تعالى عنه علوا كبيرا ، والله تعالى يقول : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » فكل مولود فى العالم على ذلك العهد والإقرار ، وهى الحنيفية التى وقعت فى أول الخلق وجرت فى فطرة العقول [١] .

وحدثنا نبينا الكريم عن حب الله عز وجل لمن يصل رحمه ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سره أن يبسط الله تعالى له فى رزقه وأن ينسأ له فى أثره[٢] فليصل رحمه[٣] »

(١) راجع ص ٣٧٦ — ٣٨٦ من وحى الأحاديث المحمديه الجزء الأول لمحمود على قراعة وص ١٥٨ — ١٦٠ من تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة .

(٢) الأثر هنا الأجل .

(٣) قال ابن الملقن اختلفوا فى حد الرحم التى يجب صلتها ، فقيل فى كل رحم محرم بحيث لو كان أحدهما ذكرا والآخر أنثى حرمت مناكحتهما ، فعلى هذا لا يدخل أولاد الأعمام وأولاد الأخوال ، واحتج هذا القائل بتحريم الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها فى النكاح وجواز ذلك فى بنات الأعمام والأخوال ، وقيل هو عام فى كل رحم من الأرحام فى الميراث ، يستوى فيه المحرم وغيره ، ويدل عليه قوله عليه السلام « ثم أدناك ، أدناك » .

واعترض بعضهم بأن هذا الحديث ينقضه القرآن ، والله تبارك وتعالى يقول : « فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » فكيف تزيد صلة الرحم فى أجل لا يتأخر عنه ولا يتقدم ؟ فرد عليهم ابن قتيبة بما خلاصته : إن الزيادة فى العمر تكون بمعنيين : أحدهما السعة والزيادة فى الرزق وعافية البدن ، وقد قيل الفقر هو الموت الأكبر ، والمعنى الآخر أن الله تعالى يكتب أجل عبده عنده مائة سنة ويجعل بنيته وتركيبه وهيئته لتعمير ثمانين سنة ، فإذا وصل رحمه زاد الله تعالى فى ذلك التركيب وفى تلك البنية ووصل ذلك النقص فعاش عشرين أخرى حتى يبلغ المائة وهى الأجل الذى لا مستأخر عنه ولا متقدم !

وإذا كان كل شىء بقضاء وقدر فما معنى الحديث القائل : « إن الصدقة تدفع القضاء المبرم » والله عز وجل يقول : « إنما قولنا لشىء إذا أردنا أن نقول له كن فيكون » والإجماع على أنه لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ؟ يقول ابن قتيبة فى تأويل ذلك إن المرء قد يستحق بالذنوب قضاء من العقوبة فإذا هو تصدق دفع عن نفسه ما قد استحق من ذلك حتى أن المتصدق الغير مؤمن يجازيه الله بصدقاته بدفع بلايا كثيرة عنه فى الدنيا وله فى الآخرة عذاب عظيم على كفره ، وإذا أراد به خيرا وفقه للإيمان وهداه[1] .

(و) وزعم قوم وجود تناقض بين الحديث المروى عن أبى ذر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أتانى جبريل عليه السلام فبشرنى أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ! قلت وإن زنا وإن سرق ، قال : وإن زنا وإن سرق » ومن الحديث المروى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة ذات شرف[2] يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن » فلو نظرنا

(١) راجع ص ٣٣٥ و ٣٣٦ و ٣٨٢ من وحى الأحاديث المحمدية الجزء الأول لمحمود على قراعة وص ٢٥٤ — ٢٥٦ من تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة .

(٢) أى عظيمه القدر .

لظاهر الألفاظ لتوهمنا تناقضا ولكن لو دققنا النظر كما فعل ابن قتيبة لتحققنا من عدم الاختلاف ، وخلاصة تحقيق ابن قتيبة أن المصدق بلسانه وقلبه مع تدنس بالذنوب وتقصير فى الطاعات من غير إصرار — مؤمن ما تناهى عن الكبائر ، فإذا لابسها لم يكن فى حال الملابسة مؤمنا (يريد) مستكمل الإيمان ، ألا ترى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » يريد فى وقته ذلك ، لأنه قبل ذلك الوقت غير مصر فهو مؤمن ، وبعد ذلك الوقت غير مصر فهو مؤمن تائب ، وأما قوله صلى الله عليه وسلم « من قال لا إله إلا الله فهو فى الجنة وإن زنى وإن سرق » فإنه لا يخلو من وجهين أحدهما أن يكون قاله على العاقبة — يريد عاقبة أمره إلى الجنة وإن عذب بالزنا وبالسرقة — والآخر أن تلحقه رحمة الله تعالى وشفاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فيصير إلى الجنة بشهادة أن لا إله إلا الله [1] .

(٥) حب الله تعالى : يقول الغزالى بوجود حس سادس (به تدرك أعمال الصور الباطنة من خلال الخير) ، ويعبر عن هذا الحس إما بالعقل أو بالنور أو بالقلب أو البصيرة الباطنة ، و « البصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر ، والقلب أشد إدراكا من العين ، وجمال المعانى المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار ، فتكون لا محالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التى تجل عن أن تدركها الحواس ، أتم وأبلغ ، فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى ، ولا معنى للحب إلا الميل لما فى إدراكه لذة ، فلا ينكر إذا حب الله تعالى إلا من قعد به القصور فى درجة البهائم فلا يجاوز إدراك الحواس أصلا » !

ولكى يبين الغزالى تحقيق معنى محبة العبد لله تعالى ، بين لنا أسباب المحبة عموما ثم ذكر أدلة وجودها بل قوة هذه الأدلة فى الله ، ومن عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعا أنه لا وجود له من ذاته وإنما وجود ذاته ودوام وجوده وكمال وجوده من الله تعالى وإلى الله وبالله « فإذا كان حب

---

(١) راجع ص ٣٧ — ٤٠ من وحى الأحاديث المحمدية ج ٢ للمحمود على قراءة و ١٤٣ و ١٤٥ و ٢١١ — ٢١٥ من تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة .

الإنسان نفسه ضروريا ، فحبه لمن به قوامه أولا ودوامه ثانيا فى أصله وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره وأعراضه ، أيضا ضرورى ، ومن خلا عن هذا الحب فلأنه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالقه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره على شهواته ومحسوساته » !

ولو عرف الإنسان حق المعرفة لعلم أن المحسن إليه هو الله تعالى فقط ، وأن الإحسان من الناس غير متصور إلا بالمجاز ، فإن كان فى الطبع حب المحسن فينبغى أن لايحب العارف إلا الله تعالى ، إذ الإحسان من غيره محال ، فهو المستحق لهذه المحبة وحده » ، ثم إن الله هو المحسن إلى الكافة والمتفضل على جميع أصناف الخلائق بإيجادهم وتكميلهم وترفيههم وتنعيمهم ، فالحب لهذه العلة لغيره أيضا جهل محض .

وثالث أسباب الحب أن يحب الشىء لذاته لا لحظ ينال منه وراء ذاته ، بل تكون ذاته عين حظه ، فإن ثبت أن الله جميل كان لا محالة محبوبا عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله جميل يحب الجمال » ، والحسن ليس مقصوراً لا على مدركات البصر ، إذ كل شىء جماله وحسنه أن يحضر كماله اللائق به الممكن له ، ولا يتصور كمال التقدس والتنزه إلا للواحد الحق ، فالكمال لله وحده وليس لغيره كمال إلا بقدر ما أعطاه الله ، فهو المنفرد بالكمال المنزه عن النقص المقدس عن العيوب ، فهذا الوصف إن كان جمالا وكمالا محبوبا فلا تتم حقيقته الإله ، وكمال غيره وتنزهه لايكون مطلقا بل بالإضافة إلى ما هو أشد منه نقصانا ، فالجميل المطلق هو الله .

والتعارف والتناسب أيضا يقتضى حب الله تعالى لمناسبة باطنه ، لا ترجع إلى المشابهة فى الصور والأشكال بل إلى معان باطنة ، هى قرب العبد من ربه عز وجل فى الصفات التى أمر الله فيها بالاقتدا والتخلق بأخلاق الربوبية ، وذلك فى اكتساب محامد الصفات ، على أن الروح أمر ربانى « قل الروح من أمر ربى » ، « فإذا سويته ونفخت فيه من روحى » ، وهذا هو أعظم أسباب الحب وأقواها — ولا محبوب بالحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله تعالى

ولا مستحق للمحبة سواه — لأنها مجتمعة فى حقه تعالى بجملتها ولا يوجد فى غيره إلا آحادها ، ووجودها فى حق غيره وهم وتخيل ومجاز محض لا حقيقة له » .

وفى القلب غريزة تسمى النور الإلهى أو نور الإيمان واليقين ، يدرك به القلب المعانى الباطنة التى ليست متخيلة ولا محسوسة ، ونعيم الجنة بقدر حب الله تعالى ، وحب الله تعالى بقدر معرفته ، فأصل السعادات هى المعرفة « والذين آمنوا أشد حباً لله » ، ومن قويت بصيرته لا يرى إلا الله تعالى ولا يعرف غيره ، فيعلم أن ليس فى الوجود إلا الله ، وأفعاله أثر من آثار قدرته ، فهى تابعة له ، فلا وجود لها بالحقيقة دونه ، وإنما الوجود للواحد الحق الذى به وجود الأفعال كلها ، ومن هذا حاله فلا ينظر فى شىء من الأفعال إلا ويرى الفاعل ويذهل عن الفعل ، فكل العالم تصنيف الله ، فمن نظر إليه وعرفه وأحبه من من حيث أنه فعل الله ، لم يكن ناظرا إلا فى الله ولا عارفا إلا بالله ولا محبا إلا له ، وكان هو الموحد الحق الذى لا يرى إلا الله .

ثم إن الأمور الإلهية لا نهاية لها ، فتبقى أمور لا نهاية لها غامضة ، فيتشوق العارف إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل له مما بقى من المعلومات التى لم يعرفها أصلا لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة ، وهذا الشوق لا نهاية له فى الدنيا والآخرة ، إذ نهايته أن ينكشف للعبد فى الآخرة من جلال الله تعالى وصفاته وحكمته وأفعاله ، ماهو معلوم لله تعالى ، وهو محال لأن ذلك لا نهاية له .

وقال الله تعالى « يحبهم ويحبونه » وقد اشترط للمحبة غفران الذنب فقال « إن كنتم تحبون الله فاتبعونى ، يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » ويقول الغزالى إن كل كمال وجمال وبهاء وجلال ممكن فى حق الإلهية ، وليس فى الوجود إلا ذاته وأفعاله ، فهو إذا لا يحب إلا نفسه ، وما ورد من الألفاظ فى حبه لعباده يرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلب العبد حتى يراه بقلبه وإلى تمكينه إياه من القرب منه وإلى إرادته ذلك به فى الأزل ، وقرب كل واحد من الله بقدر كماله ، وسلوك العبد فى درجات الكمال متناه ولا ينتهى إلا لحد محدود ، ثم إن درجات القرب تتفاوت تفاوتا لا نهاية له أيضا لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال .

ويقول إن ثمار المحبة تظهر فى القلب واللسان والجوارح وهى كثيرة ، منها : حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة فى دار السلام ، وأن يكون مؤثرا ما أحبه الله تعالى على ما يحبه فى ظاهره وباطنه ، وألا يكون له تنعم بغيره ، وأن يجتنب اتباع الهوى (والمعصية لا تخرجه عن الحب ولكن تخرجه عن كماله) ، وألا يفتر لسانه عن ذكر الله ولا يخلو عنه قلبه ، وذكر ما يتعلق به من كلام ورسل وما ينسب إليه ، وحب جميع الخلق لأنهم خلقه ، وأن يكون أنسه بالخلوة ومناجاة الله تعالى وتلاوة كتابه ، وأن لا يطمئن إلا بالله « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » ، وألا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله عز وجل ، ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت من ذكر الله تعالى وطاعته فيكثر رجوعه عن الغفلات بالتوبة ، وأن يستقبل كل شىء بالرضا ويذكر قوله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » وأن يتنعم بالطاعة (ولا يستثقلها) ويسقط عنه تعبها ، وأن يكتم الحب ويجتنب الدعوى ويتوقى من إظهار الوجد والمحبة ، تعظيما للمحبوب وإجلالا له وهيبة منه وغيرة على سره ، وأن يأنس بالله ويرضى بكل حكم نازل ، وقد قال تعالى : « رضى الله عنهم ورضوا عنه » ، والرضا ثمرة من ثمار المحبة ، والحب يورث الرضا بأفعال الحبيب ، على أن الدعاء غير مناقض للرضا ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا ، وكذلك كراهة المعاصى ومقت أهلها ومقت أسبابها والسعى فى إزالتها والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يناقضه أيضا ، لأن الله تعبدنا بها[1] .

(٦) مراقبة الله تعالى : مطلب العقل وربحه تزكية النفس « قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » : وهو يحتاج إلى مشارطتها أولا ، فيرشدها إلى طرق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة ، ثم بعد الفراغ ينبغى أن يحاسبها ، والمحاسبة تكون تارة بعد العمل وتارة قبله للتحذير ، ومعناه وزن الأمور أولا وتقديرها والنظر فيها بتدبر ثم الإقدام عليها فمباشرتها ، ولا يبقى بعد ذلك إلا المراقبة للنفس عند الخوض

(١) راجع ص ٥٩ — ٧٠ من الثقافة الروحية فى كتاب احياء علوم الدين للغزالى لمحمود على قراعة .

فى الأعمال وملاحظتها بالعين الكالئة ، فإنها إن تركت طغت وفسدت « إن الله كان عليكم رقيبا » ، وحقيقة المراقبة هى ملاحظة الرقيب وانصراف الهمم إليه ، ويعنى بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة ، وتثمر تلك الحالة أعمالا فى الجوارح وفى القلب ، أما الحالة فهى مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاته إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه ، وأما المعرفة التى تثمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت . والعبد لا يخلو إما أن يكون فى طاعة أو فى معصية أو فى مباح ، فمراقبته فى الطاعة بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات ، وإن كان فى معصية فمراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكير ، وإن كان فى مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود المنعم فى النعمة وبالشكر عليها والصبر على البلية .

والنية ميل القلب إلى الخير وإرادته له ، وغرضنا من الأعمال بالجوارح أن يعود القلب إرادة الخير ويؤكد فيه الميل ليفرغ من شهوات الدنيا ويكب على الذكر والفكر ، والخيرات إنما يعرف كونها خيرات بالشرع ، فالمعاصى لا تتغير عن موضعها بالنية ، ولا ينبغى أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام : « إنما الأعمال بالنيات[1] ، وإنما لكل إمرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إمرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » ، ويظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية ، ولكن للنية دخل فيها وهو أنه إذا انضافت إليها قصود خبيثة ، تضاعف وزرها وعظم وبالها ، أما الطاعات فمرتبطة بالنيات فى أصل صحتها (وهو أن ينوى بها عبادة الله تعالى لا غير ، فإن نوى الرياء صارت معصية) وفى تضاعف فضلها بكثرة النيات الحسنة ، وأما المباحات فما من شىء منها

---

(١) يقول البيهقى إن كسب العبد إنما يكون بقلبه ولسانه وبدنه ، فالنية أحد أقسام كسبه الثلاثة وهى أرجحها لأنها تكون عبادة بانفرادها بخلاف القسمين الآخرين ، ولأن القول والعمل يدخلهما الفساد ، والرياء لا يدخل النية .

إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالى الدرجات كما يحتمل النيات السيئة (فتكون معصية) .

ولابن تيمية بيان فى قوله صلى الله عليه وسلم « نية المرء أبلغ من عمله » يلخص من وجوه :

(أحدها) أن النية المجردة من العمل يثاب عليها ! والعمل المجرد عن النية لا يثاب عليه ، فمن عمل الأعمال الصالحة بغير إخلاص لله لم يقبل منه ذلك ، ومن هم بحسنة فلم يعمل بها ، كتبت له حسنة .

(الثانى) أن من نوى الخير وعمل منه مقدوره وعجز عن كماله ، كان له أجر عامل .

(الثالث) أن النية عمل القلب — ملك البدن — بخلاف الأعمال الظاهرة فإنها عمل الجنود .

(الرابع) أن توبة العاجز عن المعصية تصح[١] ، لأن أصل التوبة عزم القلب .

(الخامس) أن أصل النية حب الله ورسوله وإرادة وجه الله ، فلا يدخلها فساد ، بخلاف الأعمال الظاهرة التى تدخلها آفات كثيرة وما لم تسلم منها لم تكن مقبولة ، ولهذا كانت أعمال القلب المجردة أفضل من أعمال البدن المجردة[٢] .

والنية ليست حديث نفس أو حديث لسان أو فكر أو انتقالا من خاطر إلى خاطر ، بل هى انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ما ظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلا وإما آجلا[٣] ، والميل إذا لم يكن ، لا يمكن اختراعه واكتسابه

(١) كتوبة المجبوب عن الزنى والمقطوع اللسان عن القذف .

(٢) راجع ص ٥ و ٦ من فتاوى ابن تيمية المجلد الأول .

(٣) الجهر بالنية لايستحب لا فى مذهب أبى حنيفه ولا أحد من أئمة المسلمين ، بل كلهم متفقون على أنه لا يشرع الجهر بالنيه ، ومن جهر بالنية فهو مخطئ مخالف للسنة باتفاق أئمة الدين بل تنازع العلماء هل يستحب التلفظ بالنية سرا على قولين : فقال طائفة من أصحاب أبى حنيفة والشافعى وأحمد يستحب التلفظ بالنيه لا الجهر بها ولا يجب التلفظ ولا الجهر ، وقال طائفه من أصحاب مالك وأحمد وغيرهم بل لا يستحب التلفظ بالنية لا سرا ولا جهرا ، كما لا يجب باتفاق الأئمة وهذا القول هو الصواب الذى جاءت به السنه . راجع ص ٢٧٥ من فتاوى ابن تيميه م٢ .

بمجرد الإرادة ، إذ لا طريق إلى اكتساب وصرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجهه نحوه إلا باكتساب أسبابه ، وذلك مما يقدر عليه وقد لا يقدر عليه ، وإنما تنبعث النفس إلى الفعل إجابة للغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها ، وما لم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده وذلك مما لا يقدر على اعتقاده فى كل حين ، وإذا اعتقد فإنما يتوجه القلب إذا كان فارغا غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه وذلك لا يمكن فى كل وقت ، والدواعى والصوارف لها أسباب كثيرة بها تجتمع ، ويختلف ذلك بالأشخاص والأحوال وبالأعمال . والنية تتبع النظر فإذا تغير النظر تغيرت النية وهى روح العمل ، والعمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وهو سبب مقت لاسبب قرب ، وهى ليست قول القائل بلسانه نويت[1] ، بل هو انبعاث القلب ! ونيات الناس فى الطاعات أقسام ، منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف (اتقاء النار) ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء (الرغبة فى الجنة) ، وأما عبادة ذوى الألباب فإنها لا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه حبا لجماله وجلاله ، وثواب الناس بقدر نياتهم !

وقد قيل فى روضة المشتاق إن بعض الأنبياء عليهم السلام[1] مر على طائفة من العباد كأنهم الشنان البالية ، فقال ما أنتم ؟ قالوا نحن عباد ! قال لأى شيء تعبدتم ؟ قالوا خوفنا الله من النار فخفنا منها ! فقال : حقا على الله أن يؤمنكم مما خفتم ! ثم جاوزها ! فمر بآخرين أشد عبادة ، فقال لأى شيء تعبدتم ؟ قالوا شوقنا الله إلى الجنة وما أعد لأوليائه فنحن نرجو ذلك ؟ فقال حقا على الله أن يعطيكم ما رجوتم ! ثم جاوزهم فمر بآخرين يتعبدون ، فقال ما أنتم ؟ قالوا نحن المحبون فى الله عز وجل ، لم نعبده خوفا من ناره

(١) النية الواجبه فى العبادات محلها القلب باتفاق أئمة المسلمين ، والنية هى القصد والارادة ، فلو نوي بقلبه صحت نية والتلفظ بالنية فاسد فى العقل ، لأن قول القائل أنوى أن أفعل كذا وكذا بمنزلة قوله أنوى آكل هذا الطعام لأشبع وأنوى لبس هذا الثوب لاستتر وأمثال ذلك من النيات الموجودة فى القلب التى يستقبح النطق بها . راجع ص ٣ — ٥ من فتاوى ابن تيمية المجلد الأول .

(١) قيل فى رواية إنه المسيح عليه السلام .

ولا شوقا إلى جنته ، ولكن حبا له واجلالا وتعظيما ، فقال أنتم أولياء الله حقا ، معكم أمرت أن أقيم بين أظهركم ، قال الله عز وجل « قل الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى » .

وكل شيء يتصور أن يشوبه غيره ، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمى خالصا ويسمى الفعل المصفى المخلص إخلاصا ، والإخلاص يضاد الإشراك ، فمن ليس مخلصا فهو مشرك « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » ، والإخلاص وضده يتواردان على القلب ، فمحله القلب ، وإنما يكون ذلك فى القصود والنيات ، ومهما كان الباعث واحداً على التجرد ، سمى الفعل الصادر عنه إخلاصا بالإضافة إلى المنـــوى ، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب ، فمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر ، إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس ، فقد خرج عمله عن حد الإخلاص وخرج عن أن يكون خالصا لوجه الله تعالى ، وتطرق إليه الشرك (الخفى) .

والباعث النفسى إما أن يكون مثل الباعث الدينى أو أقوى منه أو أضعف ، والإخلاص تخلص العمل من هذه الشوائب كلها قليلها وكثيرها حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه ، وهذا لا يتصور إلا من محب لله استغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا فى قلبـــه قرار حتى لا يحب الأكل والشرب أيضا ، بل تكون رغبته فيهما كرغبته فى قضاء الحاجة من حيث أنه ضرورة الجبلة ، فلا يشتهى الطعام لأنه طعام بل لأنه يقويه على عبادة الله تعالى .

ويرى الغزالى أن ينظر إلى قدر قوة الباعث ، فإن كان الباعث الدينى مساويا للباعث النفسى ، تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه ، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو على ذلك مضر ومفض للعقاب الأقل من عقاب العمل الذى تجرد للرياء ، وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الدينى ، فلا ينبغى أن

يضيع قصد الخير ، بل إن كان غالبا على قصد الرياء حبط منه القدر الذى يساويه وبقيت زيادة ، وإن كان مغلوبا سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد ، وفى الحديث « أتبع السيئة الحسنة تمحها » فإذا كان الرياء المحض يمحوه الإخلاص المحض عقيبه ، فإذا اجتمعا جميعا فلا بد وأن يتدافعا بالضرورة .

وقال الله تعالى : « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » ، والصدق فى تحقيق مقامات الدين كلها هو أعلى الدرجات وأعزها ، كالصدق فى الخوف والرجاء والتعظيم والتوكل والحب وسائر هذه الأمور ، فإن الصدق فى تمام حقيقتها لا فى ظهورها فحسب ، وقد يكون للعبد صدق فى بعض الأمور دون بعض ، والصديق من كان صادقا فى الجميع مع اختلاف فى الدرجات .

وقال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » ، ويقول الغزالى إن كل ما ليس لله فهو من الدنيا (صورة ومعنى) ، وما هو لله فذلك ليس من الدنيا ، والمال مثل حية فيها سم وترياق ، وأما فوائده الدينية فهى أن ينفقه على نفسه إما فى عبادة (كالاستعانة على الجهاد) أو فى الاستعانة على عبادة (كالمطعم) وما يصرفه إلى الناس من صدقة ومروءة ووقاية عرض وأجرة استخدام ، وما لا يصرفه إلى إنسان معين ولكن يحصل به خير عام (كبناء المساجد ودور المرضى) ، سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال وحقارة الفقر والوصول إلى العز والمجد من الخلق وكثرة الإخوان والأعوان والكرامة فى القلوب ، وأما آفات المال فدينية ودنيوية ، أما الدينية فإن تجر إلى المعاصى وارتكاب الفجور وأن يجر إلى التنعم فى المباحات ، فإذا اشتد أنسه بما ربما لا يقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال فيقتحم الشبهات ويخوض فى النفاق ، وأن يلهيه ماله عن ذكر الله تعالى ، وكل ما شغل العبد عن الله فهو خسران ، والكمال فى حق المال أن يستوى عندك المال والماء (وأنت محتاج إلى كل منهما) وكثرة الماء فى جوارك لا تؤذيك بأن تكون على شاطىء البحر ، ولا قلته تؤذيك إلا فى قدر الضرورة .

ويقول الغزالى : إن الفقير القانع أفضل من الغنى الحريص الممسك ، وإن الغنى المنفق ما له فى الخيرات أفضل من الفقير الحريص .

والصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الشهوة ، فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين قال تعالى « إن الله مع الصابرين » ، « وبشر الصابرين » ، « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » ، ويقول الغزالى إن جميع ما يلقى العبد فى هذه الحياة لا يخلو من نوعين : ما يوافق هواه (وهو الصحة والمال والجاه وجميع ملاذ الدنيا) وما لا يوافقه (وهو ما يرتبط باختياره كالطاعات والمعاصى وما لا يرتبط باختياره كالمصائب ، أو لا يرتبط باختياره ولكن له اختيار فى إزالته كالتشفى من المؤذى بانتقام) وهو محتاج إلى الصبر فى كل واحد منهما ، ومعنى الصبر على العافية ألا يركن إليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده ، وأن لا يرسل نفسه فى الفرح بها ولا ينهمك فى التنعم واللذة واللهو واللعب ، وأن يرعى حقوق الله فى ماله بالإنفاق ، وفى بدنه ببذل المعونة للخلق ، وفى لسانه ببذل الصدق وكذا سائر ما أنعم الله به عليه ، وهذا الصبر متصل بالشكر ، والشكر لله لا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله وهو المنعم ، والوسائط مسخرون من جهته ، ثم إن الحال المستمدة من أصل المعرفة وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع ، هو أيضا فى نفسه شكر على تجرده كما أن المعرفة شكر ، ولكن إنما يكون شكرا إذا كان حاويا شرطه وشرطه أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالإنعام . ويقول الغزالى إن العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم يتعلق بالقلب وبإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه) وبالجوارح (باستعمال نعم الله تعالى فى طاعته والتوقى من الاستعانة بها على معصيته) ويقول الله تعالى « ولئن شكرتم لأزيدنكم » أى فى النعمة ، ويقول « إن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » أى لا تطيقوا عدها ولا القيام بشكرها « إن الإنسان لظلوم كفار » أى ظالم لنفسه يجحد نعمه[1]

(١) قال ابن مسعود فى قوله تعالى « لتسألن يومئذ عن النعيم » أى شكر النعيم الأمن والصحة .

والشكر استعمال نعم الله تعالى فى محابه ، ومعنى الكفر نقيض ذلك إما بترك الاستعمال أو باستعمالها فى مكارهه ، والمسلم الحق شاكر لقوله تعالى « فاذكرونى أذكركم ، واشكروا لى ولا تكفرون » .

ويجب ألا يأكل الإنسان إلا حلالا فى نفسه ، طيبا فى جهة مكسبه « كلوا من الطيبات » موافقا للسنة والورع ، ولم يكتسب بسبب مكروه فى الشرع ولا بحكم هوى ومداهنة فى دين ، وأن ينوى بأكله أن يتقوى على طاعة الله تعالى ليكون مطيعا بالأكل (ولا يقصد التلذذ والتنعم بالأكل) وأن يرضى بالموجود من الرزق والحاضر من الطعام ، ولا يجتهد فى التنعم وطلب الزيادة وانتظار الأدم ، وأن يغسل اليد قبله « لأن اليد لا تخلو عن لوث فى تعاطى الأعمال فغسلها أقرب إلى النظافة والنزاهة ، ولأن الأكل لقصد الاستعانة على الدين عبادة » وأن يبدأه ببسم الله فى أوله وبحمد الله فى آخره ، ويأكل باليد اليمنى احتراما له !

ويرى الغزالى أن فى مجاهدة الجوع والعطش صفاء القلب وإيقاد القريحة وإنفاذ البصيرة (لأن الشبع يورث البلادة ويعمى القلب) ، وبالجوع يرق القلب ويصفو ويزول البطر « فلا تنكسر النفس ولا تذل بشىء كما تذل بالجوع فعنده تسكن لربها وتقف على عجزها وذلها إذ ضعفت منتها وضاقت حيلتها بلقيمة طعام فاتتها ، وأظلمت عليها الدنيا بشربة ماء تأخرت عنها » وبه لا ينسى بلاء الله وعذابه ولا ينسى أهل البلاء ، وبه كسر شهوات المعاصى كلها والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء ، وبه يندفع الندم ويدوم السهر ، (لأن من شبع شرب كثيرا ومن كثر شربه كثر نومه) وبه تتيسر المواظبة على العبادة ويستفيد من قلة الأكل صحة البدن ودفع الأمراض ، وبالجوع وقلة الأكل تخف المؤنة « فإن من تعود قلة الأكل كفاه من المال قدر يسير ، والذى تعود الشبع صار بطنه غريما ملازما له وآخذا بمخنقه فى كل يوم » ، وبقلة الأكل يتمكن من الإيثار والصدقة بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين فيكون فى يوم القيامة فى ظل صدقته !

والجاه والمال هما ركنا الدنيا ، ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها ، ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها والتصرف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها فى أغراضه ومآربه ، وحكم الجاه حكم الأموال عرض من أعراض الحياة الدنيا وينقطع بالموت كالمال ، وحبهما لأجل التوصل بهما إلى مهمات البدن غير مذموم ، ولكن يذم حبهما لأعيانهما فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته (ولا يوصف صاحبه بالفسق ما لم يتوصل إليه بعبادة وما لم يحمله الحب على مباشرة معصية ، وما لم يتوصل إلى اكتسابه بكذب وخداع وتلبيس) !

ومهما علم الإنسان أن أمره بيد الخالق وأن الأرزاق والآجال بيد الله تعالى قل التفاته إلى مدح الخلق وذمهم ، وسقط من قلبه حب المدح واشتغل بما يهمه من أمر دينه وبطلب المنزلة عند الله ، إذ الصدق فى العبادة أن يكره المدح إذ يعلم أنه فتنة عليه ويحب الذام إذ يعلم أنه مهد إليه عيبه ومرشد إلى مهمه ومهد إليه حسناته !

ويقول الغزالى إن الرياء حرام والمرائى عند الله ممقوت ، والرياء مشتق من الرؤية ، والسمعة مشتقة من السماع ، وإسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة فى القلوب بالعبادات وإظهارها ، والرياء هو إرادة العباد بطاعة الله فالرياء هو طلب الجاه ، وهو يكون بالعبادات أو بغير العبادات ، إلا أن طلب الجاه بأعمال ليست من الطاعات أهون من الرياء بالطاعات ، وطلب الجاه كطلب المال يحرم كسبه بتلبيسات وأسباب محظورات ، وأما سعته من غير حرص منك على طلبه ومن غير اغتمام بزواله إن زال ، فلا ضرر فيه ، ولكن انصراف الهم إلى طلب الجاه (أو المال) نقصان فى الدين ولا يوصف بالتحريم ، وإذا لم يكن للمرائى بالعبادات إلا قصد الرياء المحض دون الأجر ، فتبطل عبادته بل يعصى بذلك ويأثم ، لأن فيه تلبيسا ومكرا على الناس ، لأنه خيل إليهم أنه مخلص مطيع لله وليس كذلك ، وهو مهما قصد بعبادة الله تعالى خلق الله فهو مستهزىء بالله إذ قصد بطاعة الله تعالى مرآة عبد ضعيف

لا يملك له ضرا ولا نفعا ، وما ذلك إلا لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله وأنه أولى بالتقرب إليه منه ، ولهذا سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الأصغر ، ولو لم يكن فى الرياء إلا أن يسجد ويركع لغير الله لكان فيه كفاية ، ولعمرى لو عظم غير الله بالسجود لكفر كفر جليا ، إلا أن الرياء هو الكفر الخفى لأن المرائى عظم فى قلبه الناس فاقتضت تلك العظمة أن يسجد ويركع ، إلا أنه قصد تعظيم نفسه فى قلب من عظم عنده بإظهاره من نفسه صورة التعظيم لله ، فعند هذا كان شركا خفيا .

والرياء جلى وخفى ، فالجلى هو الذى يبعث على العمل ويحمل عليه ولو قصد الثواب وهو أجلاه ، وأخفى منه قليلا هو ما لا يحمل على العمل بمجرده إلا أنه يخفف العمل الذى يريد به وجه الله ، وأخفى من ذلك ما لا يؤثر فى العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضا ولكنه مع ذلك مستبطن فى القلب ، ومهما لم يؤثر فى الدعاء إلى العمل لم يمكن أن يعرف إلا بالعلامات وأجلى علاماته أن يسر باطلاع الناس على طاعته ، وأخفى من ذلك أن يخفى بحيث لا يريد الاطلاع ولا يسر بظهور طاعته ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وأن يثنوا عليه ، وكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر ولا يسلم منه إلا الصديقون ، ولكن ليس كل شوب محبطا للأجر ، إذ السرور أقسام لا يكره منها إلا أن يكون فرحه لقيام منزلته فى قلوب الناس ، فيحمد فرحه بجميل نظر الله له باطلاع الخلق على الجميل من أحواله « قل بفضل الله ورحمته ، فبذلك فليفرحوا » ، وأن يستدل بإظهار الله الجميل وستره القبيح عليه فى الدنيا أنه كذلك يفعله فى الآخرة ، وأن يسر باقتداء المطلعين به فى الطاعة ، وأن يفرح بطاعة المطلعين على طاعته فى مدحهم وبحبهم للمطيع وبميل قلوبهم إلى الطاعة .

وإذا عقد العبد العبادة على الإخلاص ثم ورد عليه بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير إظهار ، فهذا لا يفسد العمل إذ العمل قد تم على نعت الإخلاص سالما من الرياء ، والأصل فى الإخلاص استواء السريرة

والعلانية ، ولا يخلو الإنسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه وهو يخفيها ويكره إطلاع الناس عليها لا سيما ما تختلج به الخواطر فى الشهوات والأمانى ، والله مطلع على جميع ذلك ، فإرادة العبد لإخفائها ربما يظن أنه رياء محظور وليس كذلك ، بل المحظور أن يستر ذلك ليرى الناس أنه ورع خائف من الله تعالى مع أنه ليس كذلك ، ومن الناس من يترك العمل خوفا من أن يكون مرائيا به وذلك غلط وموافقة للشيطان .

والتوبة فى لسان العرب هى الرجوع ، وهى عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة :

أولها : العلم وهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجابا بين العبد وبين كل محبوب ، فإذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ، ثار من هذه المعرفة تألم للقلب وتأسف بسبب فوات المحبوب بفعله (يسمى ندما) وتتمكن مرارة تلك الذنوب فى قلبه بدلا عن حلاوتها فيستبدل بالميل كراهية وبالرغبة نفرة (دائمة) ، فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى ، انبعثت منه فى القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا إلى فعل له تعلق بالحال (بالترك لكل محظور هو ملابس له وأداء كل فرض هو متوجه عليه فى الحال) وبالماضى (بتلافى مافات بالجبر والقضاء إن كان قابلا للجبر) وبالمستقبل (بالعزم على ترك الذنب الممقوت للمحبوب إلى آخر العمر بأن يعقد مع الله عقدا مؤكدا ويعاهده بعهد وثيق ألا يعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها) فالتوبة هنا رجوع عما كان مذموما فى الشرع إلى ما هو محمود منه ، والذنب عبارة عن كل ماهو مخالف لأمر الله تعالى فى ترك أو فعل ، وتنقسم الذنوب إلى صغائر وكبائر ، ويقول الغزالى إن الكبير والصغير من المضافات ، وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى مادونه وصغير بالإضافة إلى ما فوقه (فالمضاجعة مع الأجنبية مثلا أى إصابتها بكل شىء إلا المسيس ، كبيرة بالإضافة إلى النظرة ، صغيرة بالإضافة إلى الزنا) ، ويرى مع هذا أن الصغيرة تكبر بأسباب منها الإصرار والمواظبة واستصغار الذنب والسرور بالصغيرة والفرح

والتبجح بها واعتداد التمكن من ذلك نعمة والغفلة عن كونه سبب الشقاوة ، والتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه ، وإتيانه الذنب وإظهاره بأن يذكره بعد إتيانه أو يأتيه فى مشهد غيره أو رغب الغير فيه وحمله عليه وهيأ أسبابه له ، وكذلك يكبر الذنب — فلا تكفره الصلوات الخمس — إذا كان المذنب عالما يقتدى به وبفعله بحيث يرى ذلك منه .

ويقول الغزالى إن شروط صحة التوبة فيما يتعلق بالماضى أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام ، ويفتش فيه عما مضى من عمره يوما يوما ، وينظر إلى الطاعات ما الذى قصر فيه منها (فيؤديها) وإلى المعاصى ما الذى قارفه منها فينظر فيها ، فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد كشرب الخمر مثلا) فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها ، وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدة ، ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتى من الحسنات بقدر تلك السيئات (فيكفر شرب الخمر مثلا بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب إليه) ، وعد جميع المعاصى غير ممكن ، وإنما المقصود سلوك الطريق المضادة ، فإن المرض يعالج بضده ، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها ، فلذلك ينبغى أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها ، وهذا التدريج والتحقيق من التلطف فى طريق المحو ، فالرجاء فيه أصدق والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات ، وإن كان ذلك أيضا مؤثر فى المحو ، وأما مظالم العباد ففيها أيضا معصية وجناية على حق الله تعالى ، فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد فما يتعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر وترك مثله فى المستقبل والإتيان بالحسنات التى هى أضدادها (فيقابل إيذاء الناس بالإحسان إليهم ، ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله الخ ...) ثم إذا فعل ذلك لم ينجه ولم يكفه مالم يخرج من مظالم العباد ، فليستحلهم أو ليؤد حقوقهم إن قدر وإلا فليكثر من الحسنات حتى تفيض عنه يوم القيامة فتؤخذ حسناته وتوضع فى موازين أرباب المظالم .

والمسلم الحق تواب لقوله تعالى : « وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » ، وقوله « استغفروا ربكم ثم توبوا إليه » وقوله « يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا » ، وهى أن تتوب ثم لا تعود إلى الذنب ، كما لا يعود اللبن فى الضرع ، وقوله تعالى : « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب[١] ، فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما ، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفار ، أولئك اعتدنا لهم عذابا أليما » . وفى الإسلام مثل رائع للتوبة النصوح ، فعن ابن شهاب قال : أخبرنى عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب وكان قائد كعب من بنيه حين عمى ، قال : وكان أعلم قومه وأوعاهم لأحاديث أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ، قال كعب إنى لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها قط إلا فى غزوة تبوك ، غير أنى قد تخلفت فى غزوة بدر ولم يعاتب أحدا تخلف عنها ، إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله تعالى بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لى بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها ، وكان من خبرى حين تخلفت عن تبوك أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حينئذ ، والله ما جمعت قبلها راحلتين[٢] قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة ، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورى[٣] بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفاوز[٤]

---

(١) أى قبل معاينة ملك الموت .

(٢) الراحلة الجمل والناقة القويان على الأحمال والأسفار .

(٣) التورية إخفاء الشىء وإظهار غيره .

(٤) المفاوز جمع مفازة وهى البرية القفر .

واستقبل عددا كثيرا فجلى[١] للمسلمين أمرهم ليأهبوا أهبة غزوهم وأخبرهم بوجههم[٢] الذى يريد ، والمسلمون مع رسول الله كثير لا يجمعهم كتاب حافظ (يريد بذلك الديوان) ، قال كعب فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى ما لم ينزل فيه وحى ، وكان ذلك حين طابت الثمار والظلال ، فأنا إليها أصعر[٣] فتجهز[٤] رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ، وطفقت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئا وأقول فى نفسى أنا قادر على ذلك إن أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى استمر بالناس الجد[٥] ، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غاديا والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازى شيئا ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا ، فلم يزل ذلك يتمادى[٦] حتى أسرعوا وتفارط[٧] الغزو ، فهممت أن أرتحل فأدركهم ، فياليتنى كنت فعلت ! ثم لم يقدر لى ذلك وطفقت[٨] إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحزننى أن لا أدرى لى أسوة[٩] إلا رجلا مغموصا[١٠] عليه فى النفاق أو رجلا ممن عذر الله تعالى من الضعفاء ، ولم يذكرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس فى القوم ما فعل كعب بن مالك ؟ فقال رجل من بنى سلمة يا رسول الله حبسه برداه والنظر فى عطفيه[١١] ، فقال له معاذ بن جبل : بئس ما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) جلا للناس أمرهم ، أظهره .

(٢) وجههم : جهتهم التى يستقبلونها ومقصدهم . وقد سمى جيش تبوك جيش العسرة لأن الناس ندبوا إليه فى شدة الحر فعسر عليهم وكان وقت إدراك الثمار .

(٣) الصعر بمهملتين مفتوحتين : الميل .

(٤) التجهيز المبادرة إلى الشىء فى أول وقته .

(٥) استمر بالناس الجد أى تابع الاجتهاد فى السير .

(٦) التمادى أى التغافل والتأخير .

(٧) تفارط الغزو تباعد وأشار به إلى ما بينه وما بينهم من المسافة .

(٨) طفقت مثل جعلت .

(٩) الأسوة بضم الهمزة وكسرها القدوة .

(١٠) المغموص : المشار إليه بالعيب .

(١١) نظر فلان فى عطفيه إذا أعجب بنفسه .

فبينا هو على ذلك رأى رجلا مبيضا يزول به السراب[١] ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كن أبا خيثمة ، فإذا هو أبو خيثمة الأنصارى وهو الذى تصدق بصاع من تمر حين لمزه[٢] المنافقون ، قال كعب : فلما بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلا[٣] من تبوك ، حضرنى بثى[٤] فطفقت أتذكر الكذب وأقول بم أخرج من سخطه غدا ، وأستعين على ذلك بكل ذى رأى من أهلى . فلما قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد أظل[٥] قادما ، زاح[٦] عنى الباطل حتى عرفت أنى لن أنجو منه بشىء أبدا ، فأجمعت[٧] صدقه وأصبح قادما ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون[٨] فطفقوا يعتذرون إليه ، ويحلفون له وكانوا بضعة[٩] وثمانين رجلا ، فقبل منهم علانيتهم فبايعهم واستغفر لهم ووكل[١٠] أمرهم إلى الله تعالى ، حتى جئت فلما سلمت تبسم تبسم المغضب ثم قال : تعال ، فجئت حتى جلست بين يديه ، فقال ما أخلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك[١١] : قلت يا رسول الله والله إنى لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر ، لقد أعطيت جدلا ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ، ليوشكن الله تعالى أن يسخطك على ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد[١٢] على فيه ، إنى لأرجو عفو الله تعالى فيه ، والله ما كان لى من عذر ، والله ما كنت قط أقوى

---

(١) يزول به السراب أى يظهر شخصه خيالا فيه .
(٢) اللمز العيب .
(٣) القافل الراجع من سفره إلى وطنه .
(٤) البث أشد الحزن .
(٥) أظل قادما إذا دنى .
(٦) زاح عنى ، زال .
(٧) أجمعت صدقه أى عزمت عليه .
(٨) المخلفون المتأخرون عن الغزو .
(٩) البضع ما بين الثلاث إلى التسع .
(١٠) وكل سرائرهم : أى ردها إلى علم الله تعالى .
(١١) الظهر هنا عبارة عما يركبه .
(١٢) وجد من الموجدة وهى الغضب .

ولا أيسر منى حين تخلفت عنك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله تعالى فيك ، فقمت وثار رجال من بنى سلمة فاتبعونى وقالوا والله ما علمناك أذنبت ذنبا قبل هذا ، لقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر إليه المخلفون ، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك ، قال فوالله ما زالوا يؤنبونني[١] حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكذب نفسى ، قال ثم قلت هل لقى معى هذا أحد ؟ قالوا : نعم رجلان قالا مثل ما قلت وقيل لهما مثل ما قيل لك ، قلت من هما ، قالوا مرارة ابن الربيع وهلال بن أمية ، فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة ، قال فمضيت حتى ذكروهما لى ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لى نفسى الأرض فما هى بالأرض التى أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباى فاستكانا[٢] وقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج وأشهد الصلاة وأطوف الأسواق فلا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ، ثم أصلى قريبا منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلى ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى ، حتى إذا طال على ذلك من جفوة المسلمين ، مشيت حتى تسورت[٣] جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس إلى ، فسلمت عليه فوالله مارد على السلام ! فقلت له يا أبا قتادة : أنشدك الله هل تعلم أنى أحب الله ورسوله ، قال فسكت فعدت فناشدته فسكت ، فعدت فناشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناى ووليت حتى تسورت الجدار ، فبينا أنا أمشى فى سوق المدينة ، إذا نبطى من نبط الشام

---

(١) التأنيب : الملامة والتوبيخ .

(٢) الاستكانة : الخضوع .

(٣) تسورت الجدار : علوته .

ممن قدم بطعام يبيعه فى المدينة يقول من يدل على كعب بن مالك ؟ قال فطفق الناس يشيرون له إلى حتى جاءنى فدفع إلى كتابا من ملك غسان وكنت كاتبا فقرأته فإذا فيه : أما بعد فإنه بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك[١] فقلت حين قرأته وهذا أيضا من البلاء ، فتيممت[٢] به التنور فسجرته حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبثت[٣] الوحى ، فإذا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتينى فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقال فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ، قال لا : بل اعتزلها ولا تقربها ، وأرسل إلى صاحبى بمثل ذلك ، قال فقلت لامرأتى : الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله تعالى فى هذا الأمر ، وجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله : إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ولكن لا يقربنك ! قالت إنه والله ما به حركة إلى شىء ! ووالله مازال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، فقال لى بعض أهلى لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى امرأتك فقد أذن لامرأة هلال أن تخدمه ، فقلت لا أستأذنه فيها ، وما يدرينى ما يقول وأنا رجل شاب ، فلبثت بذلك عشر ليال ، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا ، فصليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله تعالى منا ، قد ضاقت على نفسى وضاقت على الأرض بما رحبت[٤] سمعت صوت صارخ أوفى[٥] على جبل سلع[٦] يقول بأعلى صوته : يا كعب ابن مالك أبشر ، قال : فخررت ساجدا وعلمت أن قد جاء فرج وآذن[٧]

---

(١) المواساة : المشاركة والمساهمة فى المعاش والرزق ونحوهما .
(٢) التيمم : القصد .
(٣) استلبث : أبطأ .
(٤) الرحب : السعة .
(٥) أوفى : أشرف .
(٦) سلع جبل فى المدينة .
(٧) آذن : أعلم .

رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا فذهبت قبل صاحبي مبشرون وركض[١] إلى رجل فرسا وسعى ساع من أسلم قبلي ، فأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوتها إياه ببشارته والله ما أملك غيرهما يومئذ ، فاستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أتأمم[٢] رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلقاني الناس فوجا[٣] فوجا يهنوني بالتوبة حتى دخلنا المسجد ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله الناس ، فقام طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه يهرول حتى صافحني وهنأني ، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره فكان كعب لا ينساها لطلحة ، قال : فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال وهو يبرق وجهه[٤] من السرور أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ، قال : فقلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : بل من عند الله تعالى ، قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا سر استنار وجهه كأنه قطعة قمر ، قال وكنا نعرف ذلك ، فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله . . . من توبتي أن أنخلع[٥] من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، قال : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك ، فقلت : فإني أمسك سهمي الذي بخيبر ، وقلت يا رسول الله . . إن الله تعالى إنما نجاني بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت ، فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله تعالى في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن مما أبلاني ، والله ما تعمدت كذبة بعد ذلك وإني لأرجو أن يحفظني الله تعالى فيما بقي .

فأنزل الله تعالى « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار » حتى بلغ « إنه بهم رؤف رحيم » ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم

---

(١) الركض : ضرب الراكب الفرس برجله ليسرع العدو .
(٢) أتأمم : أقصد .
(٣) الفوج : الجماعة من الناس .
(٤) يبرق وجهه إذا لمع وظهرت عليه أمارات السرور .
(٥) أنخلع من مالي أي أخرج من جميعه .

الأرض بما رحبت » حتى بلغ « اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » ، والله ما أنعم الله تعالى على من نعمة قط بعد إذ هدانى للإسلام أعظم فى نفسى من صدقى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، إن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد ، قال الله تعالى « سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم ، لتعرضوا عنهم فاعرضوا عنهم إنهم رجس[١] ومأواهم جهنم بما كانوا يكسبون ، يحلفون لكم لترضوا عنهم ، فإن ترضوا عنهم ، فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » ، قال كعب كنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله تعالى فيه بذلك ، قال الله عز وجل « وعلى الثلاثة الذين خلفوا » وليس الذى ذكر مما خلفنا تخلفنا عن الغزو وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه[٢] أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه[٣] .

هذا هو الإيمان الحق الذى أريده للمسلمين ليبلغوا الشأو الذى بلغوه وليصلوا للعز الذى وصلوا فى الماضى إليه ! وهذه هى التوبة النصوح التى يحبها الله تعالى !

وظلمة المعصية تنمحى عن القلب بشيئين : حرقة الندم وشدة المجاهدة بالترك فى المستقبل ، فإذا فرضنا تائبين أحدهما سكنت نفسه عن النزوع إلى الذنب والآخر بقى فى نفسه نزوع إليه ، وهو يجاهدها ويمنعها ، فأيهما أفضل ؟

يقول الغزالى إن الذى انقطع نزوعه له حالتان :

(١) أن يكون انقطاع نزوعه إليها بفتور فى نفس الشهوة فقط ، فالمجاهد أفضل من هذا ، إذ تركه بالمجاهدة دليل قاطع على قوة النفس واليقين والدين .

(٢) أن يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة إذ بلغ مبلغا قمع فيه هيجان الشهوة حتى تأدبت بالشرع فلا تهيج إلا بالإشارة من

---

(١) الرجس النجس .

(٢) الإرجاء : التأخير .

(٣) أخرجه الخمسة . راجع ص ١٢٨ — ١٣٣ من تيسير الوصول للشيبانى جـ ١ .

الدين وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها ، فهذا أعلى رتبة من المجاهد المقاسى لهيجان الشهوة وقمعها ، لأن الجهاد ليس مقصودا لعينه ، فإذا قهرته وحصلت المقصود فقد ظفرت !

والخوف لا يتصور أن ينفك عنه مؤمن وإن ضعف ، ويكون ضعف خوفه بسبب ضعف معرفته وإيمانه ، والرجاء والخوف متلازمان ، لأن كل من رجا محبوبا فلابد وأن يخاف فوته ، ويجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان ، ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر فى الحال لغفلته عنه ، وعلى كل حال فهما متلازمان ، ولذلك قال تعالى : « ويدعوننا رغبا ورهبا[١] » .

«سبحانك خالقا ومعبودا بحسن بلائك عند خلقك ، خلقت دارا[٢] وجعلت فيها مأدبة مشربا ومطعما وأزواجا وخدما وقصورا وأنهارا وزروعا وثمارا ، ثم أرسلت داعيا يدعو إليها[٣] ، فلا الداعى أجابوا ولا فيما رغبت إليه رغبوا ولا إلى ما شوقت إليه اشتاقوا ، أقبلوا على جيفة[٤] افتضحوا بأكلها واصطلحوا على حبها ، ومن عشق شيئا أعشى بصره[٥] وأمرض قلبه ، فهو ينظر بعين غير صحيحة ويسمع بأذن غير سميعة ، قد خرقت الشهوات عقله وأماتت الدنيا قلبه وولهت عليها نفسه فهو عبد لها ولمن فى يده شىء منها ، حيثما زالت زال إليها وحيثما أقبلت أقبل عليها ، ولا يزدجر من الله بزاجر ولا يتعظ منه بواعظ وهو يرى المأخوذين على الغرة[٦] حيث لا إقالة ولا رجعة ! كيف نزل بهم ما كانوا يجهلون وجاءهم من فراق الدنيا ما كانوا يأمنون وقدموا من الآخرة على ما كانوا يوعدون ، فغير موصوف ما نزل

---

(١) راجع ٧١ — ١٣٨ من الثقافة الروحية فى كتاب احياء علوم الدين للغزالى لمحمود على قراعة .

(٢) يريد الجنة .

(٣) سيدنا محمد .

(٤) يريد الدنيا .

(٥) أعماه . .

(٦) الغرة بالكسر بغته وعلى غفلة .

بهم ، اجتمعت عليهم سكرة الموت ، وحسرة الفوت ، ففترت لها أطرافهم ، وتغيرت لها ألوانهم ، ثم ازداد الموت فيهم ولوجا[١] فحيل بين أحدهم وبين منطقه ، وإنه لبين أهله ينظر ببصره ويسمع بأذنه على صحة من عقله وبقاء من لبه ، يفكر فيم أفنى عمره ، وفيم أذهب دهره ، ويتذكر أموالا جمعها أغمض فى مطالبها[٢] وأخذها من مصرحاتها ومشتبهاتها ، قد لزمته تبعات جمعها وأشرف على فراقها ، تبقى لمن وراءه ينعمون فيها ويتمتعون بها فيكون المهنأ لغيره والعبء على ظهره ، والمرء قد غلقت رهونه بها[٣] فهو يعض يده ندامة على ما أصحر له[٤] عند الموت من أمره ، ويزهد فيما كان يرغب فيه أيام عمره ويتمنى أن الذى كان يغبطه بها ويحسده عليها قد حازها دونه ، فلم يزل الموت يبالغ فى جسده حتى خالط لسانه وسمعه ، فصار بين أهله لا ينطق بلسانه ولا يسمع بسمعه ، يردد طرفه بالنظر فى وجوههم ، يرى حركات ألسنتهم ولا يسمع رجع كلامهم ، ثم ازداد الموت التياطا[٥] فقبض بصره كما قبض سمعه وخرجت الروح من جسده ، فصار جيفة بين أهل قد أوحشوا من جانبه وتباعدوا من قربه ، لا يسعد باكيا ولا يجيب داعيا ، ثم حملوه إلى محط فى الأرض وأسلموه فيه إلى عمله ، وانقطعوا عن زورته حتى إذا بلغ الكتاب أجله والأمر مقاديره وألحق آخر الخلق بأوله وجاء من أمر الله مايريده من تجديد خلقه ، أماد السماء وفطرها[٦] وأرج الأرض وأرجفها ، وقلع جبالها ونسفها ودك بعضها بعضا من هيبة جلالته ومخوف سطوته ، وأخرج من فيها فجددهم على أخلاقهم وجمعهم بعد تفرقهم ثم ميزهم لما يريد من مسألتهم عن خفايا الأعمال وخبايا الأفعال ! وجعلهم فريقين ، أنعم على هؤلاء وانتقم من هؤلاء ، فأما أهل طاعته فأثابهم بجواره وخلدهم فى داره حيث لا يظعن النزال ولا يتغير لهم الحال ولا تنوبهم

---

(١) دخولا .
(٢) أى لم يفرق بين الحلال والحرام .
(٣) كناية عن تعذر الخلاص .
(٤) ظهر .
(٥) أى التصاقا به .
(٦) أمادها : حركها على غير انتظار . وفطرها : صدعها .

الأفزاع[١] ولا تنالهم الأسقام ، ولا تعرض لهم الأخطار ولا تشخصهم الأسفار[٢] ، وأما أهل المعصية فأنزلهم شر دار وغل الأيدى إلى الأعناق وقرن النواصى بالأقدام وألبسهم سرابيل القطران ومقطعات النيران فى عذاب قد اشتد حره وباب قد أطبق على أهله فى نار لها كلب ولجب[٣] ولهب ساطع وقصف هائل[٤] لا يظعن مقيمها ولا يفادى أسيرها ولا تفصم كبولها[٥] ، لا مدة للدار فتفنى ولا أجل للقوم فيقضى[٦] ، !

« واتقوا الله عباد الله وبادروا آجالكم[٧] وابتاعوا مايبقى لكم بما يزول عنكم ، وترحلوا فقد جد بكم واستعدوا للموت فقد أظلكم وكونوا قوما صيح بهم فانتبهوا وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا ، فإن الله سبحانه لم يخلقكم عبثا ولم يتركم سدى ، وما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به[٨] » !

---

(١) جمع فزع وهو الخوف .
(٢) أشخصه ، أزعجه .
(٣) الكلب بفتح الهيجان ، واللجب : الصوت المرتفع .
(٤) أشد الصوت .
(٥) أى لا تقطع قيوده .
(٦) من خطبة للإمام على رضى الله عنه . راجع ص ٢١٧ — ٢٣١ من نهج البلاغة ج ١ وص ٤ — ٢٨ من وحى الموت لمحمود على قراعة (الطبعة الثانية) .
(٧) أى اعملوا قبل الأجل
(٨) من خطبة للإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه . راجع ص ١١٩ — ١٢١ من نهج البلاغة ج ١

الفصل السابع

روحانية الإسلام فى العبادات

«قال الحسن: قلت أى الأعمال أفضل يا رسول الله؟
قال: أن تموت ولسانك رطب بذكر الله»

لقد ذم القرآن الكريم المادية البحتة والروحية المحضة وحث على الأخذ بالنصيبين، فقال تعالى منفراً من المادية البحتة «من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون، أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار، وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون» وقال فى الحث على ترك الروحية المحضة «قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة»، «ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها»، وقال عز وجل فى الحث على الأخذ بالنصيبين «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا»، ولذا جعل الله تعالى كل أعمال المؤمن حتى فى سعيه لرزقه عبادة، ولكن تعبدنا سبحانه بأشياء خصت بمعنى العبادة، فقال «ما يريد الله ليجعل عليكم فى الدين من حرج، ولكن يريد ليطهركم»، ويقول الغزالى إن لهذه الطهارة أربع مراتب:

(١) تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الأخباث والفضلات (بالاستنجاء والغسل والوضوء بالماء أو التيمم بالمسح بالتراب الخالص اللين إن تعذر عليه استعمال الماء)

(٢) وتطهير الجوارح عن الجرائم والآثام.

(٣) وتطهير القلب عن الأخلاق المذمومة الممقوتة.

(٤) وتطهير السر عما سوى الله تعالى. فالطهارة تكون من الأعيان

النجسة (منه قوله تعالى « وثيابك فطهر » على أحد الأقوال) وتارة من الأعمال الخبيثة (ومنه قوله تعالى « فيه رجال يحبون أن يتطهروا ») وتارة من الأحداث المانعة (وفيه قوله تعالى « وإن كنتم جنبا فاطهروا ») ، ولا ريب فى أن أسمى الطهارة وأسمى معانيها هو تطهير السر عما سوى الله تعالى .

أما الصلاة فهى ذكر الله عز وجل إذ قال الله تبارك وتعالى « وأقم الصلاة لذكرى » ، والذكر فى الصلاة هو محاورة ومناجاة مع الله عزوجل (حمد وثناء وتضرع ودعاء) ، وأما الركوع والسجود فالمقصود بهما التعظيم قطعا ، ولا يكون معظما لله عز وجل الغافل عنه ، فحضور القلب هو روح الصلاة ، ولذا كان على المسلم الحق أن يؤدى الصلاة المكتوبة فى أوقاتها أو أن يؤديها قضاء إذا منعه عذر شرعى عن أدائها فى وقتها ، ولذا أرى أنه يجب قفل دور السينما من الساعة العاشرة صباحا إلى الساعة الواحدة مساء أيام الجمعة ، لكى يؤدى شبابنا ظهر الجمعة فى مساجدهم ولا يلهيهم لهو عن أدائها ، ففى أداء الجمعة فى الجمعة خير كثير ، وفيه تعويد لهم على الصلاة وحث لهم على المحافظة عليها ، على ما فيه من اجتماعهم بإخوانهم المسلمين وشعورهم بالتجاذب والتراحم [1] !

أما الزكاة فقد قال تعالى « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » وهو ربع العشر ، والمسلم الحق هو من يفهم معنى قوله تعالى « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم

---

(١) وإنا لنرجو الأخ الأستاذ فتحى رضوان وزير الإرشاد القومى تنفيذ هذا الاقتراح لما له من سلطة التنفيذ . وإنا لنلاحظ أن الجاليات الأجنبية وأهل الأديان الأخرى يعنون بزيارة اولادهم لمعابدهم يومى الأحد والسبت حرصا منهم على معنيين : معنى موالاة انصالهم بدينهم ومعنى اتصالهم بإخوان دينهم ، فهل نكون نحن أهل الدين الحق وفى بلد دينه الرسمى — بنص دستور الشعب — الإسلام ، أقل غيرة من هؤلاء ؟ وعلى ذكر السينما أشكو للأخ ضعف الوازع الدينى عند بعض رقبائها إذ يسمحون بذكر ألفاظ الكفر فى بعض الأفلام الأجنبية ذات الدعايات الدينية ، وأرجو أن ينص على وجوب حذفها ، كما أرجو أن يشترط فى الرقيب أن يكون على معرفته بالفن واسع الأفق غزير العلم بالدين والتدين ، إذ أذكر أنى رأيت فى العهود الماضية فلما عربيا جيدا صودر لا لشىء إلا لأن بطلته أسلمت فى آخره ثم رأى الرقيب الإفراج عنه بشرط حذف هذه الخاتمة التى رآها حضرته من الممنوعات وأنتهز فرصة الحديث للأخ الوزير راجيا أن يأمر بإلغاء رقص البطن والرقص البلدى من التمثيل والسينما لأن فيهما الفحش المجسم ولا فن فيهما ولا ذوق فن وقد أقرنا الأستاذ أحمد علام نقيب الممثلين على وجهة نظرنا هذه وأنا إذ أشكر الأخ مقدما أرجو له التوفيق فى إجابة رغباتى هذه ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

وأموالهم بأن لهم الجنة ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » ، « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فيعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » فيعلم أن الله تعالى يفتن الذين يدعون الإيمان بألسنتهم أو توسوس لهم به أنفسهم أى يختبرهم ليعلم — وهو عالم الغيب والشهادة — صدقهم إذ قال تبارك وتعالى « وما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه ليميز الخبيث من الطيب » وقال « إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، والله عنده أجر عظيم » وقال « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » ، فيخرج الزكاة زكاة لماله وتطهيرا له ويرجع عن شحه « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ، ويعلم أن مانع الزكاة منحرف عن صراط الدين وعن كمال الإنسانية وصدق الوطنية معاً ، لأن المال إذا لم يقض حوائج الإنسان وإذا لم يصرف فى خيره وخير ذويه ويواسى به المحتاج ، فعرض لا قيمة له ، ولا يحبه لذاته إلا كل مجنون ، أما الذى يصرفه فى لذاته وشهواته فإنسان ساقط إذا تجاوزنا ونسبناه إلى الإنسانية ، وبهيمة قد تستنكر البهائم نسبته إليها !

ويقول الغزالى إن على مريد الآخرة بزكاته وظائف :

(١) فهم وجوب الزكاة ومعناها ووجه الامتحان فيها شكر النعمة وتطهير النفس من صفة البخل بأن تتعود بذل المال !

(٢) والتعجيل عن وقت الوجوب إظهاراً للرغبة فى الامتثال بإيصال السرور إلى قلوب الفقراء !

(٣) والإسرار فإن ذلك أبعد عن الرياء والسمعة ، وأن يظهر حيث يعلم أن فى إظهاره ترغيبا للناس فى الاقتداء !

(٤) أن لا يفسد صدقته بالمن (بذكرها) والأذى (بإظهارها والتكبر على الآخذ وتعييره بالفقر وانتهاره وتوبيخه) !

(٥) وأن يستصغر العطية (لأن العجب محبط للأعمال) !

(٦) وأن ينتقى من ماله أجوده وأحبه إليه وأجله وأطيبه !

(٧) وأن يطلب لصدقته من تزكو به الصدقة ، فيطلب الأتقياء لأن التقى يستعين به على التقوى ، وأن يكون من أهل العلم خاصة إعانة له على العلم ، وأن يكون صادقا فى تقواه وعلمه بالتوحيد بأنه إذا أخذ العطاء حمد الله عز وجل وشكره ورأى النعمة منه ولم ينظر إلى واسطة ، وأن يكون مستترا مخفيا حاجته لا يكثر البث والشكوى ، وأن يكون من أهل المروءة ممن ذهبت نعمته وبقيت عادته ، وأن يكون معيلا أو محبوسا بمرض أو سبب من الأسباب ، وأن يكون من الأقارب فتكون صدقة وصلة رحم ، والأصدقاء وإخوان الخير يتقدمون على المعارف كما يتقدم الأقارب على الأجانب .

هذا ويوجد فى الإسلام غير الزكاة صدقة التطوع إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة » .

وأما الصوم فيقول الغزالى فيه إنه ثلاث درجات : صوم العموم (بكف البطن والفرج عن قضاء الشهوة) وصوم الخصوص (بكف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام ، وعدم الاستكثار من الطعام الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلئ الجوف إذ مقصود الصوم الخواء وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى) وصوم خصوص الخصوص (بصوم القلب عن الهمم الدنيئة والأفكار الدنيوية ، وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية) .

والمسلم الحق يصوم رمضان[1] بالكف عن قضاء شهوتى البطن والفرج وما ألحق بهما ، والمسلم الحق يكثر الصدقة فى رمضان ، إذ سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الصدقة أفضل فقال « صدقة فى رمضان » ، والصوم

---

(١) وعند أبى حنيفة يشترط لوجوب أداء الصوم ثلاثة : الصحة من مرض وحيض ونفاس والإقامة وعند مالك شروط صحته ثلاثة : النقاء من الحيض والنفاس والعقل وأن يكون غير يوم عيد ، وعند الشافعى لا يجب الصيام إلا على مسلم بالغ عاقل مطيق للصوم . والإطاقة للصوم هنا يستفتى فيها القلب السليم والطبيب المسلم النابغ فى فنه التقى . ونرى أنه لا يجوز للصائم أن يتردد على السينما وهو صائم لأنه بالصوم فى عبادة ولا يجوز وهو فى العبادة أن يلهو ، ومحافظة على عينيه لأنهما بالصوم مجهدتان !

الحقيق هو ماعرفه النبي الكريم بقوله : « الصوم نصف الصبر » رواه الترمذى وحسنه وغيره ، وفى رواية البيهقى زيادة « وعلى كل شيء زكاة وزكاة الجسد الصيام » ، والمسلم الحق يفهم سر الصوم وحكمة الله تعالى فيه المعبر عنها فى القرآن بالتقوى « لعلكم تتقون » ، لهذا كان كمال الصوم فى كف جميع الجوارح عن شهواتها لقول النبى صلى الله عليه وسلم « إنما الصوم جنة ، فإذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل ، فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنى صائم » ، وقوله : « ومن لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » !

وأما الحج فقد فرضه الله تعالى على كل مسلم بالغ عاقل حر مستطيع (بأن تمكنه صحته من ذلك وأن تكون الطريق آمنة وأن يجد نفقة ذهابه وإيابه إلى وطنه وأن يملك نفقة من تلزمه نفقته فى هذه المدة) ، ويقول الغزالى إن أول الحج فهم موقعه فى الدين ، ويوضح ذلك بقوله إنه لا وصول إلى الله تعالى إلا بالتنزه عن الشهوات والتجرد لله سبحانه وتعالى فى جميع الحركات والسكنات ولأجل هذا انفرد الربانيون فى الملل السالفة عن الخلق وانحازوا إلى قلل الجبال ، فالحج رهبانيتنا ، فشرف الله البيت العتيق بالإضافة إلى نفسه تعالى ، وجعل ماحواليه حرما لبيته تفخيما لأمره ، يقصده الزوار من كل فج عميق شعثا غبرا متواضعين لرب البيت ومستكينين له ، مع الإعتراف بتنزيهه عن أن يحويه بيت أو يكتنفه بلد ، ليكون ذلك أبلغ فى عبوديتهم وأتم فى إذعانهم ، ولذلك وظف عليهم أعمالا لاتأنس بها النفوس ولا تهتدى إلى معانيها العقول كرمى الجمار بالأحجار والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار وذبح الهدى ، فإذا تحقق بأن البيت بيت الله فينبعث شوقه للحج ، وبعد الشوق يأتى العزم على الحج ، فيجب أن يجعل عزمه خالصا لوجه الله سبحانه وتعالى ، بعيدا عن شوائب الرياء والسمعة ، فإذا عزم فيرى الغزالى وجوب قطع العلائق ويفسره بأنه رد المظالم والتوبة الخالصة لله تعالى عن جملة المعاصى ، ويقول بوجوب أن يطلب الزاد من موضع حلال ، وليذكر أن سفر الآخرة أطول من هذا السفر وأن زاده التقوى ، وإذا أحضر الراحلة فليشكر الله بقلبه

وليتذكر عنده المركب الذى يركبه إلى دار الآخرة وهى الجنازة التى يحمل عليها ، وإذا اشترى ثوبى الإحرام ليتزر بهما عند القرب من بيت الله عزوجل فليتذكر عنده الكفن (إذ ليس فيه مخيط مثله) ولفه فيه عند لقاء الله عز وجل فإذا خرج من البلد ، فليحضر فى قلبه رجاء الوصول والقبول ، وإذا دخل البادية إلى الميقات وشاهد تلك العقبات ، فليتذكر فيها مابين الخروج من الدنيا بالموت إلى ميقات يوم القيامة وما بينهما من الأهوال والمطالبات ، وإذا أحرم ولبى من الميقات ، فليعلم أن معناه إجابة نداء الله عز وجل ، فليرج أن يكون مقبولا وليخش أن يقال له لالبيك ولاسعديك ، فإذا دخل مكة فليتذكر عندها أنه قد انتهى إلى حرم الله تعالى آمنا ، وليرج عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله عز وجل ، فإذا وقع بصره على البيت فينبغى أن يحضر عنده عظمة البيت فى القلب ، ويقدر كأنه مشاهد لرب البيت لشدة تعظيمه إياه ، وليذكر إنصباب الناس فى القيامة إلى جهة الجنة آملين لدخولها كافة ثم انقسامهم إلى مأذونين فى الدخول ومصروفين ، انقسام الحاج إلى مقبولين ومردودين ! وبهذه المعانى يفسر الغزالى باقى الأعمال فيقول إن الحاج إذا طاف بالبيت فليعلم أنه بالطواف متشبه بالملائكة المقربين الحافين حول العرش ، ولا يظنن أن المقصود طواف جسمه بالبيت ، بل طواف القلب بحضرة الربوبية ، فإذا استلم فليعتقد أنه مبايع الله عز وجل على طاعته ، فليصمم عزيمته على الوفاء ببيعته ، فإذا تعلق بأستار الكعبة[1] والتصق بالملتزم ، فلتكن نيته فى الالتزام طلب القرب حبا وشوقا للبيت ولرب البيت ، ولتكن نيته فى التعلق بالستر الإلحاح وطلب المغفرة وسؤال الأمان ، فإذا سعى بين الصفا والمروة فى فناء البيت ، فليتذكر عنده تردده بين كفتى الميزان فى عرصات القيامة ، وليتمثل الصفا بكفة الحسنات والمروة بكفة السيئات ، فإذا اعتكف بعرفة ، فليذكر بما يرى من ازدحام الخلق وارتفاع الأصوات وإختلاف اللغات ، عرصات

---

(١) قال بعضهم تعلق شاب بأستار الكعبة وقال : إلهى لا لك شريك فيؤتى ، ولا وزير لك فيرشى ، إن أطعتك فبفضلك ولك المنة ، وإن عصيتك فبعدلك ولك الحجة على ، فإثبات حجتك على وانقطاع حجتى لديك إلا ما غفرت لى ! فسمع هاتفا يقول : الفتى عتيق من النار !

القيامة واجتماع الأمم مع الأنبياء والأئمة واقتفاء كل أمة نبيها وطمعهم فى شفاعتهم وتحيرهم فى ذلك الصعود الواحد بين الرد والقبول ، وإذا تذكر ذلك فليلزم قلبه الضراعة والإبتهال إلى الله عز وجل فيحشر فى زمرة الفائزين ، وليحقق رجاءه بالإجابة ، وإذا زار المدينة ، فليتذكر أنها البلدة التى اختارها الله لنبيه ، فإذا زار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فينبغى أن يقف بين يديه بسكينة ووجل وليمثل صورته الكريمة فى خياله وليحضر عظيم رتبته فى قلبه ويجب أن يلزم قلبه الحزن والخوف والهم ، إذ لا يدرى أيقبل حجه أم يرد !

ومن العبادة تلاوة القرآن الكريم ، ويقول الغزالى إن ظاهر آداب التلاوة أن يكون القارىء على الوضوء واقفا على هيئة الأدب والسكون إما قائما أو جالسا ، مستقبل القبلة مطرقا رأسه غير متربع ولا جالس على هيئة التكبر . وأن يحسن القراءة ويرتلها بترديد الصوت من غير تمطيط مفرط يغير النظم (لأن الترتيل والتؤدة أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيرا فى القلب من الاستعجال) وأن يتعوذ بالله فى مبتدأ قراءته وليقل عند فراغه « صدق الله وبلغ رسوله » وأن يراعى حق الآيات (فإذا مر مثلا بآية سجدة سجد) ، وأن يجهر بالقراءة إلى حد يسمع نفسه (لأن الجهر يوقظ القلب ويجمع همه إلى الفكر فيه ويصرف إليه سمعه) ، ولكن الإسرار أبعد عن الرياء ! أما أعمال الباطن فى التلاوة فيرى الغزالى أنها فهم أصل الكلام وعظمته وعلوه وفضل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه فى نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إفهامهم ، وأن يحضر القارىء فى قلبه عظمة المتكلم ويعلم أنه « لا يمسه إلا المطهرون » وكما أنه لا يصح لمس جلد المصحف كل يد ، فلا يصح لتلاوة حروفه كل لسان ولا لنيل معانيه كل قلب ، ولذا يجب حضور القلب وترك حديث النفس وأن يتدبر ويتفهم بأن يستوضح من كل آية ما يليق بها ، وأن يتخلى عن موانع الفهم ، وأن يقدر بأنه المقصود بكل خطاب فى القرآن وأن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات ، فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره « وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب ، فحظ اللسان

تصحيح الحروف بالترتيل ، وحظ العقل تفسير المعانى ، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار ، فاللسان يرتل والعقل يترجم والقلب يتعظ » . !

والمسلم الحق يقرأ القرآن ويتأدب فى قراءته ، إذ يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « القرآن أفضل من كل شىء ، فمن وقر القرآن فقد وقر الله ، ومن استخف بالقرآن ، استخف بحق الله ، حملة القرآن هم المخفوفون برحمة الله المعظمون كلام الله الملبسون نور الله ، فمن والاهم فقد والى الله ومن عاداهم فقد استخف بحق الله عز وجل » وينبغى لحامل القرآن أن يكون أول مايقصد بتعليمه وتعلمه وجه الله تعالى لقوله سبحانه « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » وأن يتأدب بآدابه فيمتثل أوامره ويتجنب نواهيه لقوله تعالى « فمن اتبع هداى (يعنى القرآن) فلا يضل[1] ولا يشقى[2] » ، وعن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه ، قال : كنا نتعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم العشر فلا نجاوزها إلى العشر الآخر حتى نعلم ما فيها من العلم والعمل[3] . !

ومن العبادة ذكر الله ودعاؤه ، وقد قال تعالى « اذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ، ولا تكن من الغافلين » وقال « ادعونى أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتى ، سيدخلون جهنم داخرين » ويقول الغزالى إن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام (أو فى أكثر الأوقات) مع حضور القلب ، وهو المقدم على سائر العبادات ، بل به تشرف وهو غاية ثمرتها العملية ، وأول الذكر يوجب الأنس والحب ، وآخره يوجبه الأنس والحب ويصدر عنه ، وهو المطلوب ! ويقول فى تدريج المريد فى سلوك سبيل الرياضة (عند حديثه عن شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة) « إنه إن قال مثلا « الله، الله » أو « سبحان الله ،

---

(١) فى الدنيا . (٢) فى الآخرة .

(٣) ولاريب فى أن أساس البلاغة العربية والبيان العربى هو القرآن الكريم ، وإنى لأذكر دليلا على ضعف الوازع الدينى فى بعض النفوس أنه كان المقرر فى جميع المدارس المصرية أن يحفظ التلاميذ أمثلة من القرآن كشواهد لألوان البيان العربى ، ولكن أحد وزراء المعارف فى العهود الماضية أراد مجاملة وزير غير مسلم ذى نفوذ فقرر حظر هذه الأمثلة ! مع أن الوزير المسيحى نفسه يجيد حفظه كله!

سبحان الله » أو ما يراه الشيخ من الكلمات ، فلا يزال يواظب عليه حتى تسقط حركة اللسان ، وتكون الكلمة كأنها جارية على اللسان من غير تحريك ، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يسقط الأثر على اللسان ، وتبقى صورة اللفظ فى القلب ، ثم لا يزال كذلك حتى تمحى عن القلب حروف اللفظ وصورته ، وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب حاضرة معه غالبة عليه ، فقد فرغ عن كل ما سواه » . ومن ذكر الله الاستغفار اتباعا لقوله تعالى « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ، ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم » والصلاة على النبى إذ قال « إن الله وملائكته يصلون على النبى ، يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » وفى الصلاة على النبى امتثال أمر الله وشكره سبحانه بطلب زيادة فضل لمن أجرى نعمة الإيمان على يديه وهو الرسول الكريم[1] .

والمسلم الحق يذكر الله تعالى بأن يتوجه له بكليته سواء نطق باسمه الكريم أو لم ينطق وسواء كان فى ذلك قائما أو قاعدا أو نائما كما قال تعالى « فإذا قضيتم الصلاة ، فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم » وقال تعالى « واذكروا الله ذكرا كثيرا » أى بالليل والنهار فى البر والبحر والصحة والسقم فى السر والعلانية ، وقال مجاهد الذكر الكثير أن لا تنساه أبدا ، والذكر المطلوب ذكر القلب وإنما ذكر اللسان طريق إليه ، والذكر واجب فى جميع الأحوال ففى الطاعة يذكره بالتوفيق ويطلب منه القبول ، وفى المعصية يدعوه بالامتناع ويسأله التوبة ، وفى النعمة يذكره بالشكر ، وفى الشدة يذكره بالصبر ، ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من أطاع الله فقد ذكر الله ، وإن قلت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن » .

ويقول الأستاذ عبد الوهاب الشعرانى : « ومما أنعم الله به على مواظبتى أوائل دخولى فى محبة طريق القوم على ذكر الله تبارك وتعالى بلفظ الجلالة أربعة وعشرين ألف مرة فى كل يوم وليلة عدد الأنفاس الواقعة فى الثلاثمائة

---

(١) راجع ص ٤٥ — ٥٨ من الثقافة الروحية فى كتاب إحياء علوم الدين للغزالى لمحمود على قراعة .

وستين درجة ، وكنت أذكرها تارة فى مجلس واحد وتارة فى مجالس على نية أن الله تبارك وتعالى يبسطها لى على جميع الأنفاس الواقعة فى الليل والنهار ليكون حكمى إن شاء الله تعالى حكم من لم يغفل عن الله عز وجل نفسا واحدا ، ولم أزل على ذلك حتى استحكم فى الحضور مع الله تبارك وتعالى فى أكثر أوقاتى ، فكانت لى كالمادة التى يستمد الإنسان منها المراقبة لله عزوجل والحضور معه تبارك وتعالى طول عمرى ، فإن الذكر باللسان إنما هو وسيلة لحضور القلب لأنه يجلى القلب من الظلمات والأدناس والرعونات المانعة من دخول حضرة الله تبارك وتعالى ، فإذا انجلى القلب كذلك صار ليلا ونهارا يستحضر فى نفسه أنه بين يدى الله جل وعلا ، والله تبارك وتعالى ناظر إليه ، فهذا هو الذكر الحقيقى الدائم الذى تصل إليه الفقراء (يريد الصوفيين) فى سلوكهم بالذكر والخلوة والرياضة فلا يحتاجون بعد ذلك إلى ذكر اللسان ، إنما ذكرهم به تطوع ليزينوا جوارحهم الظاهرة بالذكر أو ليقتدى بهم المريدون ، وإلا فمن كان يستحضر دائما أن الله يراه فمن أدبه الصمت والهمس قال تعالى « وخشعت الأصوات للرحمن ، فلا تسمع إلا همسا » أى من شدة الهيبة والحضور مع الله تعالى كما ذكرنا ، فلا يقدر على تكليف نفسه الحضور على الدوام ، إنما هو تارة وتارة ، بخلاف من حصل له العادة بأنه لا يتكلف الحضور كما أنه لا يتكلف لدخول النفس وخروجه »[1] !

ويقول ابن تيمية إن الاجتماع لذكر الله واستماع كتابه والدعاء ، عمل صالح وهو من أفضل القربات والعبادات فى الأوقات ، ولكن ينبغى أن يكون هذا أحيانا فى بعض الأوقات والأمكنة ، فلا يجعل سنة راتبة يحافظ عليها إلا ما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم المداومة عليه فى الجماعات من

---

(١) راجع ص ٥٨٣ من لطائف المنن والأخلاق فى بيان وجوب التحدث بالنعمة على الإطلاق للشعرانى . وقد ذكر رضى الله عنه أنه أرشد أخاه الشيخ يوسف الطهوانى إلى هذا الذكر فذكر أنه حصل له أمارة الفتح وهو رسم الجلالة بالنور فى محل تصوره وحضوره ، ثم انتشر من الجلالة نور ملأ الأفق أو أكثر من غير وجود شىء معه ، هذا وهو ملاحظ للجلالة بعين الروح مع التلاوة لها باللسان حتى يتمكن تمكن الرجال وتنتفى عنه الخواطر والأكدار إذ الجلالة معقلة تصقل قذى الأغيار عن وجوه الأسرار .

الصلوات الخمس فى الجماعات ومن الجمعات والأعياد ونحو ذلك ، وأما محافظة الإنسان على أوراد له من الصلاة أو القراءة أو الذكر أو الدعاء طرفى النهار وزلفا من الليل وغير ذلك ، فهذا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والصالحين من عباد الله قديما وحديثا ، ما سن عمله على وجه الاجتماع كالمكتوبات فعل كذلك ، وما سن المداومة عليه على وجه الانفراد من الأوراد ، عمل كذلك ، كما كان الصحابة رضى الله عنهم يجتمعون أحيانا يأمرون أحدهم يقرأ والباقون يستمعون ، وما يحصل عن السماع والذكر المشروع من وجل القلب ودمع العين واقشعرار الجسوم ، فهذا أفضل الأحوال التى نطق بها الكتاب والسنة وأما الاضطراب الشديد والغشى والموت والصيحات ، فهذا إن كان صاحبه مغلوبا على أمره لم يلم عليه لأن منشأه قوة الوارد مع القلب مع ضعف القلب والقوة ، وأما السكون قسوة وجفاء فهذا مذموم لا خير فيه ، والمشروع من السماع الذى تصلح به القلوب ويكون وسيلتها إلى ربها بصلتها بينه وبينها ، هو سماع كتاب الله الذى سمعه خيار هذه الأمة(١)

هذا ولقد سئل ابن تيمية عن عدة مسائل يشتبه على الطالب فيها من جهة الأفضلية مما اختلف فيه الأئمة ، فأجاب بأن هذه المسائل التى يقع فيها النزاع مما يتعلق بصفات العبادات ، أربعة أقسام

(الأول) ما ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سن كل واحد من الأمرين واتفقت الأمة على أن من فعل أحدهما لم يأثم بذلك ، لكن قد يتنازعون فى الأفضل ، وهو بمنزلة القراءات الثابتة عن النبى صلى الله عليه وسلم التى اتفق الناس على جواز القراءة بأى قراءة شاء منها كالقراءات المشهورة بين المسلمين ، فهذه يقرأ المسلم بما شاء منها وإن اختار بعضها لسبب من الأسباب ، ومن هذا الباب الاستفتاحات المنقولة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقولها فى قيام الليل وأنواع الأدعية التى كان يدعو بها فى صلاته فى آخر التشهد ، فهذه الأنواع الثابتة عن النبى صلى الله عليه وسلم كلها سائغة باتفاق

(١) راجع ص ١٨٥ و١٨٦ من فتاوى ابن تيمية المجلد الأول .

المسلمين ، لكن ما أمر به من ذلك أفضل لنا مما فعله ولم يأمر به ، وما تنازع العلماء فى وجوبه فهذا أوكد مما لم يأمر به ولم يتنازع العلماء فى وجوبه ، وكذلك الدعاء الذى كان يكرره كثيرا كقوله « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » أوكد مما ليس كذلك[١] .

و (القسم الثانى) ما اتفق العلماء على أنه إذا فعل كلا من الأمرين ، كانت عبادته صحيحة ولا إثم عليه ، لكن يتنازعون فى الأفضل ، وفيما كان النبى صلى الله عليه وسلم يفعله ، ومسألة القنوت فى الفجر والوتر والجهر بالبسملة وصفة الاستعاذة ونحوها ، من هذا الباب ، فإنهم يتفقون على أن من جهر بالبسملة صحت صلاته ومن خافت صحت صلاته ، وعلى أن من قنت فى الفجر صحت صلاته ومن لم يقنت فيها صحت صلاته ، وكذلك القنوت فى الوتر ، وإنما تنازعوا فى وجوب قراءة البسملة ، وجمهورهم على أن قراءتها لاتجب ، وتنازعوا أيضا فى استحباب قراءتها ، وجمهورهم على أن قراءتها مستحبة[٢] .

و (القسم الثالث) ما قد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سن الأمرين لكن بعض أهل العلم حرم أحد النوعين أو كرهه لكونه لم يبلغه أو تأوله فى الحديث تأويلا ضعيفاً ، والصواب فى مثل هذا أن كل ما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته فهو مسنون لا ينهى عن شىء منه ، وإن كان بعضه أفضل من ذلك ، ومن هذا الباب الصوم والفطر للمسافر فى رمضان ، فإن الأئمة الأربعة اتفقوا على جواز الأمرين ، وذهب طائفة من السلف والخلف إلى أنه لا يجوز إلا الفطر وأنه لو صام لم يجزئه ، وزعموا أن الإذن لهم فى الصوم فى السفر منسوخ بقوله « ليس من البر الصيام فى السفر »

---

(١) وقد ثبت عنه فى الصحيح أنه قال : إذا قعد أحدكم فى التشهد فليستعذ بالله من أربع ، يقول : اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال ! فالدعاء بهذا أفضل من الدعاء بقوله : اللهم اغفر لى ماقدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت . ويقول ابن تيمية : هذا أيضا قد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقوله فى آخر صلاته ، لكن الأول أمر به . راجع ص ٢٩٦ من فتاوى ابن تيمية م ٢ .

(٢) راجع ص ٣٩٧ — ٤٠٧ من فتاوى ابن تيمية م ٢ .

والصحيح ما عليه الأئمة ، وليس فى هذا الحديث ما ينافى إذنه لهم فى الصيام فى السفر ، فإنه نفى أن يكون من البر ولم ينف أن يكون جائزا مباحا ، والفرض يسقط بفعل النوع الجائز المباح إذا أتى بالمأمور به ، والمراد به كونه فى السفر ليس من البر كما لو صام وعطش نفسه بأكل المالح وضحى للشمس ، فإنه يقال ليس من البر الصيام فى الشمس ، ولهذا قال سفيان بن عيينة معناه ليس من صام أبر ممن لم يصم ، ففى هذا ما دل على أن الفطر أفضل فإنه آخر الأمرين من النبى صلى الله عليه وسلم فإنه صام أولا فى السفر ثم أفطر فيه ، وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أن حمزة وابن عمرو سأله فقال : إنى رجل أكثر الصوم أفأصوم بالسفر ؟ فقال : إن أفطرت فحسنا وإن صمت فلا بأس ! فإذا فعل الرجل فى السفر أيسر الأمرين عليه من تعجيل الصوم أو تأخيره ، فقد أحسن ، فإن الله يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر ! أما إذا كان الصوم فى السفر أشق عليه من تأخيره ، فالتأخير أفضل ، فإن فى المسند عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته .

وأما (القسم الرابع) فهو ما تنازع العلماء فيه فأوجب أحدهم شيئا أو استحبه وحرمه الآخر ، والسنة لا تدل إلا على أحد القولين لم تسوغهما جميعا[1] .

أيهما أفضل تلاوة القرآن مع أمن النسيان أو التسبيح وما عداه من الاستغفار والأذكار فى سائر الأوقات ؟ يقول ابن تيمية إن أكثر السالكين ، بل العارفين ، إنما يخبر أحدهم عما ذاقه ووجده ، لا يذكر أمرا عاما للخلق إذ المعرفة تقتضى أمورا معينة جزئية ، والعلم يتناول أمرا عاما كليا ، فالواحد من هؤلاء يجد فى الذكر من اجتماع قلبه وقوة إيمانه واندفاع الوسواس عنه ومزيد السكينة والنور والهدى مالا يجده فى قراءة القرآن ، بل إذا قرأ القرآن لا يفهمه أولا يحضر قلبه وفهمه ويلعب عليه الوسواس والفكر ، كما أن من الناس من يجتمع قلبه فى القرآن وفهمه وتدبره مالا يجتمع فى الصلاة بخلاف ذلك ،

---

(١) راجع ص ٤٠٧ — ٤٠٩ من فتاوى ابن تيمية م ٢ .

وليس كل ما كان أفضل يشرع لكل أحد ، بل كل واحد يشرع له أن يفعل ما هو أفضل له . وفى أوقات النهى عن الصلاة فإن القراءة والذكر والدعاء أفضل فى هذا الزمان ، كذلك الأمكنة التى نهى عن الصلاة فيها كالحمام وأعطان الإبل والمقبرة ، فالذكر والدعاء فيها أفضل ، وكذلك المحدث القراءة والذكر فى حقه أفضل ، وكذلك حال الركوع والسجود فقد اتفق العلماء على كراهة القراءة فى الركوع والسجود تشريفاً للقرآن وتعظيما له أن لا يقرأ فى حال الخضوع والذل ، كما يكره أن يقرأ مع الجنازة ، كما كره أكثر العلماء قراءته فى الحمام !

ويقول ابن تيمية بعد ذلك إنه إذا عرف هذان الأصلان : فيقال : الأذكار المشروعة فى أوقات معينة مثل ما يقال عند جواب المؤذن هو أفضل من القراءة فى تلك الحال ، وكذلك ما سنه النبى صلى الله عليه وسلم فيما يقال عند الصباح والمساء وإتيان المضجع وهو مقدم على غيره ، وأما إذا قام من الليل فالقراءة له أفضل إن أطاقها ، وإلا فليعمل ما يطيق ، ولهذا نقلهم عند نسخ وجوب قيام الليل إلى القراءة ، قال تعالى « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك ، والله يقدر الليل والنهار ، علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ، فاقرأوا ما تيسر من القرآن »[1] .

هذا وقد حث الشرع على الاقتصاد فى الأعمال فعن عائشة رضى الله عنها قالت : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندى امرأة من بنى أسد فقال من هذه ؟ قلت فلانة لا تنام الليل ، فقال مه ! عليكم من الأعمال ما تطيقون فإن الله تعالى لا يمل حتى تملوا وكان أحب الدين إليه ما دام عليه صاحبه ، وفى رواية للبخارى والنسائى عن أبى هريرة أن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، واعترض قوم على هذا الحديث بأنه يبطله النظر لأن الله تعالى لا يمل على كل حال ولا يكل ، ورد عليهم ابن قتيبة بما خلاصته أن التأويل

---

(١) راجع ص ١٩٦ — ١٩٨ من فتاوى ابن تيمية م ١ و ص ٧٢٣ — ٧٢٥ من وحى الأحاديث المحمدية لمحمود على قراءة الجزء الثانى .

لو كان على ما ذهبوا إليه ، كان عظيما من الخطأ فاحشا ، ولكنه أراد بأن الله سبحانه وتعالى لا يمل إذا مللتم[١]

وحدثنا نبينا الكريم عن حسن جزاء الله عز وجل لذاكريه ، فعن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه حين يذكرنى ، فإذا ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ، ذكرته فى ملأ خير منه ، فإن اقترب إلى شبرا ، اقتربت إليه ذراعا ، وإن اقترب إلى ذراعا ، اقتربت منه باعا ، وإن أتانى مشيا أتيته هرولة[٢] ا ،

وبذا نختم هذ البحث بما بدأناه به من أن أفضل الأعمال ذكر الله وأن مخ العبادات هو هذا الذكر !

---

(١) راجع ص ٢٥ — ٣٣ من وحى الأحاديث المحمدية لمحمود على قراءة الجزء الثانى و ص ٤٥٠ و ٤٥١ من تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة .

(٢) راجع ص ٣٦١ من وحى الأحاديث المحمدية لمحمود على قراءة الجزء الأول .

وبعـــد !

« بسم الله ما شاء الله ، ما شاء الله
لا يسوق الخير إلا الله ، ما شاء الله
لا يصرف السوء إلا الله ، ما شاء الله
ما كان من نعمة فمن الله ، ما شاء الله
لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ،
وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى
العربى القرشى الهـاشمى وعلى آله
وصحبه وسلم »

. . . فقد حدثناك عن الإسلام بما يوصلك إلى الله لو اتبعته ، ويجعلك مسلما حقا لو حققته ، ومنه ترى أن الإسلام يحب القوة ويحب الحق ويحب الجمال ويحب النظافة الداخلية والخارجية ، فمن سيرة الرسول الكريم عرفنا أنه كان يحب من الأسماء ما كان جميلا وكان يحب جمال البيان ويحب الطيب ويستحسن الزينة لكل من الرجال والنساء — ولكنه كان يكره أن يبالغ الرجال فيها أو أن تخرج بها المرأة عن الأدب مع الغير — وكان يستحسن الترجيل للشعر وكان يحب السواك ، وكان من سنته صلى الله عليه وسلم قص الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة ، وكان يحب الوفاء للناس وللأماكن وللجهات ، وكان بارا بأهله وولده وأصدقائه ، وكان يمزح ويسمح باللهو البرىء ولا يقول إلا حقا ، وكان يحب القوة فى كل معانيها[1] .

ويسرنى أن قد تطور تفكير العلماء فرجعوا بآرائهم إلى حقيقة الإسلام ، فلقد أصدر فضيلة المفتى العبقرى الشيخ حسن مأمون فتوى بعدم حرمة لبس القبعة ، فسررت ، لأنى لبست القبعة فى الصيف الماضى لأتقى بها الشمس فقابلنى شيخ غر جاهل لا يعرفنى واتهمنى غاضبا بأن لبس القبعة معصية لا تجوز ،

---

(١) راجع ص ٥٧ و ٦٢ و ٨١ — ١١٤ من وحى الأحاديث المحمدية الجزء الأول لمحمود على قراعة .

ولست أدرى أيهما فى عرف الحقيقة معصية ؟! أن أجبه الناس بما يكرهون وأن أتهمهم بما هم عنه بريئون ، أم بأن أدرأ عن نفسى شر حرارة الشمس وأنا بذلك لم أوذ أحدا ولم أجرح إحساس أحد ؟ ثم ماذا جنت القبعة على التدين وهى ليست إلا غطاء رأس بشكل مخصوص ، كل ما قد يأخذه الشيخ أننا لم نعتده وإن يكن لا ضير فى أن نعتاده !

ثم ماذا يضير التدين أن يلبس شيخ معمم أو غير معمم زيا أوروبيا؟ أرسل إلينا أستاذنا الشيخ أمين الخولى سنة ١٩٤٠ رسالة يرد بها على خطاب منا أرسلناه إليه عقب رؤيتنا له مرة بالزى الإفرنجى ، منها « أبادر فأقول لك يا عزيزى إن هذا زى قديم عندى حملته أعواما وأنا كاره له وتركته حين حانت فرصة ذلك فى مصر.. ولو كنت يا محمود قد غيرت بعد هذا كله لعددت ذلك وعددته أنا ، اضطراب رأى فى الحياة . ليس خليقا برجل يحرص على سلامة النفس ، ويحاول أن يشعر بشخصيته الاجتماعية ، وليس ذلك ذودا عن رأى فى الزى أو اكبارا لأمره ، ولكنه اطمئنان إلى أن هذه وأشباهها قشور لا يغير بها تخص ولا يتغير فلتكن كما تجىء ، وإذا كنت قد نشأت معمما فلأبق على ما نشأت ، وليس من الهمة فى شىء أن أنشط إلى استبدال زى بزى لغير اعتبار هام ، إلا أن يكون مجاراة لمن يزن الناس بأغطية رؤسهم ويقدرهم بلفائف أجسامهم ، وأنا إذ أقدر مثل هذا النظر أكون أتفه من صاحبه وأهون على نفسى وعلى الزمن من خرقة يعبث بها الهواء أو لون يمحل من أشعة الشمس . . إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى أعمالكم ، تلك نظرة الإسلام إلى الحياة ، فهل تراها تدع مجالا للاهتمام بالزى ! . . . أنا يا عزيزى آنس إلى زيى الذى ألفته إلى الظروف أو ألفتنى إليه فصار له على حق الإلف الطويل وله ميزة ملاءمة الجو إلى حد ما أو قل فى أكثر أجزائه ، ولست أطرحه فيظن تافه أنى أحب أن ألقب بالبك أو ما يشبهها ويحسب أنى أكره أن أكون الشيخ فلانا ، فأنا أوثر المعالنة بأنى شيخ ولا على إن تخففت فى رحلة أو نزهة أو رياضة ، فليس الزى عندى شيئا يفكر فيه أو يدبر له ، بل هذا غلاف لا غير . . . »

لذلك استغربت ما قرأته فى أهرام ٢١ يناير سنة ١٩٥٦ من أن مشيخة

الأزهر وجهت إلى الأساتذة والمدرسين فى الكليات الأزهرية الثلاث وإلى شيوخ المعاهد الدينية كتابا تناشدهم فيه أن يلتزموا حدود الزى الأزهرى المؤلف من العمامة والجبة والقفطان (وقد نسيت الحزام!) ، وقالت إن هذا الزى المتعارف هو السمة المميزة لرجال الدين فى مصر ، وطلبت إليهم فى هذا الكتاب أن يلتزموا هم ويلزم الطلاب بهذا اللباس بحيث يكون الزى موحدا متسقا بين الطلاب وأساتذتهم !

وعجبت إذ أن المشيخة بعد أن رأت الطلاب الأزهريين وكثيرا من الأساتذة والمدرسين فى مختلف المعاهد قد مضوا فى طريقهم وظلوا يلبسون الزى الإفرنجى — عادت تقول لشيوخ المعاهد فى كتاب رسمى أنها سبق أن أرسلت إليهم منشورا خاصا بالأساتذة الذين يتخذون الزى الإفرنجى بدلا من الزى الأزهرى العربى المعهود ، ونبهت فى ذلك الخطاب إلى ما فى هذا التقليد من خروج لا يليق بالبيئة الأزهرية التى يعد الزى العربى مظهرا خاصا له أثره فى تقدير الناس لها وتمييزهم بين العالم الدينى وغيره فى أغلب الأحيان !

وأرى[١] أنه لا تثريب على الطلبة والأساتذة لاتخاذهم الزى الإفرنجى لأنهم راعوا فيه مظهرين المظهر الاقتصادى والمظهر الدينى ، إذ لا يتنافى لبسه مع الدين ، على أن المظهر العلمى الدينى لا يتنافى معه أيضا ، ويا ضيعة العلم إذا كان مظهره أى زى مهما كان له من الإلف الطويل ، لأن الدين فى القلوب والعلم فى الصدور ولا شأن لهما بزى أو بآخر ، على أن الإسلام يأمر جميع بنيه بالبحث والتعلم والتعليم والخلق الكريم ، ولا يعرف كهنوتا ولا لبس كهنوت ![٢] .

---

(١) مع أن بيتى أزهرية معممة من أب وأعمام وجدود ؛ إذ أن والدى رئيس المحكمة العليا الشرعية السابق ، وأحد أعمامى المفتى الأسبق ، والعم الآخر قاضى قضاة السودان . وجدى قاضى أسيوط الأسبق هو وأبوه وجده ، ومع تقديرى الكلى لعبقرية الأستاذ الشيخ عبد الرحمن تاج شيخ الجامع الأزهر ذى الثقافتين العربية والأوروبية . ولكنى أحب الحق أكثر من أهلى وممن أحب !

(٢) وأذكر هنا نكتة رواها لى أحد الأساتذة الأجلاء عن عالم يكذب ويظلم ويفجر ، فإذا جابهه أحد ، قال : إن العالم لا يكذب ولا يظلم ولا يفجر ، وهو واقع فالمحذور ! وأعرف عالما

فالبسوا أيها الطلاب وأيها الأساتذة ما شئتم ، البسوا الزى المألوف إذا رغبتم والبسوا الزى الإفرنجى إذا تقتم ، فكل ما نريده منكم هو حب العلم والبحث والتخلق بأخلاق الدين وأن تخدموا الشريعة الإسلامية بالمحافظة على تراثها الثمين ، اتركوا التزمت الباطل[1] وحافظوا على التزمت الصحيح واخدموا دينكم بالفهم الصحيح لهذا الدين الكريم !

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

محمود على قراءة

منشية البكرى فى { أول رمضان سنة ١٣٧٥ هـ
{ ١٢ أبريل سنة ١٩٥٦ م

آخر كان يرى أحد الشبان المثل الأعلى الذى تتطلع النفوس لمثله ، فلما صاهره قال عنه إنه مريض بالهستريا ودواؤه عنده الصفع بالنعال ونزح المجارى ، ورفع عليه دعوى النفقة فالدفع أو الحبس !

(١) أذكر أنى كنت أراجع كتابا فى المطبعة لأحد أساتذتى المعممين الأفاضل ، فورد فى كتابه عن الرسول الكريم قوله إن المسلمين الأوائل كانوا إذا بصق يلتزمون بصاقه وإذا توضأ يلتزمون وضوءه ، فأصررت على حذف هذا الكلام لأنه غير صحيح ولأنه لو كان صحيحا صدوره منهم فليس بالصحيح أن النبى كان يقبله منهم ، لأن الماء فى فم النبى طاهر ما كان فى فيه ، ولكنه إذا ما خرج منه كان كأى خارج ، لأنه بخروجه من فيه ينفصل عنه ، أما الوضوء فتطهير ولا يكون التطهير إلا من حدث ومن نجاسة والمسلمون الأوائل كانوا يطيعون الرسول الكريم ويحبونه ولكنهم كانوا يعرفون من الشريعة أدق أسرارها ففير معقول منهم الخروج هذا الخروج عنها ، وتذكرت فى الحال رواية أحد الأصدقاء إذ طلب من حبيب له أن يبصق فى فيه ليجد فى ذلة نفسه لذة ، وظاهر أن حب أصحاب النبى الكريم له كان حبا روحيا لله ورسوله حب طاعة لغرض سام هو الجهاد ولغرض أسمى هو الوصول إلى الله ، وليس من الجهاد ولا من الوصول إلى الله هذا الافتراء الذى يدعون . كذلك أذكر أنى كنت أراجع مع نفس الأستاذ كتاباً آخر له كان يتحرج فيه عن ذكر الحديث من غير تلك العنعنات عن فلان . . . عن فلان ، ويرى فى ذكرها قدسية ! . .

أهم مراجع كتاب التدين الحق

مرتبـــة حسب الرجوع إليها فى الكتاب

(١) النظام والإسلام : لأستاذنا المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى — تحدث فيه بفلسفته المعروفة عن جمال الكون ووجوب التفكر فيه ، مستشهدا بالقرآن الكريم .

(٢) الثقافة الروحية فى كتاب إحياء علوم الدين للغزالى : لمحمود على قراعة (المؤلف) — قال عنه أستاذنا المرحوم الشيخ أحمد إبراهيم : « . . وجدتك يا محمود قد وفقت فيه إلى عمل محمود ، وأجدت فيه ما استطعت » ، وقال عنه الأستاذ محمد سعيد السحراوى : « إنه دراسة قوية لتحفة رائعة قوية » .

(٣) كتاب الإرشاد : لبعض العلماء — تحدث فيه نخبة من العلماء عن إرشاد المسلمين للواجب عليهم اتباعه فى دنياهم للفوز بأخراهم .

(٤) فتاوى ابن تيمية : وهى فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتمتاز بأن صاحبها كان يستند فيها على الكتاب والسنة وعلى روح الإسلام .

(٥) وحى الأحاديث المحمدية : (الجزءان الأول والثانى) لمحمود على قراعة ، تحدث عن الجزء الأول منهما أستاذنا المرحوم الشيخ أحمد إبراهيم فقال : « . . . حقا إنه كتاب قيم جدا ، قد وفقت فيه كل التوفيق كتابة وموضوعا ، وقمت فيه بأجل خدمة لسيدنا ومولانا محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم » ، وتحدث رحمه الله عن جزئه الثانى فقال . « ... قد قرأت كثيرا من موضوعاته ، فكنت أتنقل فيه من حسن إلى حسن ، وإنى أنصح لطلاب العلم بالأزهر الشريف والمعاهد الدينية الإسلامية أن يقرأوا الكتاب ليستفيدوا منه ما لا يمكنهم استفادته فى سنين ، مع سهولة فى العبارة وحسن التقسيم والتبويب ، مع ما فيه من المزية الكبرى وهو أخذ الأحكام من ينبوعها الأصلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . . » ، وتحدث أستاذنا المرحوم محمد لطفى جمعة عن طريقة المؤلف بقوله إنه « قد أدخل الطريقة الحديثة إلى بحوثه وتأليفه ، فهو يجوس خلال النصوص ويسيح فى مجلداتها الضخمة سياحة عالم أزهرى (وإن يكن من أفاضل خريجى كليتى الحقوق والآداب) دقيق النظر أليف تحقيق وحليف فحص وتمحيص ، حتى إذا ظفر بالنص الذى يؤدى إلى غايته وضعه فى مكانه اللائق به وأتقن التقديم له

والتعليق عليه ونقد آراء شراحه ومفسريه . ولكن المؤلف قد رسم خطة لكتابه فهو يشرح التاريخ الإسلامى فى عهد الرسول ويفسر الشريعة والأخلاق على ضوء العلوم الحديثة ، وقل أن تجد من يتبع هذه الطريقة غير ابن تيمية وابن قيم الجوزية والشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا وهذا الأديب .

(٦) تأويل مختلف الحديث : لابن قتيبة : تحدث فيه عن الاعتراضات الموجهة لبعض الأحاديث ورده عليها .

(٧) المنن الكبرى : للامام عبد الوهاب الشعرانى : تحدث فيه عن نعم الله عليه فى تطهيره من نقائص الصوفيين .

(٨) حكم ترجمة القرآن الكريم : لأستاذنا المرحوم الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوى — تحدث فيه عن حكم الشرع فى ترجمة القرآن الكريم .

(٩) القول الوثيق فى الرد على أدعياء الطريق : لأستاذنا المرحوم الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوى — رد فيه على دعاة الصوفية .

(١٠) محاضرات فى النصرانية : لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبى زهرة — محاضرات عن رأى الإسلام فى التحريفات التى أدخلت فى النصرانية الأولى .

(١١) تلبيس إبليس : لابن الجوزى — تحدث فيه عن التلبيسات التى يظن أنها حق وهى باطل .

(١٢) خطرات نفس : لأستاذنا الدكتور منصور فهمى — تحدث فيه صادقا عن خطرات نفسه الصافية .

(١٣) نعيم الجنة : لمحمود على قراعة — تحدث فيه عن نعيم الجنة بحسياته وروحانياته .

(١٤) حاشية الدر المختار : لابن عابدين — وهى فتاوى ابن عابدين .

(١٥) إحياء علوم الدين : للغزالى — تحدث فيه حجة الإسلام الغزالى عن المنجيات والمهلكات والعبادات والمعاملات .

(١٦) الحياة الزوجية من الوجهتين التشريعية والاجتماعية : لمحمود على قراعة — تحدث عنه أستاذنا الشيخ عبد الجليل عشوب ، فقال إنه : « دل على روح طيبة ونفس عالية ونشاط جم ورغبة صادقة فى المساهمة فى خدمة المجتمع وتهذيبه ، وإصلاح ما اعوج من أخلاقه والتوى من عاداته . . » وقال عنه أستاذنا المرحوم الشيخ

عبد المجيد اللبان : « يسرنا كثيرا أن تخرج مصر هذه العقول الكبيرة الراجحة لتخرج الأسرة المصرية من ظلام حالك بهيم كاد يفنيها ، وقد لا أكون مبالغا إن قلت إن مؤلفكم هذا هو الوحيد من نوعه ، وإن مصر ستجنى من ثماره الشهى والبهيج ».
وتحدث عنه الأستاذ عمر مرعى ، فقال « قد لمست فيه روحا قوية ، جدير بها أن تنقل شباب الجيل الى طريق الهداية والرشاد ، وما نفس المؤمن الصادق الا من النور الإلهى وتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم »

(١٧) تفسير القرطبى : وهو من التفاسير القيمة للقرآن الكريم .

(١٨) دروس المعاملات الشرعية : لوالدنا فضيلة الأستاذ الشيخ على قراعة — تحدث فيه عن المعاملات فى الإسلام .

(١٩) العلاقة الدولية فى الحروب الإسلامية : لوالدنا فضيلة الأستاذ الشيخ على قراعة — تحدث فيه عن صلة المسلمين بمحاربيهم فى العهود الأولى للاسلام .

(٢٠) نهج البلاغة : (الجزءان الأول والثانى) — جمعت فيه خطب وحكم الإمام على بن أبى طالب وشرحها الإمام محمد عبده .

(٢١) تيسير الوصول : للشيبانى — ذكر فيها الصحيح من أحاديث الرسول .

(٢٢) خطب الرئيس جمال عبد الناصر : (الأجزاء الثلاثة) — جمعت فيها خطب الرئيس جمال عبد الناصر ، وهى خطب سياسية اجتماعية أخلاقية دينية ، ترمى للمثل العليا وفيها « الشعوب التى تساوم على حريتها توقع وثيقة عبوديتها » ، « نريد أن يؤمن الفرد بنفسه » ، « خلقنا الله أحرارا » ، « تعاونوا على الخير » ، « لاتتهاونوا فى حقوق بلادكم » ، « مصر يجب أن تحيا عزيزة » ، « الحرية حق لنا » ، « أصبحت مصر للمحكومين لا للحاكمين » ، « لن تمكن للمستعمر من بلادنا » ، « الواجبات قبل الحقوق » ، « ثورتنا سياسية واجتماعية واقتصادية » ، « التضحية فى سبيل الله » ، « يجب أن يتحد العرب والمسلمون لمحاربة عدوهم المشترك » ، « تخلصوا من الأنانية والفردية » ، « لاحرية مع الرشوة والاستغلال . « يجب أن تجمعنا المحبة لنبنى مجتمعا قويا » ، « الحاكم أخ للمحكوم لاسيده » ، « تحرير الفرد تحرير للوطن » ، « الشباب مستقبل هذا البلد » ، « نريد نقدا نزيها » . « الغلبة والنصر لقوى الخير دائما » ، « واجب الجيش أن يحمى الوطن فى الداخل وفى الخارج » ، « الوطن فى حاجة لجميع الجهود » ، « الضغينة لا تبنى » ، « محمد العظيم كان يعتمد على الصراحة والصدق »

« لاخداع فى طلب الحرية » ، « لن نقضى على الحقد بالحقد » ، « سأظل جمال ابن بنى مر أعمل لرفعة الوطن » .

(٢٣) حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح : لابن القيم — يتحدث فيه عن نعيم الجنة.

(٢٤) « الله » والقصد المجرد فى معرفة الاسم المفرد : وهى حكم الصوفى الكبير ابن عطاء الله السكندرى ، وترمى كلها للتوحيد والفناء فى الله تبارك وتعالى .

(٢٥) العقد النفيس فى نظم جواهر التدريس : — وهى دروس الصوفى الكبير الشيخ الحسينى المغربى ، وتدل على صوفية طاهرة .

(٢٦) وحى الموت : لمحمود على قراعة — يتحدث عن الموت وحقيقته ، ودفع الخوف منه وكشف قربه ودفع جهله ، وعن الروح وصلتها بالجسم ومناجاتها وحديثها .

تصـــويبات

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤	٨	حان	ثمان	٧٦	٢	قرفه	فرقه
١٠	٢٤	من كتاب	فى كتاب	٨١	٣	المراد	المراء
١٦	١٧	عبارات	عبادات	٨٠	١٢	أفات	آفات
	١٨	الطفولية	الطفولة	١٠٠	٢٣	أشرب	شرب
٣٧	٢١	أو إن وقع	وإن وقع	١٠٤	١٣	فكم	فلم
٤٣	٣	الشنارى	الشناوى	١٠٥	١٦	للاخرين	للآخرين
٤٤	٨	تصيره	تصير	١١٢	٦	« يقول الغزالى :	: يقول الغزالى «
٤٨	٢٣	من للرقى	للرقى	١٢٣	٩	بها	بما
٤٩	١٤	مبعدا	مبعد	١٢٩	٢٢	القاءها	القاؤها
٥١	٤	أحدا	أحد	١٣٨	١	مقصور لا على	مقصورا على
	١٤	~~دعوا~~	ذلك! (١)	١٣٨	١٨	الإله	إلاله
	٢٢	أمه	~~(٢)~~	١٤٣	٢٣	نيه	نيته
٦٢	٢	أنهما	إنهما	١٥١	١	التبجح	والتبجح
٦٨	١٠	لشهودة	لشهوة	١٥٣	٥	فأنار	فأنا
٦٩	١٣	الاختبارات	الاختيارات	١٥٧	٢	فذهبت	فذهب
٧٥	١٩	فهستانى	قهستانى	١٥٧	٤	فكسوتها	فكسوتهما